التربية والأخلاق

بحث علمي عملي في تكوين الأخلاق

تأليف

يعقوب فام

[M. A. Yale]

أستاذ فى التربيــة من جامعة ييل

سكرتير قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية



سـنة ١٩٣٠

مطبعة المجلة الجديدة ١٤٩ الملـكة نازلى مصر

التربية والأخلاق

بحث علمى عمــــلى فى تكوين الأخلاق

تأليف

يعقوب فام

[M. A. Yale]

أســتاذ فى التربيــــة من جامعة ييل

سكرتير قسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية



ســـــنة ١٩٣٠

مطبعة المجلة الجديدة ١٤٩ الملــكة نازلى مصر

مقدمة

هذا فى جوهره هو موضوع الرسالة التى وضعتها لنيل درجة استاذ فى التربية .M. A من جامعة ييل Yale بالولايات المتحدة . وعندما فكرت فى الكتابة عن هذا الموضوع لم اتقيد الا باعتبارين اثنين وهما أولا أن اقوم بما وضعته على ادارة الجامعة من المطاليب لنيل تلك الدرجة . وثانيا أن يكون البحث مفيداً للآباء والمربين فى مصر ومساعداً لهم على التصرف فيما يعرض لهم من المشاكل فى تربية اطفالهم . وقد نلت به الغرض الاول . وتبقى الثانى . وهذا متروك لجمهور القراء ليحكموا لى أو على فيه

وليس يخفى على القراء ما فى هذا من صعوبة . لأنه ليس من السهل أن يقصد الانسان بعمل كهذا إلى غرضين كهذين متباينين جد التباين . فليس من السهل أن يرضى مؤلف اساتذة التربية فى احدى جامعات العالم الشهيرة وفى نفس الوقت يرضى القارىء العادى فى القاهرة . لا بد وانه يغضب الاثنين فى بعض المواقف ولا بد أيضا أن يرضى احدهما على حساب الآخر فى بعض المواقف الاخرى . لأن ذلك فى طبيعة الاشياء . . . ثم إن ما يخيفنى أكثر فى هذا المجال هو ما علمته قبيل سفرى من أمريكا من أن هذه الرسالة قد نالت كثيراً من التقدير عند الاساتذة الذين نيطت بهم مأمورية مراجعتها . يخيفنى هذا كثيراً لأنه دليل على انى راعيت أحد الطرفين فى هذا الامر أكثر مما راعيت الآخر . فقد ارضيت طرفا لا بد وأن يكون ارضاؤه على حساب الطرف الثانى

وللسبب المتقدم فكرت أول ما فكرت فى أن اضع كتابا آخر للآباء فى مصر . وفعلا شرعت فى هذا وحضرت بعض المواد وكتبت بضعة عشر صفحة منه . ولم يكن لهذا سوى غرض واحد وهو مساعدة الآباء والمربين مساعدة فعلية فى المعضلة التى تعترضهم فى معالجة سلوك الاطفال . بعد أن اخذت احقق هذه الفكرة وبعد

أن خطوت فيها الخطوات الاولى اطلع أحد اصدقائى على فكرتى فنصح لى بأن اترجم الرسالة نفسها الى اللغة العربية اولا . ثم أعود فى المستقبل لاضع ما عزمت أن اكتبه فى الاصل . وفعلا أخذت بهذه النصيحة وأخرجت هذه الرسالة فى اللغة العربية

وليس هذا الكتاب ترجمة للرسالة . بل هو فى الواقع شىء قائم بذاته مبنى فى الاصل على الرسالة وانما بكثير من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان . وكل ذلك لاجعلها تتفق مع غرضى من نشرها فى مصر . فالرسالة اذن هى الاساس الذى بنى عليه هذا الكتاب

وقد ظهر التغيير والتبديل والزيادة والنقصان على اتمه فى الفصل الثانى — البيئة المصرية — لأن هذا الفصل فى الواقع له معنيان ويرمى الى غرضين متباينين . ولا يمكن أن ينفع فى مصر ما وضع منه لأمريكا . ففى أمريكا اردت أن اضع امامهم ما خفى عليهم من البيئة المصرية . وهذا فى ذاته لا ينفع المصريين اذا ما كتب عنه شىء . لأن ذلك تحصيل حاصل لا طائل تحته . وعلى هذا وجدت انه من المستحسن أن اغير وابدل واحذف وازيد كثيراً على ما كتبت فى أمريكا . وبغير هذا لم يكن من الممكن أن يدخل هذا الفصل فى صلب هذا الكتاب

وترددت كثيراً فى حذفه مرة واحدة لان فى ذلك خسارة كبيرة على الغرض الذى اسعى اليه . ففى التربية الاخلاقية يحسن جداً أن لا نهمل البيئة كعامل اساسى لهذه التربية . فكان من الضرورات القصوى أن ندمج شيئا مثل هذا فى صلب الكتاب

وثمة أيضا الفصل الرابع عن التربية الجنسية . فقد ادخلت على هذا الفصل كثيراً من التغيير والاصلاح . ثم اضفت اليه شيئا كثيراً حتى يصير ذا نفع للآباء والمربين فى مصر

ولخير الطفولة فى بلادنا اكرس هذا الكتاب

يعقوب فام

الفصـــل الأول

ماهية الاخلاق

ماهو الخلق

فى طبيعة الأشياء ان التعريف يأتى أخيراً أى بعد بحث الموضوع من كل وجوهه . أو بعد ان يكون الكاتب قد جمع كل العوامل التى يتألف منها وبعد ان يكون قد استوعبها وحدد لكل عامل فعله وأثره فى نظام البحث الذى هو آخذ فيه . وذلك لأن التعريف فى أول البحث يشعر القارىء بتعسف الكاتب نوعا ما لأنه فى هذه الحالة يكون من الرجم بالغيب ان يرى القارىء كيف وصل المؤلف إلى مثل ذلك التعريف . وثمة اعتراض آخر على تعريف الاخلاق وذلك لأنه يجعلها أبسط من الواقع فهو على هـذا معطل للتفكير الجدى لأنك إذا ما عرفت شيئاً شعرت فى نفسك وأشعرت غيرك ان هذا الشىء مفروغ منه

ومع كل هذه الصعوبات التى تعترضنا فى مفتتح الطريق يحسن بنا فى حالتنا هذه ان نحدد الدائرة التى سنبحث فيها فيجدر بنا اذن ان نضع لبحثنا حدوداً حتى نستنير فيه نوعا ما — فنقول اذن على سبيل الدخول فى الموضوع ليس إلا — ان الاخلاق هى ميول فى الفرد نحو أنظمة الهيئة الاجتماعية وتصرفاتها — ونقصد بذلك انها تتوقف على نوع الأنظمة والتصرفات التى يحبذها الفرد ويعضدها بالقول أو بالفعل أو باتجاه فى ميوله أو بهذه جميعاً

وقبل ان نخوض فى اراء الفلاسفة وعلماء النفس فى الاخلاق يحسن بنا ان ننوه إلى ان العلماء انقسموا إلى مدارس متباينة من حيث الطريقة التى بها يتناولون الموضوع أولا ومن حيث الموضوع فى نفسه ثانياً . ثم يحسن أيضاً ان ننبه الاذهان إلى ان الاخلاق قد اختلطت بالشخصية فى بعض الاحوال و بالوجدان أو بالارادة أو بالذكاء فى بعض الاحوال الاخرى

فاما من جهة الطريقة التي بها نتناول الاخلاق ونبحثها فقد تعددت بتعدد العلوم التي استخدمها العلماء للاستنارة في هذا الموضوع . فمنهم من قال انه يستطاع درس الأخلاق بعلم تقاطيع الوجه Morphology وبشكل الجمجمة Phrenology وبعضهم أصر على استخدام الكيمياء في تحليل عناصر الجسم زاعمين ان بعض المواد الكماوية التي يتركب منها الجسم لها تأثير وأى تأثير في أخلاق الفرد . وبعضهم أيضاً يذهب إلى ان الطبيعة Physics هي العلم الوحيد الذي يمكن استخدامه في اكتشاف ماهية الاخلاق . ويطول بنا المقام لو أردنا ان نسرد أنواع العلوم التي استخدمت في شرح هذا التركيب الذي نسميه الأخلاق . فعلم التشريح Anatomy وعلم الاحياء Biology وعلم التاريخ Chronology وعلم الاجنة Genetics — كل هذه وجدت من يزعم ان هذا أو ذاك هو العلم الوحيد الذي يكشف لنا عن حقيقتها — ولكن عند ظهور علم النفس واستقلاله عن الفلسفة وقيامه بنفسه كعلم مستقل مثل باقي العلوم أخذ الرأى فيها يتطور تطوراً سريعاً . فاستطاع علم النفس بالتعاون مع علم الاجتماع ان يخدم قضية الاخلاق خدمة لم تستطع العلوم السالفة الذكر كلها ان تقوم بها .

واما من حيث الموضوع نفسه فثمة ثلاث مدارس قامت جميعها على نظرية تقسيم النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام . وهي (١) الوجدان أو الحس أو العاطفة (٢) الارادة (٣) العقل أو الذكاء . وبميولها تتميز كل واحدة من هذه الثلاث المدارس عن اخواتها في المذهب الذي تذهبه في الأخلاق . فاحداها تزعم مثلا ان الأخلاق وجدان أو عاطفة أو انهـا مستمدة من الوجدان والعاطفة فقط . والاخرى تذهب إلى انها من صنع الارادة . والاخيرة تزعم ان الاخلاق نتيجة التفكير والعقل

وليس يخلو تقسيم هذه المدارس اقليمياً من خطر كبير . ولكني سأحاول ان أفعل ذلك وأرجو ان لا أزعج المفكرين بمثل هذا التقسيم الذي يجب ان يقابل بالتسامح الكثير منهم — لان أقل مايقال لصالح هذا التقسيم ان للاقليم بعض الأثر في نفوس الناس وميولهم ان لم يكن أثره قوياً قاهراً . فمن هذه الوجهة اذن يصح ان نحاول هذا التقسيم فنقول مثلا انه يغلب على المدرسة اللاتينية ترجيح العاطفة . وعلى المدرسة الجرمانية تغليب الارادة . واما المدرسة الانجلوساكسونية فانها تغلب العقل أو الذكاء

فى أمر الاخلاق . وبعبارة أخرى تتبع الاولى (بين Bain) و (ريبو Ribot) و (فوييه Fouillé) وتتبع الثانية (كانت) واما الثالثة فتتعبد على يدى سقراط

وعلى أى حال إذا أخذنا بعلم النفس يجب أن تكون الاخلاق مزيجاً من هذه الثلاثة العناصر . ونقول مزيجا تمشيا مع العلم فقط . لأن الاخلاق ليست مزيجاً أو مركبا وانما هى عنصر واحد . ولكننا نتمشى مع العلم قليلا ونزعم جدلا انها مزيج مركب من هذه الثلاثة العناصر وهى الوجدان والارادة والذكاء . وقد زعم (كلاجز Klages) الألمانى انه يستطيع بعملية حسابية بسيطة أن يعرف الاخلاق . فهى فى رأيه تتوقف على النسبة بين القوة الدافعة والمدى الذى يستطيع الانسان أن يذهبه فى التحكم فى هذه القوة الدافعة . وبعبارة أخرى يزعم كلاجز أن الاخلاق هى أولا أن يكون للانسان حيوية ونشاط وثانياً أن يكون مستطيعاً أن يتحكم فى هذا النشاط . فلو شعر الانسان مثلا أنه مدفوع لأن يفعل أمراً ثم كبح هذا الميل فهو ذو أخلاق من نوع معلوم بشرط أن تكون النسبة بين الميل للحركة والامتناع عنها ثابتة غير متغيرة . وليس هذا الزعم إلا مخاطرات علمية يصعب الأخذ بها ويعوزها البرهان أو كما يقول الفلاسفة هذا حل مغر لبساطته

أراء بعض العلماء

بعد هذه المقدمة نعود إلى الموضوع نفسه لنخوض قليلا فى أراء العلماء فيه . وسنحاول أن ننقد هذه الآراء لنرى مايتفق منها ووجهة نظرنا وما لايتفق ولماذا لايتفق

رأى الدكتور بيرس

يقول الدكتور بيرس (١) Dr. Pierce « عند ماتنسب الأخلاق لفرد فاننا نقصد بها مجموع كل عناصر الشخصية كالفكر والعاطفة والغريزة — فالاخلاق هى محصل كل المعرفة سواء أكانت هذه المعرفة وراثية أم اكتسابية . مضافا اليها كل العناصر الأخرى من أفعال منعكسة وعاطفة وغريزة وعقل سواء أكانت كل هذه

(1) Edgar Pierce "The Philosoply of Character,, Page 11—12.

موروثة أم مكتسبة ــ وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن الاخلاق والشخصية هما شيء واحد »

وهنا يتبين لنا مقدار الصعوبة التى تعترضنا عند ما نحاول أن نعرف شيئاً ما . فقد أسند الدكتور بيرس كل مافى الانسان إلى الأخلاق ولم يستثن شيئاً . فلباس الفرد محسوب على خلقه . وكذلك الحال مع قامته ومنظره وجاذبيته وعيونه ولون جلده ومشيته . كل هذه واشباهها جزء من خلقه لانها جزء من شخصيته . أوليست « الاخلاق والشخصية شيئاً واحداً »

وعلى هذا فقد فاتنا ان نتعرف أخلاق الفرد فى ذاتها . وان نحددها ونحصرها . فقد صارت أمراً شائعاً لايمكن تميزها عن باقى الانسان كله . واذن ليس ثمة شيء قائم بذاته يسمى الاخلاق . وليست هى صفة للشخصية أو حالة من حالاتها . ومن ثم لانستطيع ان نزنها بأى ميزان أونحكم عليها بأنها سامية أومنحطة . حسنة أو رديئة . لأننا فى هذه الحالة نكون قد حكمنا على الكائن كله بأنه سام أو منحط . كأن نقول هذا قط دنيء وذلك ذئب سام . أو نكون قد حكمنا على الفرد بما لم يقترفه . كأن يكون حكمنا منصباً أيضاً على ماقد ورثه . والحال انه ليس الانسان مسئولا عما ورث . والا فهل يستطيع انسان ان يتخير جلده وشكل جمجمته . وتلافيف مخه ؟ ثم إذا كانت الاخلاق والشخصية شيئاً واحداً فكيف يتسنى لنا ان نزعم ان أخلاق هذا الانسان أو ذاك هى ميوله واتجاهات نفسه الملازمة له ؟ الحق ان الأمر فى هذا التعريف قد اختلط على الدكتور بيرس اختلاطاً كبيراً . وقد شعر هو نفسه بهذه الاعتراضات ونوه عنها فى ذيل الصفحة

وثمة شيء آخر يوضح هذه النقطة وهوتحديد المسئولية التى تترتب على تصرف الانسان تصرفا مقصوداً . فالانسان مسئول عما يفعل والجماعة البشرية تحتفظ لنفسها بحق عقابه والاقتصاص منه عند مايأتى أمراً مخالفاً للنظم الموضوعة أو تظن الجماعة انه مخالف لها . فلوتم الخلط بين الشخصية والاخلاق لصار للجماعة البشرية الحق فى عقاب الافراد على أمور لايصح عقلا ان يعاقبوا عليها . ولا نظن ان انسانا يدعو إلى عقاب الأفراد للأثر الذى يتركونه فى نفوس السابلة . كأن يكونوا غير مقبولين

شكلا . أو لان محضرهم لا يروق للآخرين . أو لأنهم غير موفقين فى صداقتهم . لأنه ليس لهم ملكة لاجتذاب قلوب الناس . وذلك لان كل هذه الاشياء فى رأينا هى من عناصر الشخصية . فلو اتبعنا الدكتور بيرس وذهبنا وراءه لوقعنا فى هذا التناقض

ويتفق الاستاذ روباك A. A. Roback معنا فى هـذا النقد ويحمل مثلنا على الخلط بين الشخصية والاخلاق أو بين الفرد وصفاته إذ يقول (١) « ليس ثمة صلة بين خواص الفرد ومميزاته وعاداته الخاصة به وبين أخلاقه . فكل هذه وان كانت لا تنفصل عن الشخصية إلا انها لا علاقة لها بأخلاقه . فمثلا ما العلاقة بين خلق الانسان وبين الكيفية التى يقبض بها على قلمه ؟ أو مظهره بالاجمال ؟ أو فأفأته وتردده عند التحدث ؟ فكل هذه من مميزات الشخصية ولكنها لا علاقة لها البتة بأخلاق الناس »

رأى كانت

واما (كانت) فيذهب إلى ان الاخلاق وليدة الارادة . فى رأيه ان « الخلق هو طبيعة الارادة » . فهو يقول فى ذلك (٢) ان « الانسان يستمد قواعد سلوكه من نفسه ومن جلال الانسانية . فالخلق هو المبـدأ الثابت الذى بموجبه يستخدم الانسان مواهبه وميوله . وهو على ذلك ليس شيئاً سوى طبيعة ارادته . وقد يكون حسناً أو سيئاً . ثم قد يمكن ان يكون الانسان حسن الطوية ومع ذلك لا خلاق له . وذلك لأنه مدفوع فى أعماله بالغريزة وليس بالمبادىء »

وبالطبع نرى من هذا ان (كانت) Kant يخلط بين الارادة وبين الاخلاق . فاذا ماحسنت الارادة حسن الخلق . أو بعبارة أخرى يكفى ان يكون للانسان ارادة حسنة . واما ماعدا ذلك فليس يهم فى شىء . وعلى هذا فالارادة موجدة الاخلاق وباعثها . واما غاية الافعال أو ماتحدثه هذه الافعال فى الواقع فليس يغنى فتيلا

(1) A. A. Roback "The Psychology of Character,, Page 157—158

(2) W. H. Kilpatrick "Source Book in The Philosophy of Education,, Page 333.

إذ ماهو الواقع وما علاقته بالخلق ؟ كلا ليست الآداب تقوم على نتائج الافعال بل على الارادة التى تصحب هذه الافعال — وعلى هذا يمكننا ان نحكم على الافعال بالنيات فان صلحت النيات لا يهمنا شيء مما قد كان — واما الاحساس والعاطفة اللتان يعتقد علم النفس انهما الدافعان الاصليان للفعل والحركة والنشاط العادى فليس لهما موضع من أخلاق (كانت)

رأى روباك

ويقول الدكتور روباك (١) ان « الخلق حالة أو ميل نفسى يتحكم فى الغرائز ويمنعها من ان تتحقق وذلك بمقتضى مبدأ منظم لتلك الغرائز » . وقد يكون هذا تعريفاً مضبوطاً من وجهة علم النفس لو شاء روباك ان يضعه بطريقة ايجابية . أو لو شاء ان يستبدل هذا « المنع » بشيء ليس فيه منع . أو على الاقل لو فسره تفسيراً ايجابياً . — وذلك لسبب بسيط وهو ان الخلق ليس شيئاً سلبياً أو على أقل تقدير ليس سلبياً فحسب . فالاخلاق ليست الضغط على الغرائز والاعمال الفطرية أو منعها من التحقق والظهور — إذ ان عدم تحقيق رغائب الفطرة ليس معناه بالضرورة ان الكائن ذو أخلاق . وإلا لو كان الامر كذلك لكنا نطلب المستحيل عند ما نسعى لتربية النشء على المبادىء القويمة . فالحقيقة الراهنة هى ان الناس مسيرون بغرائزهم وبالفطرة . ولن يستطيع الناس ان يسيروا ويسعوا ويحيوا إلا بهؤلاء . فاذا حاولنا منع ذلك فكأننا نقاوم أصول الحياة والسعى والنشاط فى الكائن الحى وذلك من المستحيل

وعلاوة على ذلك فالغرائز والفطرة شيء مرغوب فيه للحياة نفسها اذ أن غرضها جميعا هو الحياة — حياة الفرد وحياة النوع — فكيف يخطر لنا أن نمنع شيئا فى تحقيقه تحقيق للحياة نفسها ؟ . ومع ذلك اليس معنى هذا اننا نئد الغرائز ؟ والحال ان وأدها (Repression) شيء ذو خطر ومود بالقوى العاقلة ومسبب للامراض النفسية التى قد تنتهى الى الجنون كما يقول اطباء النفس (or Psychoanalysts

---

(1) A. A. Roback "The Psychology of Character.,, Page 450

Psychiatrists) ؟ نعم هو كذلك فليس يخشى اطباء النفس هؤلاء شيئا كما يخشون وأد الغرائز

الحق أن روباك نفسه قد شعر بتلك المآخذ في تعريفه وحاول أن يدفعها عنه مراراً وبذل مجهوداً كبيراً ليتهرب من النتائج المترتبة عليها (١) فهو يقول في موضع آخر من مؤلفه الضخم القيم (٢) « وأول اعتراض سيوجه لتعريفي للاخلاق على ما اظن هو انه تعريف سلبي » ، ثم يأخذ في التدليل على أن منع الغرائز من تحقيق غاياتها ليس شيئاً سلبياً . ويضرب لنا مثلا على ذلك من العلوم الطبيعية فيقول اننا نقيس طاقة (energy) الاجسام بقدرتها على مقاومة الحركة . ولكن روباك فاته الصواب . فان القياس هنا مع الفارق لأن طاقة جسم ساكن هي فيالواقع شيء سلبي . فالاجسام الساكنة تقاوم الحركة . أي ان ما يقاس فيها ليس موجوداً فيها اصلا . فلو أردنا أن نقيس ما ليس فيها فبالطبع ستكون الكمية الناتجة سلبية . وعلى هذا فالقياس من الاصل ليس صحيحاً ولا ينطبق على حالتنا هذه . والا فهل نستطيع أن نزعم أن الغرائز سلبية في علاقتها بالاخلاق ؟ أوبعبارة أخرى هل نصيب لو قلنا أن الغرائز والاخلاق احدهما للآخر عدو مبين ؟ أو هل نصيب اذا قلنا انه لو تحققت غايات الغرائز لانعدم الخلق فتظهر الفضيلة عندما نكتم انفاس الفطرة؟ تلك هي النتيجة المنطقية لزعم الاستاذ روباك . وفي الحق اننا نحس عندما نقرأ كتابه انه قلق لمثل هذا التعريف وشاعر أن مثل هذا الزعم مطعون فيه . والدليل على قلقه هذا محاولته مراراً وتكراراً ان يتنصل من هذه النتيجة . والحافه الكثير في هذا التنصل . وتجد ذلك ظاهراً في صحف كثيرة من كتابه القيم .

وبعد بحث كثير ومحاولات لا طائل تحتها يسأل روباك نفسه هذا السؤال (٣) « لماذا لم يكن تعريفنا للاخلاق ايجابياً كأن نقول مثلا انها تنظيم الغرائز بدلا من قمعها ؟ » يسأل هكذا وليس يجيب على هذا السؤال بطريقة مقنعة . وفي رأينا أن هذا التعريف اقرب للحقيقة مما ذهب اليه . وعلى أي حال فهو يزعم انه متى كان القمع موزعاً توزيعاً عادلا على الغرائز جميعا فقد اطمأن الفرد على اخلاقه . اما في رأينا

(1) Pages 454, 463, 561, And 563. (2) Page 450.

(3) Page 560.

نحن فان تنظيم الغرائز هو اجدى على الاخلاق من قمعها اذ أن الأصل فيها تحقيقها وليس خنقها

ويذهب مذهبنا هذا الفيلسوف جون واطسون (١) فى كتابه عن الفلسفة اذ يقول أن الفضيلة تتمشى مع غاية الطبيعة والحياة . فطبيعة الوجود نفسه فاضلة «وكل قانون للفضيلة هو اقرار بأن طبيعة الفرد المثلى تتحقق على هذا الوجه » وطبيعة الكون فى رأينا مثلى وفاضلة وهى تسعى لأن تتحقق فينا كأفراد وكنوع . فالفضيلة المطلقة اذن تحاول أن تحيا فى الفرد وتتحقق فيه . بخلاف رأى روباك الذى يريد منع التدفق بين الكل والفرد . أو بعبارة أخرى نحن نتبع فلسفة التفاؤل ويخيل الينا أن روباك يتبع فلسفة التطير والتشاؤم

رأى هادفيلد

واما هادفيلد (٢) فيذهب الى أن الخلق هو قيمة النفس المتزنة « والنفس المتزنة هى تلك التى تنسقت فيها الميول الطبيعية والعواطف وترتبت . . . وهذه الميول وتلك العواطف اتسقت وتضافرت على غاية واحدة . فالخلق صفة النفس والارادة سلاحها » فنجد من ذلك أن هادفيلد يذهب مذهباً ايجابياً فى تعريف الاخلاق فهى فى رأيه شيء ما . بخلاف روباك الذى يزعم انها وجود للاشيء

فالخلق اذن هو اتساق العواطف والغرائز بحيث تخدم كلها غرضاً واحداً مشتركا — كلها نافعة بشرط أن تنمو وتتقدم بنسبة بينها معلومة — أ وبعبارة أخرى لا يصح أن تنمو بعض الغرائز وتتحقق على حساب البعض الآخر والا فقد انعدم الخلق . ويذهب هادفيلد فى هذا الى حدوده . فهو يؤكد لنا انه متى كان نماء الغرائز الاجتماعية — غرائز حب الغير وحب الجماعة وخدمتها — على حساب غريزة حب النفس فقد انهدم ركن من الاخلاق . فالنماء فى هذه الحالة لا يقصد به سوى نمو الغرائز مجتمعة

وتعريف هادفيلد هذا حق ولا يمكن أن يكون الا حقاً ولكن تنقصه الدقة

---

(1) John Watson "An Outline of Philosophy,, Page 188—189.

(2) Hadfield "Psychology And Morals,, Page 66—69

والتحديد . ففي حالته الراهنة ليس ما يمنع من أن ينسحب على اشياء اخرى كثيرة لا يجوز للخلق أن ينسحب عليها — فقولك أن الخلق صفة النفس حق ولكنه لا يهم كثيراً اذ انك لم تقرر شيئا ذا خطر . فالخلود صفة للنفس ايضاً . والهدوء والنفور صفتان لها والكرم والاسراف والشح والتقتير صفات للنفس ايضاً . فماذا نستنتج من هذا كله ؟ اننا لم نحدد شيئا اذا قلنا أن الاخلاق صفة للنفس . وبعبارة أخرى اننا لم نأت بجديد ولم نوضح معنى ولم نعد أن نقول أن الماء هو ماء .

وفي تعريف هادفيلد للاخلاق مأخذ آخر فقد جردها من أي اشارة الى الجماعة البشرية وأمور الجماعة البشرية . حقاً انه في تعريفه لم ينكر علاقتها بالاجتماع ولكنه في نفس الوقت لم يثبت بتعريفه أن لها علاقة به . ومن تعريفه لها ليس ما يمنعنا من القول ان انسانا في زحل أو في عطارد أو المريخ ذو اخلاق فاضلة بغض النظر عن علاقته بهيئة من الهيئات . وليس ما يمنعنا على حد تعريفه أن نقول أن الانسان يستطيع أن يكون ذا اخلاق حسنة بغض النظر عن علاقته بالعائلة الانسانية كلها . فلو أخذت انسانا بمفرده الى جزيرة نائية في اقاصي المحيط وتركته هناك يرعى النجوم لاستطعنا بمقياس هادفيلد أن نحكم على اخلاق هذا الفرد

فاذا استطعنا أن نجرد الاخلاق من علاقتها بالاجتماع أو اذا استطعنا أن نجدها بغير اشارة الى الآخرين فماذا يمنعنا أن ننسب الاخلاق لبعض الحيوانات الدنيا أو لكل الحيوانات أو حتى لكل انواع الحياة ؟ فهل نستطيع اذن أن نزعم أن اخلاق البرتو بلازم هي صفة نفسه ؟ اليس يقصد بالاخلاق في هذه الحالة السعي أو الحركة أو النشاط ؟ الحق انه يجب التفرقة بين الاخلاق والنشاط في مجموعه

رأي بوفنبرجر

يقول بوفنبرجر (١) أن «الاخلاق في رأي ، ما ، هي شيء يعرف من السلوك . وفي رأي آخر اكثر شيوعا من الاول انها مجموعة السلوك أو عينة منه» وبالطبع نجد

---

(1) Poffenberger "Applied Psychology — Its Principles and Methods" Page 325—326

أن رأى بوفنبرجر يتفق ورأى هادفيلد من جهة ومذهب بيرس من جهة أخرى . فليس فيه شيء جديد . وعلى هذا فقد اغنانا عن البحث فى قيمته لأن ما قيل فى هذين يقال فيه ايضاً . ومع ذلك فان هذا التعريف للاخلاق لا يختلف فى شيء عن تعريف السلوك عامة لانه اذا كان مجموع السلوك هو الخلق فللكهربة electron خلق ايضاً اذ أن لها سلوكاً فى ظروف مختلفة

نقد عام لهذه الاراء

وعلى أى حال يلوح لنا أن الطريقة التى استعملت فى تعريف الأخلاق للآن هى إحدى اثنتين — اما تحليل علمى أو اطلاق وتعميم على غير جدوى — وكلتا الطريقتين لاتخلوان من مآخذ كثيرة . لأن التعميم لايخلو من خطر ادخال عناصر غريبة فى الموضوع كان لايصح السماح لها بالدخول . فهو اذن لايخلو من تسرع ويدل على أن الموضوع لم يستوف استقصاء وبحثاً . واما الطريقة العلمية فسنتناولها بالبحث قريباً وسوف ندل على عيوبها الملازمة لها . وعلى أى حال لايحسن بنا أن نشدد النكير فى نقدنا لهؤلاء الباحثين لأن ماعملوه لم يخرج عن إحدى هاتين الطريقتين وبهما لايمكننا أن نأتى بأحسن مما أتى هؤلاء

من طبيعة العلم أنه يستعمل طريقة التحليل فى تعرف الأشياء . وعلم النفس كغيره يذهب حتما مذهب باقى العلوم فى فحصه للأخلاق . فهو يتناولها بالتحليل فيفصل عناصرها أحدها عن الآخر ويتناول كل عنصر منه على حدته فيحاول وصفه وتبيان خواصه ومميزاته ومقدار تفاعله مع العناصر الأخرى . وهذا من غير أن يتناول الشيء فى مجموعه كوحدة يجب أن تبقى متحدة كما هى

ويخيل الينا انه يحسن أن يكون تعريفنا للأخلاق تعريفاً فلسفياً يأخذها فى مجموعها ولكنه لايتعارض مع التفاصيل . نريد تعريفاً يجمع قواعد العلم الى وحدة الموضوع . ولابد لمثل هذا التعريف الذى نسعى وراءه أن لا يحلل الأخلاق حتى لايفقدها حيويتها وقوتها ووجهتها الاجتماعية . ولكنه فى نفس الوقت لايتعارض مع علم النفس أو يجور عليه . وسنحاول فيما يلى وضع مثل هذا التعريف وإنما همنا الآن أن نتتبع بالاختصار تطور الطريقة العلمية فى بحثها للاخلاق

وقد أوردنا فيما سبق أركان الأخلاق الثلاثة وهى : (١) الشعور و (٢) الارادة و (٣) الفكر . ولكى نفهم الأخلاق يحسن بنا أن نقول كلمة عن كل من هذه الأركان

الشعور أو الوجدان هو الأساس للأخلاق

ينحو ريبو نحو علماء النفس الفرنسيين فى الاعتقاد أن الشعور والعاطفة هما أس الأخلاق ويظهر من طريقته أنه لايعتقد كثيراً بالعقل والارادة . فالانسان مثلا ينفعل لأنه يشعر بالميل للفعل ليس غير . أو بمعنى آخر نحن ننشط ونفعل ليس لأننا أردنا ذلك أو محصناه تمحيصاً عقلياً . كلا ولكننا نفعله لأنه يلذ لنا فعله فأس الأخلاق فى رأيه هو الشعور فالفعل . ومثله فى ذلك تقريباً فوييه الذى ابتدع شيئاً أسماه « أفكاراً محركة » (idées forces) ولست أفهم هذه الأفكار القاهرة أو الملزمة الا ان تكون ارادة يخالطها الفكر ويصل بينهما الشعور . أو بعبارة أخرى أن الأخلاق فى رأيه هى أفكار فى الطرف الأول وارادة فى الطرف الثانى والشعور يتوسط بينهما ليصل هذا بذاك . ثم أنك تكاد فى كل هذا أن تلمس استقلال هذه العناصر جميعاً . وعلى أى حال فان محصل هذه « الفكرة الملزمة » على ماأظن هو شعور قوى يحفز الانسان للعمل

ويذهب بين (Bain) مذهب رفيقيه فى الاعتقاد ان الاخلاق مبنية على الشعور . وبالطبع يدخل فى الشعور الغرائز ثم العواطف وهى ليست شيئا سوى غرائز مركبة وقديمة العهد

ومع اننا لسنا ننكر ان للشعور مكاناً فى أصل الاخلاق إلا اننا نتحاشى كثيراً ان نبنيها فى جملتها على الشعور كما تفعل هذه المدرسة لان مثل هذا الرأى غير مأمون العواقب بالمرة . ولسنا فى حاجة إلى التفصيل فان جمهرة علماء النفس فى وقتنا الحاضر لايقبلون رأى ريبو ومن نحا نحوه . ولا نستثنى من جمهرة العلماء هؤلاء ماكدوجال نفسه — ماكدوجال الذى يعتبر بحق حامى حمى العاطفة والغريزة — فهو وأن كان لايزال يعتبر الغريزة أصلا وفرعا فى كل شىء تقريباً إلا انه يتحرج من جعلها الدعامة الوحيدة التى تقوم عليها الاخلاق

الارادة هى الاساس

اذا كان من طبيعة الفعل ان ينتج نتيجتين متضادتين أو كان للانسان سبيلان إلى غاية واحدة أو إلى غايتين متفاوتتين كان ثمة موضع للاختيار — والاختيار هذا لايتأتى إلا بين شيئين متقابلين يعرضان للانسان فى وقت واحد فيضعهما فى مخيلته ويزنهما بنتائجهما ويفاضل بينهما ويحكم للواحد منهما أو عليه . وفى هذه المفاضلة وهذا الاختيار تدخل الارادة . فهى تعنى المفاضلة بين شيئين وقبول احدهما ورفض الآخر

لسنا ننكر ان من عوامل هذا الاختيار أشياء أخرى غير الارادة . فمثلا الذكاء عامل من عوامله — والعواطف والشعور قد تكون هى الاخرى من أسبابه — وانما كل هذا لاينفى ان للارادة الحظ الاوفر فى ذلك الاختيار . لابل نذهب إلى أبعد من هذا فى التشيع للارادة فنقول ان كل هذه العوامل قد لاتوجد فى الاختيار — وانما أمر الارادة بخلاف ذلك إذ يتحتم وجودها فى هذا الظرف

ثم تدخل الارادة أيضاً عندما يحاول الانسان تغيير أمر واقعى . لانه عند ما يرى الانسان نفسه فى ظرف أو حالة لاتريدها نفسه يعزم على تغييرها إلى حالة أخرى يكون قد تخيلها ورآها بعين بصيرته ويرغب فيها — عند هذه النقطة تبدأ الارادة أيضاً وبهذا القدر صار للانسان أخلاق من نوع معلوم ، ذلك لان عنصر الارادة قد دخل فى الموضوع

وليس يطعن فى هذا أن الحيوان ايضاً يسعى فى تغيير امر واقعى كأن يهرب من الالم ويسعى للغذاء — ليس يعنى هذا ان للحيوان إرادة لأن اعمال الحيوانات فى هذه الحالة تصدر عن الغريزة أو بدافع الحياة المادية — وليس الامر كذلك فى فى الانسان الذى يوازن بين حالتين ويفضل احداهما على الاخرى

ولسنا ننكر أن للارادة موضعاً من الاخلاق وموضعها اساسى اولى مثل الغرائز والوجدان ولكننا لا نذهب مذهب المدرسة الجرمانية على العموم و (كانت) على الخصوص . لا نعتقد معها أن الارادة هى كل شىء فى الاخلاق . لأن مثل هذا الزعم ينتقص من الغريزة والشعور والفكر جميعاً . حقا انه يرضى الارادة ولكنه

يغضب ما عداها . لا تنكر أن مبدأ (كانت) زعيم هذه المدرسة حق ولكنه ليس كل الحق . . يقول (كانت) : « ليس فى الكون شىء صالح بدون قيد ولا شرط سوى الارادة الصالحة» . هذا المبدأ مطعون فيه لأن الارادة هى وسيلة لغاية — والوسيلة ليست تفضل الغاية مطلقاً ، الااذا انعكست الآية ، وقديجوز أن تنعكس . نقول أن هذا المبدأ عليه مآخذ لأن الارادة حتى فى زعم (كانت) وسيلة للاخلاق فهى على هذا جزء منها أو عنصر من عناصرها . فالاخلاق بالطبع تفضل الارادة الصالحة اذ أن الاولى اعم من الثانية والثانية فرع من الاولى . فمتى حسنت الاخلاق فبالتبعية تحسن الارادة . والعكس ليس بصحيح فى كل الحالات . فقد يجوز أن تكون الارادة خيرة ولكن الجهل يفسد عليها نتائج عملها . أو قد يحدث أن العقل أو الشعور يعجزان عن التعاون معها وتحقيق غاياتها

وعلى ذلك فاننا نخطىء اذ نزعم أن الشعور والغريزة والعاطفة جميعا هى وحدها الاصل فى الاخلاق ونخطىء ايضاً أذ نزعم مع (كانت) أن الارادة بمفردها هى الاصل والفرع فى الاخلاق والفضائل . ولسنا منفردين فى هذا النقد بل يذهب اليه روباك ايضاً فى كتابه القيم « علم النفس والاخلاق »

الفكر والعقل والذكاء كأساس للاخلاق

من أكبر الداعين الى أن الذكاء هو اس الاخلاق (طوماس اكويناس) زعيم الفلسفة فى القرون الوسطى . يقول اكويناس « ان الفكر والذكاء والعقل تجعل الفضائل كاملة » أو « لا يتبع الانسان الرذيلة والشر الا لأنه يطلق العنان لطبيعته غاضاً الطرف عن دواعى العقل والذكاء » و بالاختصار يذهب هذا الفيلسوف الى أن الفضيلة هى العقل وأن الرذيلة هى الجهل . فيخطىء الانسان و يتردى فى حمأة الرذيلة لأنه لا يعقل . فأكويناس على هذا يتبع استاذه (سقراط) فى ذلك وقديما قال سقراط ان الانسان يخطىء ويرذل لانه يجهل ليس غير

و يميل روباك الى هذا الرأى ميلا واضحاً . نعم انه لا يتمشى مع سقراط وتلاميذه الى آخر حدود التمشى الا انه يقول (١) : «يرى من وضعنا للاشياء أن الاخلاق تنسب

(١) صفحة ٤٧١

الى الذكاء والعقل اكثر مما تنسب الى الفضيلة والخير . . . فاعلى درجات الاخلاق ليست توجد الا فيمن حاز اكبر قسط من العقل والذكاء »

والعقل والذكاء فى رأى هذه المدرسة شيء يكاد يكون مخاطرات فلسفية ليست تمت للواقع بصلة ما . فانت تستطيع أن تقول تمشياً مع هذه المدرسة ان من لا يكون منطقيا مع نفسه ومع الحوادث والواقع ومع فلسفة الوجود كله ليس له حظ من الاخلاق . أو بعبارة أصح ان خير الاخلاق هى اخلاق الفلاسفة . وسادة الاخلاق هم سادة الفلسفة والعكس صحيح ايضاً

فانت ترى من هذا أن ما ندعوه الذوق السليم ليس له نصيب مع أمثال هؤلاء أو بعبارة أخرى ليس للرجل العادى فى شوارع القاهرة ولندن ونيويورك حظ من الاخلاق الا بقدر ماله من المنطق أو العقل . ولا يتبادر الى ذهنك أن الفلاسفة يفهمون العقل كما نفهمه نحن . كلا بل لهم رأى فى العقل والفكر اقل ما يقال فيه انه يبعد عن افهام امثالنا

وعلى هذا فالاخلاق هى شيء تتصف به الطبقات الخاصة المفكرة فقط . وأما الانسان العادى — الانسان الذى يسعى بياض يومه فى طلب رزقه ورزق عياله والذى ليس له من الوقت متسع للرجم بالغيب والنفاذ الى ما وراء الطبيعة والبحث عما ينتظر عالمنا هذا بعد أن يرث الله الارض ومن عليها — نقول أن انسانا مثل هذا حظه من الاخلاق ضئيل

وليس يطعن فى هذا أو فى مثل هذه النتيجة أنه قد يجوز أن يوجد انسان عادى له من الذكاء مقدار عظيم — ليس يطعن فى نتيجتنا هذه مثل هذا الزعم . لان علماء النفس اتفقوا على أن المعرفة وحيازة المعلومات والتفاصيل والوقائع شيء اساسى فى الذكاء . وعلى هذا فمن تعلم وقيض الله له الظروف ليتخرج على الاساتذة العظام له من الاخلاق الحظ الوفير بشرط أن يكون ذا اخلاق اصلا . وذلك لانه يعرف اكثر . أو بعبارة أوضح لو تساوى اثنان فى الاخلاق مبدئياً فلا بد وأن يرجح خلق من تعلم منهما بعد ذلك . فكأن العلم بالحقائق وحيازة المعلومات عامل حاسم فى الاخلاق . ولكن هذا مما لا يقبل عقلا . والا صار حتما لزاما أن نزعم أن

اخلاق هذا الجيل افضل من اخلاق الاجيال التي سبقتـه . وذلك لان المعرفة فى عصرنا أوفر وأغزر وأسهل منالا من العصور السابقة . ولـكن هذا الزعم لايستقيم مع المنطق لانه بهذا تـكون قد دخلت الصدفة العمياء فى الاخلاق . فصار يحق لاى انسان أن يلعن الصدف و يضيف الى حسابها نقائصه الاخلاقية

اما نحن فلا نوافق على هذا الزعم ولسنا نذهب هذا المذهب . فالذوق السليم فى نظرنا يكفى للأخلاق . وليس يتحتم لها المعرفة الفلسفية أو المنطقية أو الرياضية فليست هذه شرطاً أساسياً للاخلاق . انا نرحب بها فيما لو وجدت صدفة . ولـكننا لاندق الاعناق للبحث عنها . ولا نعلق مصير الأخلاق على مصيرها

حقاً لسنا ننكر ان البحث عن الوسائل والتفريق بينها والتفكير فيها والحكم عليها والتفضيل بينها والأخذ باصلحها والعمل بموجب أفضلها وتحمل نتائجها — لسنا ننكر ان كل هذه تستدعى شيئا من الفطنة والذكاء . فالفلاسفة يدعون هذا الشيء عقلا ونسميه نحن ذوقا سليما دفعاً للالتباس . وذلك لأن العقل يتعامل بالحقائق المجردة ، يسعى وراءها . ويجمعها ويبوبها ويرتبها تبعاً للمنطق . وتبعاً لعلاقاتها بعضها ببعض وبالـكون فى مجموعه . بينما الذوق السليم نفعى وعملى فى طريقته لأنه يقرب الحقائق من وجهة فائدتها وأثرها المباشر فى الحياة العادية . وينتج من كل هذا ان من له عقل لا يرضى الفلاسفة والميتافزيقيين فليس يترتب على ذلك ان يخشى على أخلاقه

ولـكن ليس يعنى هذا ان الانسان يرتـكب الرذيلة ويدفع عن نفسه بالجهل وعدم الدراية . لأنه مفروض فى الانسان ان يكون قد تريث فى حكمه ودقق . واعمل ماوهبه الله من قدرة على التفـكير وتمحيص النتائج التى قد تترتب على سلوكه . مفروض فيه أيضا ان يكون قد بذل مجهوداً صادقا فى المفاضلة بين هذه النتائج المحتملة والمقدرة . ثم بعد ذلك يذهب فى أفعاله إلى أقصى حد . وليكن بعد ذلك مايكون . فليس يصح أن يكون الانسان مسئولا عن الأقدار . أو التكهن بالغيب والتحكم فى العوامل الـكونية . فترى من هذا اذن ان العلاقة بين العقل وبين الأخلاق أبعد مما يتصور سقراط وطوماس اكويناس ومن نحا نحوهما

الأخلاق المتوثبة الحية ــ نقد للآراء السابقة

لقد سبق لنا القول ان العلم يحلل الأشياء إلى عناصرها الاولية ويرتب هذه العناصر كلا على حدته ثم يأخذ فى وصفها وصفاً تفصيلياً ويزنها بالموازين المختلفة ويحاول تحديد النسبة بين كل هذه العناصر . وليس هذا فقط بل من طبيعة العلم ان يحدد كمية كل عنصر على حدته بالميزان أو بالمقياس و بالمكيال ويبين الظروف الصالحة لضم هذه العناصر إلى بعضها . وعلى هذا فالعلم أقمن بالتحليل منه بالتركيب . فهو يفصل وليس يجمل . وأما ماعدا ذلك فليس يستطيع العلم ان يذهب . وعلى ذلك فقد كان العلم منطقياً مع نفسه لانه عندما عهدنا اليه ببحث الاخلاق تناولها فى المخبار وحللها إلى ارادة وشعور وعقل . ثم أخذ فى تبيين خواص كل من هـذه العناصر على حدته . والنتيجة اننا أضعنا الاخلاق وحصلنا على كمية من العواطف ومقدار من الارادة وقبس من العقل . وأما الاخلاق ذاتها فقد ذهبت ذهاب كل شىء يزمع تحليله

وليس على العلم من حرج فى هذه المعاملة . لانه لم يوجد إلا لمثل هذه الوظيفة أولا . وثانيا لانه ليست له طريقة أخرى بها يتناول الاشياء . ألم تر إلى ان كل آلات العلوم الطبيعية لم توجد إلا لتفكك وحدة الشىء وتحلله إلى عناصره ؟ وعلى هذا يفصل العلم عناصر الشىء لكى يشرحه لنا وما وجدناه مرة يركبه ليشرحه

واليك مثلا على ذلك . نعهد للعلم بالماء ليقربه إلى أفهامنا . فيتناول الماء ويحلله إلى اكسوجين وهيدروجين ويقول هاك هوالمـاء . ولـكننا بعد هذه االعملية لانستطيع ان نزعم انه لايزال ماء يروى الغلة . فكل ماحصلنا عليه بعد هذه العملية هو هذان العنصران اللذان لايجوز بحال من الاحوال ان ندعوهما ماء سواء أكانا مجتمعين أم منفصلين . ولكى يصيرا ماء لابد وان يصيرا إلى شىء مغاير كل المغايرة لحالتهما الراهنة . وفى الحق ان ماندعوه ماء هوشىء مختلف عنهما جد الاختلاف

واليك مثلا آخر . أمامنا شىء لايرى إلا بالمجهر لاندرى كنهه فنعهد به إلى العلم ليقول فيه قوله . ولندع هذا الشىء برتوبلازماً . يتناوله العلم إذن ويسارع إلى

وضعه فى المخبار ويصب عليه الحوامض والاملاح ويسلط عليه التيارات الكهربائية فيحلله إلى عناصره الاوليـة التى هو مركب منها . وقد يعرف العلم كل عناصره ومقاديرها . وقد تغيب عنـه بعضها . ولـكنه فى جميع الحالات يبدأ بالتحليل . ثم يعود الينـا بقليل من الكاربون والاكسوجين والهيدروجين والنيتروجين ويقول ها كم هو البرتوبلازم — ولـكن ياهذا لايمكن أن يكون ذلك كذلك لان البرتوبلازم يتحرك ويسعى وينشط ويتشكل ويتناسـل ويستجيب لمؤثرات البيئة ويهجم ويتقهقر — واما هذا الذى ترينا فليس له هـذه الخواص . لقد تسلمت منا كائناً حياً ذا خطر . وارجعت الينا بعض العناصر التى تختلف عنه اختلاف مابين الارض والسماء . ولسنا بمستطيعين تحت أى ظرف من الظروف ان نسمى هذه الـكميات المعلومة من هذه العناصر الاربعة برتوبلازما — لسنا بمستطيعين ان نسميها كذلك سواء أكانت مجتمعة أو منفصلة ومستقلة . ولكى تصير هذه العناصر برتوبلازما لابد وان تستحيل جميعها إلى شيء مغاير تمام المغايرة لهذا الذى ترينا . وفى الحق ان ماندعوه برتوبلازما لايمت إلى هذه العناصر بصلة ما فهو كائن مستقل عنها جميعاً

وهكذا الحال مع الاخلاق عند ما نعهد بها إلى العلم الذى يسارع إلى تحليلها إلى عناصرها فلا يبقى لنا منها شيء بعد هـذه العملية نستطيع ان ندعوه أخلاقا . وإلا فـكيف تسول لنـا النفس بأن نسمى الشعور والعاطفة والفـكر أخلاقا أو ما يقرب منها ؟

وعلى هذا فاذا أردنا ان نتناول الاخلاق من الوجهة العملية بغض النظر عن الوجهة العلمية البحتة فسنضطر إلى ان ننتزعها من حيز العلم أو على الاقل من دائرة مايدعوه العلماء بالعلم البحت exact science وليس يجب ان نطمع فى ان نتناولها كما نتناول الدم والمـاء والحوامض والاملاح سواء أكان هذا التناول بالعلوم الطبيعية أم الـكيماوية

يجب علينا فى هذه الحالة اذن أن نبحث فى الاخلاق كوحدة قائمة بذاتها أو ككل

لايقبل التجزئة أو كشيء يذهب به التحليل العلمى إلى حيث لاندرى . ويجب ان لايغيب عن أذهاننا ان التحليل يستهلك الشيء ويذهب باثاره

يقول «أوجدون» (١) «من المهم ان نتكىء جداً على وحدة هذه الاجزاء الثلاثة (يقصد الشعور والارادة والفكر) لاننا بطبيعة الاحوال نستسهل ان نعاملها كأشياء قائمة بذاتها متى فصلناها من هذا الكل الذى ندعوه أخلاقا . ثم لنلاحظ انه يصعب علينا جداً ان نضم هذه العناصر إلى بعضها بعد فصلها »

وليس هذا فقط بل ثمة شيء آخر مهم يجب ان لايعزب عن بالنا أيضا . وهو ان تعريفا علمياً أو سيكولوجيا للأخلاق يفقدها حيويتها وتأثيرها . وهذه الحيوية وهذا التأثير هما على التحقيق ما يهمنا من الاخلاق فوق كل شيء آخر . . وثمة شيء آخر ذكرناه فيما سبق ونعيده هنا وهو ان التعريف العلمى معطل للفكر ويوقفه عند حد التحليل ويشعر الانسان ان ليس ثمة زيادة لمستزيد

ولكل هذه الاسباب جميعاً تجدنا مضطرين الى النزوع بالاخلاق منزعا اجتماعيا ففى هذا المنزع تلقى قوتها وفاعليتها التى كانت قد اضاعتها عندما عهدنا بها الى العلوم البحتة . ولسنا نزعم أن هذه الطريقة الحديثة خير محض . لان لها عيوباً ايضاً واقل ما يقال فيها انها مهلهلة بعيدة عن الضبط والاحكام وينقصها التحقيق العلمى الدقيق . ولكن ما اضعناه فى هذه الناحية اكتسبناه من الناحية الاخرى فى وصل الاخلاق بالجماعة البشرية وحركاتها وتطوراتها

وعلى هذا نجد انفسنا مضطرين كما قلنا أن نغض الطرف عن تحليل الاخلاق الى عناصرها الاولية . أو بعبارة أخرى سوف لا نحاول ان نتفهم طبيعتها بل نشعر انه يحسن بنا أن نقر بها من ناحية وظيفتها لنرى ماذا هى فاعلة بغض النظر عما هى . ووظيفة الاخلاق كما لا يخفى اجتماعية محضة . بمعنى انها لا تطلق على انسان بغير جماعة يعيش فيها ويحدب عليها أو يقاومها وينغص عليها عيشها . أى ان وظيفتها أن تؤثر فى الجماعة وفى النظم الاجتماعية وأن تتأثر بدورها من هذه وتلك . فمتى كان اثرها فى الامور الاجتماعية مرغوبا فيه كانت صالحة والعكس بالعكس

(1) C.K. Ogden "The Meaning of Psychology,, Page 189.

تعريفنا للاخلاق

وعلى هذا يصح أن يكون تعريفنا للخلق هكذا . « الخلق هو نشاط الفرد فى المجتمع البشرى وميوله الملازمة له نحو نظم الجماعة ومنشآتها . واتجاهاته الفكرية نحو من يحيط به من الناس سواء أ كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر بالجماعة البشرية » . ويشترط أن يكون النشاط فى الجماعة البشرية لأنه لو لم يكن كذلك لما سمى خلقاً . فنشاط الذئب فى وسط جماعة الذئاب مثلا لا يسمى خلقاً (Conduct or Character) ولكنه سلوك أو تصرف (behaviour)

وأما اذا كان تعريفنا للاخلاق يتناولها من وظيفتها . أو بعبارة أخرى لو انا أردنا ان نعرف الخلق الفاضل لقلنا « أن الخلق الفاضل هو ذلك الذى يرمى الى افضل الحالات الاجتماعية . وفى نفس الوقت يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى بها يدرك هذا الغرض الاسمى»

قد يشعر البعض انا لم نأت بشىء جديد بعد أن اعترضنا على كل التعاريف السابقة . وهم فى شعورهم هذا مصيبون لاننا لم نقدم هذا الرأى على انه شىء جديد بل على انه ارجح الآراء . وكل ما حاولناه هو السعى لأن نفهم الاخلاق من وجهة وظيفتها ليس الا . وليست وظيفة الاخلاق فيما ندرى بشىء مستقل عن الجماعات البشرية ونظم تلك الجماعات . ثم أن هنالك اعتراضاً آخر على تعريفنا هذا وفيه ايضاً كثير من الصواب . قد يعترض البعض على أن تعريفها بالحالة الاجتماعية المثلى إن هو الاضرب من ايضاح الشىء المعلوم نوعاً بشىء مجهول أو مبهم . فالناس يشعرون انهم يدرون ماهية الاخلاق . ولكن معظمهم لم يفكروا مرة فما هى الحالة الاجتماعية المثلى . أو على الاقل التى تفضل حالة اخرى

ومثلنا فى هذا — على رأيهم — كمثل من يفسر العاطفة بأن ينسبها الى افرازات الغدد الصماء . والحال أن الناس يشعرون انهم يعرفون العاطفة . ولكنهم يجهلون الغدد الصماء وافرازاتها . وقد كان العكس يكون اقرب الى التفسير والشرح . كأن نفسر هذه الافرازات بأثرها فى الوجدان مثلا

نقول ان البعض يرتبك لهذا الضرب من الشرح للأخلاق لأنه يظهر لهم انه تفسير للمعلوم نوعا بالمجهول أصلا . وعلى هذا فسنضطر إلى ان نبحث فى هذه الحالة الاجتماعية التى تفضل حالة أخرى مع مافى هذا من الخروج على الموضوع . لأننا نسعى لأن نتعرف الأخلاق وليس حالات الجماعة البشرية . ثم من الجهة الأخرى إذا نحونا هذا النحو من تفسير الشيء بشيء آخر يستدعى هو الآخر أيضاً شرحا وتفصيلا نكون قد وضعنا أنفسنا فى حلقة مفرغة لانكاد ننتهى منها .. ثم متى فرغ الانسان من البحث وراء الحقيقة ؟ وعلى هذا يحق لنا ان نحرص على ان لايستهوينا البحث إلى شعب ومسالك ليس لنا منها انتهاء .

وعلى ذلك نقول ان الحالة الاجتماعية المثلى هى تلك التى يستطيع الفرد -- وربما الجماعات أيضاً -- ان يجد فيها مجالا لتحقيق مستلزمات حياته الأدبية والعقلية والروحية والمادية على أتم وجه . أو بعبارة أخرى هى تلك الحالة التى يتسنى فيها للفرد ان ينمو ويتقدم أخلاقياً وروحياً ومادياً وعقلياً نمواً تتطلبه طبيعته وتستطيع ان تحققه الظروف والبيئة

اذن فالأخلاق هى مايساعد على بلوغ الحالة الاجتماعية المثلى . فكل ما من شأنه تمكين الانسانية من هذا الأمر بشرط ان يكون ذلك من عمل انسان وبارادته يدخل فى دائرة الاخلاق . واما ارادة هذا الانسان وعمله فكلاهما خلق متين . وهو مايسعى الى انمائه علم النفس على الخصوص والعلوم الاجتماعية على العموم

إذا أخذنا بالأخلاق من هذه الناحية فسوف نضطر لان نبحث فى علاقتها بالمجتمع وميوله ونظمه جميعاً . سوف نضطر لأن نبحث فى علاقتها بكل هؤلاء وكيف تؤثر الأخلاق فى مثل هذه الأمور . وما مقدار تأثير هذه الأشياء فيها . وعلى هذا سوف لانسعى لأن نفهم الأخلاق عن طريق العلم سواء أكان هذا علم النفس أم غير علم النفس . سنترك كل هذه جانباً إلى ان نأتى إلى الطرائق التى بها ننمى الاخلاق فى الأفراد . حينئذ وحينئذ فقط سوف نحاول ان نتعرف مايدعونا اليه علم النفس

نلاحظ إننا سوف نضطر أيضاً إلى بحث علاقة الاخلاق بالغايات والوسائل

و بالأعمال والتأثيرات وبالدين والآداب وعلم الأخلاق Ethics فمن هذه الوجهة فقط على مايظهر لنا نستطيع ان نفهم الاخلاق على وجه أتم

يقول الاستاذ ديوى (١) « لانستطيع ان نغير الاخلاق بالوعظ والارشاد من دون ان نغير نظمنا العملية والسياسية . لأن مثل هذا الزعم يناقض مبدأنا فى ان الاخلاق إن هى إلا ميول مؤثرة فى الحياة الاجتماعية » ويقول أيضا(٢) « ان الاخلاق هى مجموعة رغائب الفرد وميوله الفعالة التى تجعله أبداً على استعداد للاتيان ببعض الأفعال ومغرماً ببعض النتائج . وفى نفس الوقت كارها لبعض الافعال والنتائج الاخرى »

وتعريف الاستاذ ديوى للأخلاق ليس علميا على التحقيق لانه يترك الطريقة التحليلية إلى الطريقة الاجمالية . فهو يأخذها كوحدة كاملة لا كعناصر منفصلة . أو بالحرى يسعى الاستاذ لأن يتعرفها كما هى . وليس بما تتركب . وهذا كما قدمنا اجدى على الاخلاق من التحليل وأقرب الى غرضنا فى بحث هذا الموضوع . فتعريفه ولو انه غير دقيق ومحكم على الطريقة العلمية إلا انه لاتنقصه الحيوية والقوة

فالاخلاق اذن هى حياة الفرد فى الجماعة . أو هى السعى إلى غاية معينة لها علاقة بالغير . أو هى ميول تتحول إلى نتائج وأغراض . لابل هى تغيير للحالة الاجتماعية أيا كان نوع هذا التغيير ومقدار أثره فى المجتمع . إذن هى السلوك وهى الحياة living ليس غير . والا فماذا عساها ان تكون ان لم تكن كذلك ؟ هل هى شىء خفى معقد باطنى أو هل هى طبيعة أو صفة أو ماأشبه ؟

الاخلاق والسلوك

اما ان الاخلاق والسلوك شيئان مستقلان أو كانا يعتبران كذلك فهو من صنع الفلسفة الثنائية Dualism التى ابتدعها ديكارت Descartes . فقد شق ديكارت العالم الى شقين متقابلين متضادين الا وهما المادة الجسم . أو العقل والروح وحول هذا التقسيم كانت تدور معظم فلسفات القرون الوسطى . وهذه الفلسفات جعلت

(1) John Dewey "Democracy and Education,, Page 370

(2) Dewey and Tufts "Ethics,, Page 255.

الثنائية تنسحب الى نواح كثيرة من التفكير . فظهرت مثل هذه المتناقضات كالغاية والوسيلة . والدوافع والنتائج . والخلق والسلوك . الى آخر هذه النظريات . ويشير الاستاذ ديوى إلى مثل هذا التقسيم إذ يقول فى كتابه (الديموقراطية والتربية): ان [1] « أول مايجبهنا فى بحثنا هذا هو الفضيلة العرفية التى تقسم الحركة أو النشاط إلى قسمين متقابلين يسميان فى كثير من الاحيان الداخلى والخارجى . أو الروحى والجسدى . ففى الفضيلة تتطور هذه النظرية الى عراك عنيف بين الدافع للعمل ونتيجته أو بين الخلق والسلوك »

فكان يظن أن الخلق شىء نفسى داخلى او هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل . وأما الفعل نفسه فكان يسمى بالسلوك . فالخلق هو شىء باطنى فى الانسان لاعلاقة له البتة بالبيئة الا عن طريق شىء آخر وهو السلوك . والناظر الى الانسان لا يرى الاخلاق وانما يشاهد العمل أو الفعل . أو بعبارة أخرى ان احد هذين الامرين هو سبب والآخر نتيجة له . فالاخلاق هى السبب والسلوك أو العمل هو النتيجة .

ولكن يظهر لنا أن هذا التقسيم خطأ . لأننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الامر بخلاف ذلك . فمثلا هناك حالة تطلب من الكائن الحى أن يعمل أو ينشط . فقد يأخذ هذا الكائن فى التفكير — أى فى غربلة اختباراته السابقة بقصد اكتشاف الصلة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين ما مر عليه فى عهده السابق . وعندما يكتشف المشابهة بين الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الاولى أى انه يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة — تلك الاستجابة التى اتت بالغرض فى الدفعة الاولى . ثم يتخيل انه عمل فى هذه الحالة الراهنة ماعمله فى الاولى وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه . وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر . ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى داخلى مستتر الى فعل ظاهر صريح واضح . وكل هذه العملية هى عملية متصلة ليس لها انقطاع وليس لجزئياتها انفصال . كانت غدد الجسم فى حركة مستمرة اثناء التفاعل الخفى ولا تزال كذلك فى حالة الفعل الصريح . فليس هذا الاخير اذن

(١) صفحة ٤٠٢

مستجداً وانما هو جزء من العملية كلها فالصلة بين التفاعل الداخلى والفعل الصريح لم تكن منقطعة من الاصل ولا استجدت عند نقطة معلومة . فالتفاعل والفعل اذن ليسا شيئين بل شيئا واحداً بدأ فى الفكر وانتهى فى الفعل . فلايصح اذن تقسيم هذه العملية إلى قسمين متباينين أو متقاربين إذ انها تفاعل مستمر بعضه يحدث فى الشعور وبعضه فى اللاشعور أو فيما وراء الشعور . بعضه يحصل فى خلايا المخ وبعضه فى خلايا العضلات . بعضه يختص بحالة الكائن النفسية وبعضه بأثره فى البيئة

نظن انه من العبث الآن ان نقسم نشاط الانسان إلى أخلاق وسلوك . لأنه واضح مما تقدم ان السلوك هو جزء من الأخلاق أو هو الأخلاق ليس غير وان هذه الأخيرة انهى إلا سلسلة اجراآت لايجوز لاحد ان يقطع الصلة بين الظاهرة منها والخفية . وحتى إذا جاز ذلك فان انساناً لايستطيع ان يقيم الحدود بين أجزائها لأنها كما قدمنا عملية واحدة لك ان تسميها أخلاقاً أو سلوكا أو ماأشبه ولكن ليس لأحد ان يفكك جزئياتها

وهذه النقطة لاتظهر للقارىء ذات قيمة كبيرة . وذلك لطبيعة تفكير البيئة التى نعيش فيها لان المتكلمين باللغة العربية لم يستمسكوا بالفلسفة الثنائية بالمرة . أو على الاقل لم يظهر لها أثر كبير فى تفكيرهم وخصوصاً بعد الاسلام . ذلك لان فلسفة هذا الدين هى التوحيد ليس غير . وهذا بخلاف الغربيين الذين وجدوا متسعاً فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية Monism وثنائية Duslism وجمعية Pluralism

الاخلاق والغايات والوسائل

لقد مر بنا ان غاية الخلق هى صالح الجماعة . أو على أقل تقدير يجب ان تكون كذلك . فاذا كان الامر هكذا فما هى الوسيلة إلى تلك الغاية ؟ وهل تهم الوسائل فى هذا الامر ؟ أو هل يسمح الخلق الشريف باستعمال وسائل قد لاتكون مرضية الى غايات سامية ؟ أو بعبارة أخرى هل تبرر الغاية الواسطة بأى حال من الاحوال؟ هل يستطيع انسان ذو خلق جميل ان يكذب مثلا لغاية شريفة عنده ؟ أم نزعم انه متى كذب الانسان فقد انهدم ركن أساسى من أخلاقه ؟ وهل يحل للانسان ان يريق دم أخيه الانسان فى سبيل القومية أو الديموقراطية أو العدل أو أى مبدأ

انسانى شريف أو يظن انه شريف ؟ وبعبارة أخرى هل يستطاع التخلق بالاخلاق الفاضلة فى حضارة معقدة كل التعقيد كحضارتنا هذه ؟

سبق فذكرنا مافعلته الفلسفة الثنائية فى نواحى التفكير البشرى . فالمحنا إلى تأثيرها هذا . وقلنا انها قسمت الكون إلى قسمين متقابلين كلاهما حق وكلاهما مستقل عن الآخر كل الاستقلال . وخرجت من هذا إلى ان الحقيقة ليست توحيدية أو واحدة مفردة . بل زعمت انها دائما مزدوجة . أو بعبارة أخرى كانت تزعم ان الحق ليس حقاً مطلقاً Absolute بل حقين مستقلين . وان الكون مركب من حقيقتين هما المادة والعقل او الروح والجسم الى آخر هذا القول

وبالطبع تناولت هذه الفلسفة الغاية والوسيلة أيضا كما تناولت غيرها . فزعمت ان الغايةهى شىء موضوعى Objetive قائم بذاته وان الوسيلةهى الطريق اليها . وانهما شيئان منفصلان . من هنا ظهر التضارب بينهما وأخذ الفلاسفة يبحثون فى هل تبرر الغاية الواسطة التى يستعملها الانسان للوصول اليها

اما إذا لم يكن ثمة مندوحة عن هذه الفلسفة العنيدة فيحق لاى كان ان يزعم ان الغاية تبرر الواسطة . وليس فى ذلك غرابة مطلقاً لانه بحكم منطق تلك الفلسفة تكون الواسطة مستقلة كل الاستقلال عن الغاية . فهما شيئان لاعلاقة لاحدهما بالآخر البتة : واذن لاتأثير لاحدهما فى الآخر كالحال فى أمر العقل والجسم فى عرف تلك الفلسفة . ليس لهذا أدنى علاقة بذاك إلا بأمر من ربك . ولن يستطيع احدهما ان يتناول الآخر بالتعديل والتحوير . أو ان يتداخل فيما يعنى الآخر . وعلى هذا تكون الواسطة ليست لها بالغاية إلا علاقة الوجود . وهذا فى ذاته ليس يعنى شيئاً . وينتج من ذلك ان لأى انسان ان يدعو الى ان الغاية تبرر الواسطة أياً كانت درجة الاخيرة من الاخلاق والفضائل

قد يعترض البعض على ان مثل هذا الزعم مقوض للفضيلة . ولكن ماهى الفضيلة ؟ أليست هى غاية سامية ؟ أليست شيئاً واقعياً أم هى خيال حالم ؟ كلا ليست الفضيلة أمراً خيالياً أو مضاربات فلسفية . انها شىء فى مستوى الحياة العادية . فاذا كان الامر كذلك وإذا كنا قد اتفقنا على ان نستمسك بالاخلاق العملية فيجب علينا ان نسعى

وراء غايات ليس غير . ويجب علينا أيضاً ان نفترض ان الوسائل أمور ثأنوية ليست تهم . وعلى هذا فالانسان الفاضل يستطيع أن يكذب دون ان يمس ذلك أخلاقه بشيء . لا بل يستطيع ان يخدع الغير ويسرق ويغش ويرتكب كل هذه المحرمات إذا كانت هى السبيل الوحيد إلى غايته الشريفة

كان كل هذا يكون حقاً فيما لو صدقت نظرية الفلسفة الثنائية . ولكنها لا تصدق فى نظرنا فنحن نتبع فلسفة التوحيد وهى الجديرة بالاتباع فى عرفنا . وفى رأى فلسفة التوحيد هذه ان الغاية والواسطة شيء واحد وليسا بشيئين قد يجوز ان يوجدا على طرفى نقيض

والشيء الذى يؤسف له كثيراً ان بعض المربين قد وقعوا فى مثل هذا التناقض عن قصد أو عن غير قصد . فاستغوتهم تلك الفلسفة الثنائية وهم يدرون أو لا يدرون . وكان من آثار ذلك انهم قسموا الافعال الى غايات ووسائل . ونتج من ذلك أيضاً انهم اعتبروا التربية والتعليم واسطة لشيء آخر . اما إذا سألتهم عن الغاية التى يعتبر التعليم وسيلة لها لأجابوك فى غير تريث انها الحياة

فالحياة اذن هى غاية التعليم . ولكن ماهى الحياة وما هو التعليم حتى نرى أيهما وسيلة وأيهما غاية ؟ أليست الحياة سلسلة تعلم مستمر ليس لها أول من آخر؟ وأليس التعلم هو ضرب من الحياة يحياها المتعلم ؟ خذ الطالب فى المدرسة مثلا . أليس تعلمه هو نوع خاص من الحياة يقضيها فى بيئة خاصة ؟ أليست المدرسة فى رأى علم التربية الحديث جمعية بشرية مصغرة . أو عالم على قدر محدود . يوجد فيه الطفل حيناً ثم ينتقل إلى دنيا أخرى ؟

الحق ان المدرسة هى نوع من الحياة فيها يكون الطالب عاداته وميوله ونماذج سلوكه . ولن يستطيع ان يفعل أياً من هذه الامور مالم يكن قد مارسها كلها ممارسة فعلية فى حياته ونشاطه . ثم ان المدرسة هى نوع من الحياة لان فيها يحول الطالب بعض نشاطه الى أفعال منعكسة أو آلية حتى لايعود مطالباً بالتفكير . كأن يتعلم ان يكتب وتجرى أنامله على الصفحة من دون ان يحتاج الى عناء فكرى كبير . وكل هذا لايكون إلا بالمران والخبرة وما المران والخبرة الا حياة يحياها المتعلم ليس غير .

وهكذا الحال مع جميع مايتعلمه الطالب فى المدرسة فهويحيا ويتعلم فى الوقت الواحد وليس احد هذين وسيلة للاخر أو غاية له

إذن فالتعلم ليس منفصلا عن الحياة ليجوز أن يكون وسيلة لها . بل هو والحياة أمر واحد لا يصح تقسيمه الى غايات ووسائل . فان لم يكن الامر كذلك كيف تسمى عمل الكاتب فى ديوانه ؟ هل هو وسيلة لحياته ؟ ففيم حياته إذن ؟ الحق أن عمل الكاتب فى ديوانه هو الحياة بعينها ليس أكثر ولا أقل . وكذلك الحال مع سعيه لرزقه ولغير رزقه لأن هذا السعى فى نفسه هو الحياة بعينها

وعلى هذا فالفصل بين الغاية والوسيلة هو فى الواقع وضع للغاية فى غير متناول الناس . أو هو قتل لها فى هذه الحياة . ثم انه ايضاً مربك للنشء بغايات خيالية لا معنى لها ولا علاقة بينها وبين الحياة العادية . علاوة على انه مربك له ايضاً لأنه يجعل الوسائل أقدس مما يجب أن تكونه منطقياً . فالنشء لا يستطيع أن يفهم كيف يفرق العرف بين الغاية والوسيلة . وكيف فى نفس الوقت يصر على الاعتراض على بعض الوسائل

وعلى هذا نقول أن الفعل الحسن ليس يصح أن يكون وسيلة لشىء ما ، كأن يكون بناء الاخلاق مثلا . ثم أن قول الصدق ليس وسيلة للحق الاعلى مثلا . لأن الفعل الحسن غاية فى نفسه . وقول الصدق هو الغاية التى ليست وراءها غاية

يقول الاستاذ ديوى عندما يطلق الانسان بندقيته على غرض ما فهل اطلاق البندقية هذا هو الغرض فى ذاته . أم اصابة المرمى هى الغرض ؟ ثم ايهما الواسطة لذلك الغرض ؟ الحق أن اصابة الهدف هى الغرض من اطلاق البندقية . فالهدف هو الغرض والاطلاق هو الوسيلة . ولكن يجوز لنا أن نقول فى نفس الوقت أن اصابة الهدف هى الوسيلة لاحسان اطلاق البندقية . فكلاهما اذن غرض ووسيلة فى الواقع ونفس الامر

يقول الاستاذ كلباترك [1] « يحدث كثيراً أن نطلب الغاية لأنها وسيلة لغاية اخرى . ولكن يحدث ايضاً أن نطلب الغاية لنفسها وليس لأنها وسيلة لشىء آخر »

---

(١) صحفة ٢٩

ثم يدلل الاستاذ على كلامه بسلوك البخيل . فالبخيل فى رأيه يسعى وراء المال حبا فى المال نفسه . أى أن المال هو الغاية التى لا يمكن أن تكون وسيلة لشيء آخر فى رأى البخيل . ولكننا نظن أن هذا القول مردود ويستطاع الطعن فيه . لأن البخيل يسعى وراء المال ليس لأنه هو غرضه فقط بل لأن له غرضاً آخر من الحصول عليه . وقد يجوز أن يكون هذا الغرض نفسياً . الا يصح أن البخيل لا ينفك يكدس المال لأن له شهوة ملتهبة فى تكديس المال ؟ ؟ وعلى هذا يكون اطفاء تلك الشهوة هو الغرض من تكديسه للمال . والمال إذن وسيلة لغاية أخرى . إذن فهو غاية ووسيلة فى الوقت الواحد

الارجح أن الاستاذ ديوى يوافق على هذا القول فاليك ما يقوله فى هذا الصدد[1]: « الغاية هى حلقة فى سلسلة الافعال ترى عن بعد . والوسيلة هى نفس الحلقة ولكنها ترى عن كثب . فالغاية هى فقط آخر عمل يفكر فيه الانسان . والوسائل هى الافعال التى تسبق ذلك الفعل فى الترتيب الزمنى » ثم يقول ايضاً أن [2] : «الغاية والوسيلة اسمان لشيء واحد — فهذان الاصطلاحان لا يدلان على تباين فى مسمياتهما ولكن يرميان الى التباين فى قدرهما أو قيمتهما . أو بعبارة أخرى الغاية اسم يطلق على سلسلة افعال مجتمعة كما نطلق كلمة « جيش » على جمع من الجنود وأما الوسيلة فهى اسم يطلق على وحدات تلك السلسلة من الافعال كقولك هذا الضابط وذلك الجندى ولا يتسنى لنا أن نفهم الغاية الا بعد أن ننظر اليها كوسيلة ليس غير . ولا يمكن تحقيقها بالفعل الا بعد أن نعتبرها وسيلة لشيء آخر » وفى موضع آخر يقول [3] « فى الحق أن الغاية البعيدة إن هى الا وسيلة فى الزمن الحالى — والفعل فى الزمن الحاضر ليس وسيلة لغاية بعيدة »

الحق أن الاستاذ ديوى على صواب فيما يذهب اليه . ويظهر أن الاستاذ كلباترك يوافق على هذا الى حد محدود لا يتعداه . فهو يرى غايات مستقلة قائمة بذاتها .

---

(1) John Dewey "Human Nature and Conduct,, Page 34
(2) " " " " " " " 36
(3) " " " " " " " 226

أما نحن فنراها فى الافعال العادية الراهنة . فاذا مددنا بصرنا الى الامام نرى غايات كثيرة تشمخ برؤوسها فى السماء كالاطواد . ولكنا متى وصلنا اليها لا نجدها سوى وسائل الى غايات أخرى . وهذه بدورها وسائل لغيرها وهلذا دواليك

وهكذا نجد أن الخلق ليس فقط وسيلة الى خير الجماعة البشرية ولكنه غاية فى نفسه وايضاً ان خير الجماعة بدوره وسيلة للخلق الحسن . فاذا أخذنا بهذا زال كثير من اللبس فى هذه المسألة وصار الخلق امراً حسياً واقعياً لا ينقصه الايضاح والتحقيق .

لقد تبين الآن أن مشكلة الغاية والوسيلة التى اعترضتنا أولا ليس لها وجود فعلى . بل هى خيال لا حقيقة له . وأن الغايات لا تبرر الوسائل بحال من الاحوال لان الوسائل هى بدورها غايات . وينتج من ذلك منطقياً انه لا يجوز للانسان أن يكذب ليصل الى غاية شريفة . لأن الكذب فى الواقع ونفس الامر ليس وسيلة فحسب بل هو غاية ايضاً فى هذه الحالة . ولأن يكون الانسان كاذبا ليس من الاخلاق الحميدة بحال . قد يعترض البعض بقولهم انه يجب على الانسان أن يكذب لينقذ نفسا من الهلاك . قد يكون الامر كذلك . قد ينقذ الكذب من الشدائد . ولكنه لن ينقذ الاخلاق مطلقاً وعلى هذا فهو والاخلاق فى رأينا ضدان لا يجتمعان

ونستطيع أن نقول فى ختام هذا الكلام أن تعريفنا للاخلاق شامل لكل ما يتصل بها . فهو لذلك يفى بالغرض . ولكى نعرف خلق فرد فى جماعة من الجماعات يجب أولا ان نعرف ميول تلك الجماعة ورغباتها ونظمها ومعاهدها . ولكى نغير خلق أفرادها يجب أن نغير فى نفس الوقت كل القوى الاجتماعية التى لها اتصال باخلاقهم . والعكس ايضاً صحيح

ولنأخذ على ذلك مثلا . فنقول انه اذا كانت السرقة فى رأى جماعة من الجماعات ليست من الامور التى تشوب خلق الفرد فلا يصح أن يدعى السارق فى تلك الجماعة ذا اخلاق رديئة . لأن معيار الاخلاق يكون متعدداً فى مثل هذه الحالة . ولسنا بمستطيعين أن نغير خلق هذا الانسان الا بتغيير معايير الفضائل عند هؤلاء الناس — أى بتغيير نظمهم ورغباتهم ومعاهدهم . لأنه كما تكون الجماعة كذلك يكون الفرد الذى يعيش فيها .

ولـكى نزن الخلق بميزان الفضائل يجب علينا فى نفس الوقت أن نبحث فى عناصره جميعاً من ميول وأفعال وغايات. فاذا كانت كل هذه لا غبار عليها فالخلق فاضل والا فلا. فليس يصح إذن أن نحكم على الخلق بالدافع اليه فقط كما يفعل (كانت). وليس يصح ايضاً أن نحكم عليه بنتائجه الفعلية فقط كما يفعل النفعيون (Utilitarians) لأن هؤلاء لا يهتمون مطلقاً بالدوافع الحافزة للافعال. فهم يقولون أن الدافع هو حالة الفرد النفسية. أو شعوره الداخلى الذى يكون متملكا له عندما يقوم بالفعل. وهذا على حد قولهم ليس له دخل فى الموضوع. وبعبارة أخرى هم يزعمون أن « الكيف » ليس ذا خطر فى الاخلاق والخطر كل الخطر فى « ماهية » الفعل نفسه أو ما ينتجه فى الواقع

والحق اننا نجد أن التطاحن بين (كانت) والنفعيين يدور حول الغاية والوسيلة ليس غير. وقد بينا أن هذا التضارب فى الواقع هو من خيال الفلاسفة. وليس له من الواقع الملموس حظ كبير أو قليل. وعلى هذا فوزن الاخلاق بالحق يتطلب منا أن نوحد ما بين الدافع للفعل وغايته التى يسعى اليها. لأن « كيفية » العمل و « ماهيته » وحدة لا تقبل تجزئة

الاخلاق والدين

يقول فوزدك [1] ان : « محك الحركات الدينية هو فى الغنى الروحى الذى ينتج منها، وفى النتائج الاخلاقية التى تنجم عنها »

ويقول الاستاذ ويليام جيمس [2] أن : « الدين اياً كان معناه لا بد وأن يعنى مجموع انفعالات الفرد بازاء الحياة كلها. فلم لا نقول أن مجموعة انفعالات الفرد للحياة هو دين من نوع ما؟» ونلاحظ هنا اننا نستطيع ايضاً أن نقول أن الفضيلة هى مجموعة انفعالات النفس للحياة. فكأننا نقول أن الفضيلة هى دين ايضاً

ويقول الاستاذان شابمان و كونتس [3] « لقد اختلطا (أى الدين والفضيلة)

(1) H. E. Fosdick "The Modern use of the Bible,, Page 205—206

(2) William James "Varieties of Religious Experience,, Page 35.

(3) Chapman and Counts "Principles of Education,, Page 340.

فى نظر الناس بدرجة يصعب معها تميز الدين من الفضيلة . وفى الحق لقد قيل أن الدين فى ارقى معالمه هو فضيلة مشوبة بالعواطف . وقد نستطيع أن نضيف الى هذا أن الدين فضيلة ذات معنى »

ويقول الاستاذ بيتش [1] « لم نعد ننظر الى هذه القوة أو (الله) كأنها قوة خارجة عن حياة الجماعات البشرية . لان اهتمامه الاول لا بد وأن يكون للاخلاق . والمبادىء والمثل العليا التى وجدت الجماعة البشرية انها صالحة . لا بد وأن تكون هى المبادىء والمثل التى يتقبلها الله »

حقاً إن العلاقة بين الدين والفضيلة قد تطورت تطوراً غريباً على مر العصور فقد كانا فى نشأتهما منفصلين انفصالا نكاد ندعوه تاماً . ثم أخذا فى الاقتراب احدهما من الآخر كلما تقدم بهما الزمن . وكان من نتيجة ذلك أن أخذ الدين يتنصل من الخرافات والتعصب رويداً رويدا وأخذ يقترب من الامور العملية ويؤثر فى اخلاق الناس ونشاطهم . ومن الناحية الاخرى أخذت الفضيلة تترفع عن العرف والعوائد والافعال التى ليست تمت لها بصلة فى الواقع . ونتج ايضاً عن تهذيب الاثنين أن اخذا يتقاربان ويمتزجان الى أن كادا فى عصرنا هذا يصيران شيئا واحداً

والفرق بين الدين والفضيلة فى رأينا هو فى دائرة عملهما ليس غير . فالفضيلة تقصر همها على شئون هذه الحياة على العلاقات بين الافراد بعضهم ببعض وبالجماعات وأما الدين فهو يهتم لهذه ولكنه يتعداها الى غيرها . إذ أن له علاقة بحقائق الكون كله من الابد الى الازل . وله رأى فى هذه الحقائق ينادى به وينضح عنه

وبالاختصار نستطيع أن نقول أن دائرة اختصاص الدين اوسع من دائرة اختصاص الفضيلة والاخلاق . فهى تشملها وتزيد . وعلى هذا فالخلق الفاضل هو دين وتقى فى الواقع والرجل الفاضل مهما كانت معتقداته هو تقى وورع ودين من بعض الوجوه

---

(1) W. E. Beach "Introduction to Sociology and Social Problems,, Page 331

الفصـــل الثـــانى

بيئة الولد المصرى

البيئة هى كل مايحيط بالانسان من مناظر طبيعية ومجتمعات بشرية ونظم اجتماعية وعلاقات شخصية فردية تقوم بينه وبين الافراد حوله / هذه هى البيئة كما يفهمها معظم العلماء . ونميل نحن إلى مطها أكثر من هذا /فنظن ان بعض حالات الفرد النفسية أيضا هى جزء من بيئته / لأن استجابة الفرد لبعض تلك المؤثرات قد تكون فى بعض الأحيان جزءا من البيئة . وليس يعنى هذا أكثر من ان الاستجابة فى بعض الاحوال قد تصير مؤثراً يفعل فى نفس الفرد

ولتوضيح ذلك نقول ان الطبيعة فى آخر الامر هى الشىء الذى ينفعل ويتأثر مما يحيط به . وليس ينفى هذا انها تفعل وتؤثر . ولكن عملها الاساسى الاولى هو ان تنفعل وتتأثر . واما البيئة فهى المؤثر الذى يدفع الكائن إلى الحركة والنشاط والسعى فالتعامل متواصل بين الاثنين والاخذ والعطاء مستمر متلاحق . فمتى كان الامر كذلك نظن انه من الممكن ان نزعم بأن استجابة الكائن لمؤثر ما . قد تصير فيما بعد عاملا من البيئة التى تحيط به لانها تفعل فيه كما يفعل أى مؤثر آخر فى بعض الاحوال . والامثلة على ذلك كثيرة متعددة نذكر منها واحداً

يعتور بعض الناس شعور بالحقارة والضعة Inferiority Complex فتجد ان الواحد من هذا الصنف من الناس يشعر ويوقن فى نفسه انه أقل قدراً وأحقر شأناً ممن عداه . فالناس كلهم أقوى منه وأحسن وأرفع قدراً وأعلى شأناً . كل الناس يستطيعون ان يفعلوا هذا الشىء وذاك اما هو فيعجز دون مايفعلون . تراه يسير فى المجتمع مثقلا بالشعور ان جميع النـاس ينظرون اليه ويعجبون لحقارته ولقلة شأنه بينهم . يظن ان كل الناس تشمخ بانوفها إذ تراه وتصعر خدودها وتدير ظهورها له عند قدومه

قد يكون منشأ هذا الشعور هو الطبيعة فى الاصل . ولكن مهما كان منشأه

وأصله فانه قد صار الجو الذى يعيش فيه هذا الانسان . فهو عامل فى البيئة التى يحيا فيها وقد صبغ البيئة كلها بهذه الصبغة. فالناس فى نظره غير الناس فى نظر غيره . و بينما الجبال توحى اليه بالخوف والشعور بالعجز وعدم الرغبة فى الاقتراب منها تراها توحى إلى انسان آخر بغير هذا . توحى اليه بحب المجازفة والمخاطرة والغرام بالانتصار والتغلب على الصعاب . فليس يجدى الزعم فى هذه الحالة اذن ان الانسان من طبيعته الخوف وانه خلق هكذا وان غيره خلق لايهاب شيئا على الاطلاق : لان المؤثرات التى تحيط بهما تختلف اختلافا كبيراً . فهناك عاملان متناقضان على الاقل وهما شعور كل منهما والجو النفسانى الذى يعيش فيه كلاهما

لهذا نرى ان ولدين — وان شئنا الايغال فى التشابه نقول توأمين — يختلفان فى ميولهما ومشاعرهما وعناصر النفس الكثيرة وان كانا يعيشان تحت سقف واحد وفى كنف أب واحد وحجر أم واحدة وفى مدرسة واحدة . يختلفان كل الاختلاف لان هناك فى زاوية النفس أمراً قد حدد لكل منهما السبيل الذى يسير فيه . وذلك الامر قد يكون نوع من الاستجابات التى عملها احدهما وان هذه الاستجابات بدورها أخذت تؤثر فى مجرى حياته الى ان حولته الى جهة غير تلك التى يسير اليها أخوه

نخرج من هذا بأن البيئة أمر كثير التعقيد والالتواء وانها ليست من السهولة والبساطة بحيث يمكن ان نعرفها بجملة واحدة أو انها من الامور التى يسهل تحديد عواملها . ومتى كان الامر كذلك نظن انه من المتعذر ان نحدد بيئة الولد المصرى على التحقيق . لأنه ان كان من الامور الميسورة ان نشرح النظم التى يعيش فيها وميول الناس حوله وبعض قواعد العرف التى يخضع لها وما يحيط به من المظاهر الطبيعية كالوديان والجبال والانهار وما يلابس حياته من عوامل الاجتماع والاقتصاد إلا اننا نعجز عن ان ندرك استجابات الولد المصرى كلها تجاه هذه المؤثرات ثم أثر هذه الاستجابات فى نفسه . وليس يخفى انه فى هذه الحالة يجب ان نعتبر كل فرد حالة خاصة قائمة بذاتها

البيئة الطبيعية

بعد هذه المقدمة البسيطة عن البيئة عامة فى معناها وحدودها نعود الى البيئة

المصرية اجمالا نرجع الى حيث ينبت الولد المصرى ويترعرع ويشب ويشيب. وليس يخفى ان الاقليم الجغرافى له من الاثر فى حياة الناس عامة شأن كبير. ونحن من الذين يؤمنون ان البيئة لها شأن وأى شأن فى تكوين الناس. ولكننا لانستطيع ان نحدد مقدار أثرها فيهم وكذلك لايستطيع غيرنا فى الوقت الحاضر ان يحدد بطريقة علمية قياسية مقدار مايرجع الى طبيعة الانسان أو الى بيئته

ولكن هذا لاينفى ماللبيئة من الاثر فى الناس. ونحن نزمع ان نتناول منها مالاشك فى أثره فى حياتهم. سنحاول ان نترك منها مالم يثبت بطريقة قاطعة ان له أثراً ظاهراً فى الحياة. وبمعنى آخر اننا سنحاول ان نترك الفروض والاحتمالات والظنون وسنقصر مجهوداتنا فقط على ماثبت بطريقة قاطعة انه يؤثر فى مجرى الحياة

وأول مايجبهنا فى هذا البحث هو الاقليم الجغرافى. أى مصر الطبيعية برمالها وصحاريها وجبالها ووديانها وحقولها ومزارعها والاثر الذى تتركه هذه جميعها فى نفوس المصريين عامة والآمال والامانى التى توحيها اليهم والاتجاهات الفكرية والميول التى تولدها فيهم وبعض عناصر الاخلاق التى تتكون فيهم من مجرد وجودهم فى مثل هذه البيئة والتعامل معها أخذاً وإعطاء

بلادنا مسطحة مستقيمة لاتكثر فيها الجبال العالية المكسوة بالثلج أو الغابات والخضرة. نيلها يسير بهوادة وتؤدة من غير صخب أو تدفق. يشقها النيل شقين مستطيلين من غير عرض. يستطيع الواقف على شاطئه ان يرى ببصره حدودها من الشرق والغرب من غير عناء ومن غير الاستعانة بالنظارات المكبرة. يستطيع ان يلم بالارض المأهولة من بلاده من غير كبير عناء. ويستطيع ان يقطعها عرضاً فى بعض اليوم اذا أراد. وبعد ان يفرغ من هذا لايجد أمامه إلا رمالا تتلوها رمال الى مالانهاية. وصحارى تعقبها صحارى لاتحبب فى التجوال والاستطلاع

يشعر المصرى انه يعرف بلاده ووطنه لانه يراه أمامه بالعين المجردة. كل شىء مفتوح أمامه فلا يوجد أمامه الا مايرى. ثم لاشىء الا رمال. تشعره بيئته الطبيعية ان ليس شىء مستور يستطيع الكشف عنه. ولا تغريه بمجهول يريد اقتحامه وتعرف سره. تقول هذه هى الحدود وما بعدها ليس يهم فى شىء. يستطيع

ان يوغل فى الصحراء قليلا فيسيرعلى وتيرة واحدة فىأرض مبسوطة أمامه لاعشب هناك يحبب اليه المسير ولا ماء يجعل السير مأموناً . ثم انه ليست له مصلحة مادية أو نفسية فى الأيغال فى الصحارى فيقفل راجعاً وقد ارتوت فيه حاسة الاستطلاع وشبعت فلا تعود تطلب مزيداً

مصر هى بلاد الطبيعة الهادئة الوادعة المسالمة . شمسها مشرقة صيفاً وشتاء . ليس فيها من العواصف والاعصار والبروق والرعود مايجعل الحياة قلقة قليلا أو كثيراً . وبعبارة أخرى لاتعمل الطبيعة فيها على استفزاز القوى الكامنة فى النفس من احتياط وحيلة ومجالدة . فبيئتها لاتلحف على الانسان بالمطاليب حتى ينشط ويفعل أو يهرب ويحتمى أو يواجه الطبيعة فى ثبات وشجاعة . لم يوجد انسان فيها أمام شىء من الطبيعة القوية الحادة المزعجة . لم يشعر انسان من أهلها ان الطبيعة تتحداه وتعنيه وتقصد الى اختبار جلده وصبره فى الأوقات الحرجة

نقصد ان الطبيعة أو الجو أو الطقس يغرى بالدعة والراحة والسير على وتيرة واحدة من غير تغير أوتقلب . فكل مايحيط بالمصرى يدعوه إلى الطمأنينة والراحة والثقة الغير المحدودة بالقوى الكونية الغير المنظورة . هو يثق ويوقن ان الأرض لن تميد تحت قدميه ولن تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها . فهو مطمئن ووادع عالما ان غده لن يختلف عن أمسه فى شىء كثير . ستشرق الشمس وتهب الريح فى هوادة ولين أو فى عنف قليل أقرب للهزل منه للجد وان المنازل لن تتصدع أو تتهدم ، وبالاختصار ان الطبيعة لن تغضب عليه فتجعله يحتال للنجاة بالحياة

وتنعكس هذه الظواهر الطبيعية بالطبع فى نفس المصرى فتجعله كالحمل وداعة ودعة وقلة اهتمام . تقسره الطبيعة على ان يكون وادعا هادئاً يميل إلى الراحة والاستسلام للأقدار . وهذا هو الواقع فان المصريين شعب مسالم هادىء . لا بل أكثر من مسالم وهادىء . لأننا كشعب نميل إلى ان تنتقص حقوقنا ونرفض ان نقاوم أو نعتدى . أو بعبارة أخرى أهون على الأفراد فينا ان يكونوا مغلوبين على أمرهم من ان يكافحوا ويقاوموا ويركبوا المركب الخشن

ونحن كشعب لسنا مغرمين بالطبيعة كبعض الشعوب الأخرى . وذلك لأنه ليس

فى الطبيعة حولنا مايغرينا بها ويحببها الينا . تنقصنا الغابات الكثيفة التى نسعى اليها ونسكن فيها ونرتاح اليها فى أوقات فراغنا وأيام أعيادنا . لست تجد فى بلادنا كما تجد فى البلاد الأخرى ان الناس يخرجون جماعات جماعات بزادهم وخيامهم وأدواتهم ليعيشوا مع الطبيعة حيناً من الدهر بعيدين عن العمران والمدن يحتطبون ويطهون طعامهم بأيديهم ويقومون على خدمة أنفسهم واخوانهم . وحتى الأجانب بيننا الذين درجوا على هذا النوع من الحياة حيناً فى بلادهم لايجدون فى مصر مايحبب فى الطبيعة وما يغريهم بالاقبال عليها

وحال الجبال فى بلادنا كحال غيرها من العوامل الطبيعية . ان هى إلا تلال صغيرة وأكوام من الرمال والصخور والاحجار تنفر الانسان والحيوان والطير أن يقربوها فليست تغرى انساناً منا ان يتسلقها ويعلوها ويمكث فوقها أياماً أو حتى ساعات . ليست تدعونا إلى الاقتراب منها واقتحامها . لاتستفزنا الى اقتحام المخاطر والتغلب على الصعوبات لأنها فى الواقع لاتثيب من يقهرها براحة أو منظر طبيعى جميل . لانه بعد ان يصل إلى القمة ماذا يفعل الانسان هناك ؟ ليس له إلا ان يقفل راجعا بأوفر سرعة قبل ان تحرقه الشمس فلن يجد هنالك بحيرة يجلس إلى شاطئها أو أشجارا يتظلل بها

ومحصل القول فى هذا ان البيئة الطبيعية للولد المصرى ليست أحسن البيئات لنموه فى الجسم والنفس . ليست تغريه بالخروج الى الخلاء حيث يقوى جسمه وتشتد سواعده . أو الى حيث يناضل البيئة فيقهرها أو تقهره . ليست تشجعه على اقتحام الصعاب وتنمى عوامل القوة والرجولة فيه . لايعود يجد نفسه مضطراً لان يقوم بمطاليب حياته بنفسه وللجماعة التى معه لانه لايخرج فى جماعات فى الخلاء ويحتطب ويقطع الاشجار ويطهى الطعام وينصب الخيام ويجلب الماء وما شاكل هذه الامور التى تنمى فيه الاعتماد على النفس ومعاونة الجماعة . وبالاختصار ان الطبيعة فى بلادنا ليست من عوامل بناء الاخلاق كما هى الحال فى البلاد التى تنمو فيها الغابات والاحراج وتكسى فيها الجبال بالثلوج أو بالاشجار وحيث يخرج الناس الى الطبيعة ليروحوا عن نفوسهم ويغيروا من طرق معيشتهم الى زمن محدود

البيئة الاجتماعية

ليس لنا ان نطيل فى الواقع فى وصف البيئة الطبيعية والاتكاء على نقائصها أو فضائلها لانا لن نستطيع ان نغير فى الامر كثيراً . ليس لنا ان ننسب الى هـذه البيئة كل نقائصنا النفسية لاننا نستطيع فى الواقع ان نستعيض عن هذا بما نفعله نحن حتى نجعل مجال الاخلاق أصلح مما هو الآن

ان الغالبية العظمى من سكان هذه البلاد فلاحون يرعون الارض ويستنبتونها ثمراتها . فحياتنا ورفاهيتنا وثقافتنا جميعاً تستتبع حالة الارض التى نفلح ونوع المحاصيل التى نزرع . فكل مافى مصر مصدره الفلاح الذى يلازم الارض ويوقف جهوده عليها ويخدمها بمالا يجاريه فيه فلاح على وجه الارض . ان فلاحنا مخلص صبور وقنوع . مخلص لأنه يفلح الارض حتى وان لم ينله من ثمراتها مايسد به رمقه ورمق عياله . وصبور على العمل لحوح فيه عنيد لايكل ولايستكثر ساعات عمله . ثم انه قنوع إلى أقصى حدود القناعة . قنوع بشكل عجيب لانه لو كان نصيبه هذا يقع لغيره من فلاحى الامم الاخرى لكان لهم مع حكوماتهم شأن غير هذا الشأن ولكانت الحكومات تسقط وتقوم لان الفلاحين يرضون أو لا يرضون عنها

وهذا الفلاح ـ وحاله كما ذكرنا ـ لم يجد الالتفات الكافى من حكوماتنا المتعاقبة . ليس هذا تدخلا فى السياسة . ولا هو اتهام لحكومة بعينها . وانما هو تقرير للواقع الملموس الذى لايكاد يختلف فيه اثنان . لانه يظهر ان نظام الحكم فى هذا البلد من قديم الزمان لم يعمل لخير الفلاح عن قصد وروية . أو بالحرى لم تكن الحكومات المتعاقبة فى المائة السنة الماضية مثلا تعمل لخير الفلاح المصرى . أو بعبارة أصح لخير الغالبية القاهرة من سكان هذا البلد

ففى بلد تكون نسبة المتعلمين فيه ثمانية أو مايقرب من ثمانية فى المائة لايمكن ان يفترض فيه ان الحكومة كانت تعمل لخير أهله . فالبلد فى الواقع كان فريسة للجهل المخيم على عقول الفلاحين . ولسنا نستطيع ان نتكلم عن أثر هذه الظاهرة لاننا لو فعلنا لما قلنا شيئا سوى ان العلم مفيد فى كذا وكذا وان الجهل مضر فى كيت وكيت . ومثل هذا قمين بان يكون موضوعا انشائياً لطلبة المدارس الابتدائية . ولذلك

فانا لانريد الدخول فى مثل هذا البحث لاننا نزعم ان القارىء يتفق معنا انه كان يكون لخيرهذه الامة على التحقيق ان يتعلم الفلاح فيها . ويطلع على ماجريات الامور ويقرأ الجرائد والمجلات والنشرات التى تقع فى يده

فالجهل مثلا من العوامل الرئيسية فى إفساد الصحةالعامة وجعل الحياة فى القرية أمراً لا يطاق من الوجهة الصحية . لأن الفلاح المسكين كان يقع بين براثن الشعوذة والتدجيل الطبى كلما الم به مرض طارىء . وأظن أن القارىء لا يطالبنا بالبرهان على صحة هذا الزعم لأنه يكفى للبرهنة عليه أن يذهب المتشكك ويعيش بضعة أيام مع الفلاحين ليتحقق بنفسه صحة هذا القول . فكم من مرة تترك الام القذى يتجمع فى عين ولدها الموبوءة زعماً منها بأن هذا القذى ليس شيئا سوى مكمدات طبيعية للعين . لقد مرت بالكاتب حالة من أروع الحالات . لقد رأى طفلة فى الرابعة من عمرها تصاب برمد بسيط وتفقد بصرها فى ظرف اربعة أيام لأن طب الحكيم لم يصادف هوى عند الام ولم يستطع أن يقاوم الخرافات والشعوذة التى كانت تملأ عقلها

ثم أن الجهل والامراض كانا عاملين اساسيين فى إضعاف مقدرة الفلاح الاقتصادية أو نستطيع أن نقول أن الجهل والامراض والفقر كانت عوامل تدعم بعضها البعض الى أن انزلت الفلاح الى هذه المنزلة الوضيعة من العيش . فيصح أن نزعم أن اصل الداء فى كل منها على حدته وفيها كلها مجتمعة . إذ لا يخفى أن كلا منها تساعد على خلق الظروف الملائمة للاخرى . فالفلاح فقير لأنه مريض ومريض لانه فقير والاثنان جميعاً لانه جاهل غير متعلم

ان حظ الفلاح ضئيل وبيئته التى يعيش فيها من اقسى البيئات على الناس . لأن جميع العوامل تألبت عليه لتجعل حياته مما لا يطاق وأنها فى مجموعها تنزل الى مستوى وضيع لا يليق بالناس ولا يلائم الحياة المثمرة . وكيف يمكن أن تكون مثمرةوهى واقعة تحت عبء الجهل والمرض والفقر . هذه الثلاثة الأدواء التى تكفى للقضاء عليها ؟

فى مثل هذه البيئة ينبت الولد المصرى وفيها ينشأ ويترعرع الى أن يبلغ طور

الرجولة . ولسنا فى حاجة لأن نبين أن هذه البيئة ليست صالحة لنمو الطفل جسميا وروحيا واجتماعياً وعقلياً . وليست هى تربة صالحة للاخلاق . فى الواقع انها فى حاجة شديدة الى الاصلاح والتعهد حتى ينال الولد قسطه من النمو المتناسب

اوقات الفراغ

ما يفعله الناس فى أوقات فراغهم هو النشاط الحر لهؤلاء الناس . وبالطبع يشترك فى هذا الضرب من النشاط كل الافراد العاديين الذين لهم من الذكاء والصحة البدنية والاجتماعية ما يجعلهم افراداً عاديين لهم ما لباقى الناس وعليهم ما على غيرهم . وهذه الظاهرة الاجتماعية التى يحيا فيها الافراد وينشطون هى الاخرى جزء لا يتجزأ من بيئتهم التى يخضعون لمؤثراتها

يشب الولد المصرى فيجد أمامه ظواهر خاصة بهذه البيئة . يجد أن البالغين يقضون أوقات فراغهم بشكل معلوم وبطريقة مخصوصة . فهو ينتظر بطبيعة الحال أن ينسج على منوالهم عند ما يبلغ سنهم لانه لا يستقيم أن يخالف الفرد العادى أحكام العرف وينفر من البيئة التى يقع تحت نفوذها . وفى الواقع لا يشذ الفرد عن احكام البيئة الا اذ كان أحد اثنين . أما انه مجنون أو أقل من المستوى العادى للذكاء فى هذا المجتمع . أما هذا وأما انه نابغة يفوق فى مستواه العقلى عن الجماعة التى يتصل بها . احد هذين النوعين من الناس لا يخضع للبيئة كل الخضوع أو بعضه . وأحد هذين لا تستقيم حياته مع ما درج عليه الناس فى هذا الصقع بذاته . وأما غير هذين . أما اولئك الذين يكون مستوى ذكائهم متناسباً مع مستوى الذكاء العادى للاغلبية فى هذه الجماعة ، أما هؤلاء الذين ذكرنا فانهم يدرجون بطبيعة الاشياء على احكام البيئة التى ينتمون اليها

وأحكام البيئة فى بلادنا هى هذه : فى المدن يقضى الافندية الذين هم الطبقة المتوسطة فى هذه البلاد أوقات فراغهم جلوساً فى المقاهى يحتسون القهوة أو غيرها ويدخنون ويتحدثون أو يلعبون الورق والنرد وما أشبه . يخرج الاطفال من مدارسهم المختلفة ويمرون بتلك المقاهى فيجدونها مكتظة بالافندية ليس فيها موضع لقدم . ليس هذا فقط ولكنهم يملأون فراغ الشارع الذى تسمح القوانين لهم بملئه . ثم يذهب الولد الى البيت ولا يسأل احداً عن ابيه أو اخوته الكبار لانه

يعلم من دون حاجة الى السؤال انهم فى بعض المقاهى كباقى الناس الذين هم فى مستواهم الاقتصادى والاجتماعى . ليس للطفل العادى أن يفكر فى هذه الظاهرة الاجتماعية . ليس له أن ينتقدها أو يحللها . ليس له الا أن يتقبلها على علاتها كشىء عادى لا محل فيه للبحث أو اعمال الفكر . يدرج الولد على هذا الى أن ينال قسطه المقدر له من التعليم ويدخل فى عداد المشتغلين المتكسبين لمعايشهم . بعد هذا ينـدمج فى هذه الالوف من الناس ويحتل مكانه من المقهى ويضع ساقا على ساق . ثم تسير حياته على هذا المنوال

وكان الحال يكون غير هذه الحال لو درج الطفل تحت بيئة غير هذه . كان الشأن مع الولد يكون غير ذلك فيما لو نشأ فوجد أن الشبان ينتظمون فى نواد للسباحة والالعاب الرياضية وجماعات من هواة الراديو وطوابع البريد ومنتديات للطيران والتجذيف والجمعيات العلمية والادبية والفنية . كان يقضى أوقات فراغه فى غير المقاهى لو كانت الغالبية من طبقته لا ترتاد المقاهى . هو يفعل الآن ما يفعلون وسوف يغير من حياته عندما يغيرون . لأن حكمه يجب أن يكون حكمهم فى جميع الحالات ولن يكون الا كذلك اللهم الا اذا كان مستواه ينقص أو يزيد عن مستوى الكتلة المتوسطة من الجماعة التى ينشأ فيها

اوقات الفراغ عند الاطفال

فى هذا الفصل سوف ابحث فى أوقات فراغ الطلبة فقط واترك ماعداهم . وذلك لان غيرهم أو بعبارة أخرى أولاد الفلاحين لا يحيون حياة عادية طبيعية . فحياتهم على حالتها الراهنة يجب أن تعتبر شاذة . وكيف لا تكون كذلك وهم مطالبون بأن يكدحوا لارزاقهم وأرزاق عائلاتهم حالما يستطيعون أن يستووا على ظهور دوابهم أو يعدوا خلفها . ثم أن حالتهم شاذة أو غير طبيعية لأن نظام التعليم عندنا لا يتسع لهم فلا مدارس تأويهم ولا معلمين يقومون عليهم . فحالتهم شاذة إذن لأنهم ليسوا فى المدارس ويجب أن يعتبروا كذلك الى أن تقوم الحكومة والامة بالواجب لهم . الى أن يحين ذلك الوقت يجب أن يقيم الكتاب والخطباء الدنيا ويقعدوها حتى تتغير هذه الحياة الشاذة

أما الطلبة فحالتهم تختلف عن تلك من وجوه كثيرة وان كانت ما تزال غير ملائمة للحياة العادية فى البلاد المتمدينة الاخرى من وجوه أخرى كثيرة. فمواد التدريس لا حصر لها. وهى متنوعة بشكل يدل على أن القائمين بالتعليم فى هذه البلاد آلوا على انفسهم ان يجعلوا من الطفل كشكولا وليس انسانا مستكمل النماء من جميع نواحى الحياة الاجتماعية والصحية والاخلاقية. لا تزال المدرسة تصر على أن تقدم للطفل من كل علم ثمرة فجة لا يستطيع معها الولد ان يميز هل هو يتناول هذا النوع من الغذاء العقلى لانه يستطيبه اولانه دواء يجب أن يتناوله لانه مجبر على تناوله. ثم تتصرف المدرسة كانها تزعم أن كل شىء يتفق مع استعداد كل فرد من غير تمييز أو تفريق. فحساب المثلثات مثلا ينفع هذا وذاك والاخر. ثم إن قدراً معلوماً من حساب المثلثات لا يزيد ولا ينقص يجب أن يصب بالملعقة فى حلقوم كل من ولج باب المدرسة. واذا لم يستسغه الطفل ولم يلتذه واذا لم يدل بالامتحان على انه يفعل ذلك، يطرد من المدرسة طرداً

ولذلك فأنه ليس للطلبة فى الواقع أوقات فراغ يقضونها فى السعى وراء تحقيق ميولهم المتباينة. فلا يستطيعون ان يكونوا هواة فى كثير من أنواع النشاط الحر كجمع الزهور وتحنيط الطيور وتربية الدواجن أو جمع الحشرات إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر. ليس لهم أوقات فراغ لأنهم من الصباح الباكر الى المساء أو إلى الساعة الرابعة مشغولون بالمدرسة وغرف التدريس وما يستتبع ذلك من ذهاب وأياب وفسح وغذاء. فالى الساعة الرابعة مثلا ليس لهم شىء من الفراغ يقضونه فيما يريدون ويحبون. وبعد هذا يرتاحون قليلا أو يتنفسون أو يركضون فى الشوارع ويلعبون بعض الساعة. ثم يرجعون الى الدرس والمطالعة الى وقت النوم. فيومهم كله ما خلا ساعة أو بعض الساعة وقف على الدرس والمدرسة وما يتصل بهما من أنواع النشاط المحدود غير الحر. بعد هذا التوزيع ليوم الولد لا يصح ان يزعم أحد أن له أوقات فراغ بشكل مجد منظم

لقد قيدت حكومات العالم المتمدين أوقات العمل وحددتها بساعات معلومة لا يجب ان تتعداها. وما تزال ساعات العمل فى العالم آخذة فى النقص والقلة. ثم أن

الحكومة المصرية شرعت فعلا فى توجيه عنايتها الى هذه المسألةبقصد ترسم السبل الصحيحة للدفاع عن كيان الأجير المسكين

كل هـذا حدث وكل هـذا يحدث وأما حياة الطلبة وساعات عملهم فليس من يلتفت اليها فى بلادنا بقصد تقليل وطأتها على الصغار . فالمدرسة تصر على ان تستوفى حقها من وقت الأولاد . لا بل أكثر من حقها بكثير . ويصر الآباء على ان يروا لأولادهم حتى يعطوا المدرسة أكثر من ذلك وحتى يلتفتوا لدروسهم و يتركوا ما عداها من كل أنواع النشاط . لقد تعاون العرف وتقدير الجماعة على الولد حتى يعطى للمدرسة والدروس كل أوقاته . وكلما جار الولد على أوقات فراغه وتمتعاته ، وكلما أضاف الاوقات المسلوبة من هذا النشاط الى أوقات المدرسة . نقول كلما فعل هذا كان أقرب لان يرضى والديه ومدرسيه والعرف . ولكن الواقع أن الثمن الذى يدفعه لهذا الرضاء مرهق للطفل ومفوت عليه فرص الحياة السعيدة

حدثنى دكتور صديق قائلا إنه يعود فتى عليلا متهدم البنيان . يعوده ويرعاه ويقوم على صحته . ولكن الطفل ما يزال عاجزاً عن التماسك والنهوض والأخذ بأسباب الحياة العادية . والسبب فى ذلك يقول الطبيب أن الوالد يصر على ان يكون ابنه من أوائل فرقته فى المدرسة . ولهذه الغاية يعاونه فى الدرس ويستخدم له مدرسين خصوصيين ويقسط له وقته على المواد الدراسية ويغفل من حسابه الولد ذاته . وانتهى الطبيب بأن قال ان هذا الولد بائس وسوف يدفع ثمن هـذا الدرس من حياته المقبلة أكثر مما يدفع الآن يوما بيوم . ويعرف الكاتب ولداً فى الثالثة عشرة من عمره وكان من المتقدمين لامتحان الكفاءة . هذا الطفل كان يستغرق كل أوقات النهار فى الدرس . ولما كانت ساعات النهار محدودة كان يقفى عليها بساعات الليل الى الساعة الثانية والثالثة صباحا

أظن أنه ليس من المعقول بعد هذا ان نتحدث عن ساعات فراغ الولد فى بلادنا . وأظنه معقولا أن نزعم أنه ليس للطفل فى بلادنا ساعات فراغ بالمعنى المفهوم من هذا الاصطلاح . لأن فراغه هو من القلة والضآلة بحيث يكاد يكون امراً مهملا عند الحساب

وما يصح أن نسميه بساعات الفراغ تسامحاً وتجوزاً مهمل فى الواقع ونفس الأمر . هو كذلك لأنه متقطع . فليس للأطفال كتلة من الوقت قائمة بذاتها تتسع لنشاط مثمر بعيداً عن الكتب والمذاكرة . فللولد عشر دقائق هنا وربع ساعة هنالك وخمس دقائق هنالك . فلا يعود الولد مستطيعاً أن يجمع هذه الدقائق الى بعضها حتى يصرفها فى نوع من النشاط مستديم . لأنه يحتاج فى الواقع علاوة على هذه الدقائق المبعثرة الى كمية من الوقت متصلة حتى يصرفها فيما يهوى أن يصرفها فيه من أنواع التمتعات البريئة التى تعود عليه بالخير

ثم أن هذا الوقت ليس منظما . بمعنى أنه ينصرف فيما لا يعلم الآباء أو المربون . ينصرف والسلام أى انه يمر بالولد أو يمر فيه الولد الى ان يصل الى ساعات الدرس والمذاكرة . والوقت المهمل على هذه الطريقة أو الغير المنظم تنظيما مجدياً لا يعدو ان يكون مضيعاً على غير جدوى . لا بل كثيراً ماتكون اضراره بالغة

وتنظيم الفراغ يلزمه حتما ان يدرس الآباء والمربون ميول أطفالهم واتجاهاتهم الفكرية . ومتى درسوها وبحثوها بحثاً ودرساً عميقاً يستطيعون ان يساعدوا الاطفال لأن يصرفوها فيما يعود عليهم وعلى دروسهم وصحتهم وأخلاقهم بالفائدة . ولنضرب على ذلك مثلا بالالعاب . فاللعب ميل فطرى عند الاطفال . ميل فطرى أوجدته الطبيعة فيهم حتى ينموا به أجسامهم ويتعهدوا ملكاتهم . ثم أنه فى الواقع باب يلج منه الطفل الى حياة اجتماعية مستكملة . فمن منا سمع فى هذه البلاد أن جمعيات تكونت لتنظيم العاب الاولاد ؟ من منا رأى جمعيات تجعل مجهوداتها وقفاً على تجهيز الامكنة والمربين للأولاد أياً كانوا حتى يصرفوا جهودهم ونشاطهم فى العاب منتظمة ؟ ومن منا سمع أن الجامعة أو مدرسة المعلمين العليا تجرى الاختبارات العلمية فى الاطفال بتنظيم العابهم ؟ اللهم لاشىء من هذا مطلقاً . والحال أنهما لو فعلتا لكان أمامهما حقل خصيب لاجراء التجارب المتنوعة فى نفسية الاطفال . ولكان الاطفال انفسهم يستفيدون من تنظيم الالعاب لهم

وليس هذا فقط ولكن الآباء انفسهم لايحاولون بحال من الاحوال أن ينظموا أوقات الفراغ لأولادهم . وهذا التنظيم سهل ميسور لكل واحد منهم . وذلك

بأن يشتركوا مع أولادهم فى هذا الضرب من النشاط . كأن يلعبوا معهم أو يخرجوا معهم الى رحلات بعيدة تستغرق بعض الوقت أو يكونوا معهم هواة لأمر من الامور كالسباحة أو التجذيف أو الموسيقى أو غير هذه

ولكن تنظيم أوقات الفراغ للأطفال خارج دائرة العائلة يستلزم حتما وجود الاخصائيين فى طبائع الاطفال وفى توجيه نشاطهم الى بعض الوجهات المعلومة . يستلزم أن يكون للأطفال نواد خاصة لهم . ويستلزم أن يكون المنوطون بهذه النوادى من المتعلمين تعلما راقياً ومن المطلعين على حركة علم التربية الحديث واتجاهه وتطوره . وبلادنا فقيرة من هذه المعاهد ومن هؤلاء الناس . فالنوادى الموجودة فعلا لا تخرج فى معظم الحالات عن أن تكون منشآت تجارية الغرض منها الكسب والاستغلال وليس التربية والتهذيب . والقائمون عليها تجار يسعون وراء أرزاقهم . حقاً أن بعض هذه النوادى كما هى على علاتها تفيد وتنفع الأطفال ولكنها تحتاج الى كثير من العناية والاهتمام حتى تصير إداة صالحة لنمو الأولاد نمواً متناسباً

وعلاوة على ان هذه النوادى إنما جعلت للتجارة فانها تجمع الاطفال الصغار الى البالغين الكبار . وهذا فيه ما فيه من الأضرار الخلقية الكبيرة . لأن الأولاد يجب أن يكونوا منعزلين عن البالغين الغرباء فى العابهم المختلفة

وبالاختصار فأننا نجد ان وقت فراغ البالغين لايستثمر خير استثمار لفائدتهم من كل النواحى . لا بل هو مضر لهم فى الواقع من وجوه كثيرة . ثم أنه ليس لطلبة المدارس فى بلادنا أوقات فراغ يعتد بها . وأن هذا الفراغ القليل يحتاج الى التنظيم والتوجيه حتى يثمر فى الاطفال . وان هذا التنظيم يحتاج الى دراسات كثيرة فى طبائع الاولاد والى اخصائيين فى التربية يوقفون جهودهم على هذا الضرب من الاعمال . وكل هذه الشروط غير متوفرة فى بلادنا الا فى القليل النادر

أثر البيئة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية

لكل سبب اجتماعى نتيجة اقتصادية . ولكل سبب اقتصادى نتيجة اجتماعية أيضاً . ذلك لان هذين العاملين يرجعان الى بعضهما سبباً ونتيجة . ويؤثران احدهما فى الآخر كما يتأثر منه . ولذلك يصعب جداً تمييز هذا من ذاك بحيث يقفان مستقلين .

وبما انه ليس الغرض الاساسي من هذه الرسالة اقتصادياً أو اجتماعياً فلسنا مضطرين لفصلهما وتحديد مفعول كل منهما اضطراراً . ولذلك سوف نأخذ مثلا بالعامل الاقتصادى على انه سبب لنتيجة اجتماعية . وسوف نعتبر هذه بدورها سبباً لنتيجة اقتصادية . وهكذا دواليك . ومع ذلك فسوف نحرص كل الحرص على ان لايستهوينا هذا البحث الى مناح بعيدة عن موضوعنا الأصلى . اذ انه يكفى فى هذا المقام ان نلم الماماً ببعض العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى لها اتصال مباشر بالاخلاق

قلنا ان الحكومات المتعاقبة لم تكن تهتم كثيراً بخير الفلاح المسكين . فالمال كان يحبس عن المشروعات العامة على العموم وعن التعليم على الخصوص . ولذلك فأن جمهور المصريين أو غالبية السكان العظمى يعيشون الآن كما كانوا يعيشون فى القرون الماضية . حقاً ان الرى لم يكن حظه كحظ المرافق الاخرى قلة وضآلة . ولسنا نزمع ان نبحث فى الدوافع لهذا لأنه مهما كانت الدوافع له فاننا نشكر كل العوامل التى أخذت بيد الرى فأوصلته الى حالة لابأس بها فى مجموعها وان كان مجال التحسين لايزال مفتوحا على مصراعيه . ولكن للأسف لم يكن هذا حظ كل المرافق الأخرى من اقتصادية واجتماعية وصحية . فالامراض مثلا التى كانت تأخذ الفلاحين أخذ جبار مقتدر قد ترك أمرها للفلاح ليصرعها اوتصرعه فى هذه الحرب العوان بين القزم والمارد

وليست تخفى النتائج الاقتصادية لهذه الحالة ـ حالة حبس الاموال عن المنافع العامة ـ فان قدرة الامة على الانتاج لم تتقدم الى درجة يؤبه لها . ويكفى للدلالة على صحة هذا القول أن الفلاح المصرى ليس له الآن موارد للكسب الا عن سبيل زراعة القطن لا غير . ولو تصادف كما حدث مراراً وتكراراً أن ضؤلت غلة القطن سنة من السنين لاخذت برقبة الامة ضائقة مالية تكاد فى كل مرة أن توردها حتفها المالى وتقوض نظامها الاجتماعى من أساسه

وفى جماعة مثل هذه متروكة للامراض تهد أبدان أفرادها هداً ليس يرجى ان يكون لها حظ من المظاهر الاجتماعية الصحيحة . وكيف يكون لها مظاهر اجتماعية

سليمة وهى مكونة من أفراد سقماء معلولين ؟ وعلى أسقامهم وأمراضهم هذه تضاف ضرورات الحياة القصوى ؟ والفرد منهم فى حالته المحزنة هذه مضطر لأن يكدح من مطلع النهار أو قبل مطلع النهار الى مغيب الشمس أو بعد ذلك مع زوجه وأولاده الرضيع منهم والفطيم تحت وقدة الشمس الكاوية . وكل ذلك دون ان يحصل على ما يعيش به عيشا هادئا وادعاً نوعاً ما . الحق اننا نكون متعسفين لو تطلبنا مظاهر الحياة الاجتماعية السليمة فى جماعة هذه حال أفرادها . ولقد تركت هـذه الظاهرة وشأنها فلم يبـذل أى مجهود جـدى فى ترقية الفلاح من الوجهة الأقتصـادية أو الاجتماعية . والنتيجة لذلك أن بقى الفلاح لا يتذوق للراحة طعما . دع عنك الرياضة واللهو البرىء والمظاهر الاجتماعية الاخرى الضرورية له

وثمة ايضا الضرائب التى يقع عبئها كله تقريباً على عاتق الفلاح المسكين . أما باقى السكان الذين حبتهم الظروف والصدف العمياء فحصلوا على قليـل من مبادىء العلوم يستعينون بها على رفع مستواهم الاقتصادى فوق مستواه بكثير ـــ هؤلاء الذين يحيون حياة ينظر اليها الفلاح كأنها ليس بعدها مطمع لطامع . أو كأنها شكل من أشكال الحياة فى جنات الخلد ـــ هؤلاء لا يدفعون لخزانة الدولة كثيراً أو قليلا . لابل دعنا من هؤلاء فقد تزعم ولك الحق فى ذلك أن امثالهم فى البلاد الاخرى لايدفعون من الضرائب شيئاً . لأن مواردهم تعتبر بحق الحد الأدنى للحياة فى بيئة مثل بيئتنا . نقول دعك من أمثال هؤلاء وخذ أرباب الأموال والأعمال والمتاجر الكبيرة . فهؤلاء معفون من الضرائب أيضاً . حقاً ان لذلك مبرراً من الامتيازات الأجنبية التى تقف عقبة كأداء فى سبيل اصلاح من هـذا القبيل . لأن فرض الضرائب على مثل هذه الأموال يكون فى آخر الأمر واقعاً عبئه كله على الماليين المصريين دون الأجانب . وفى هذا مافيه من الغبن فضلا عن المحاربة الضمنية لرءوس الأموال المصرية

نقول ان هذا أيضاً حق . ولـكن من الجهة الأخرى لاتزال الحقيقة السابقة قائمة . ولا يزال الفلاح مهضوم الحقوق لأن الضرائب تقع على الأملاك الثابتة . وهذه فى يد الفلاح بمقادير قليلة جداً لا تتعدى القراريط والأفدنة التى تعد على أصابع اليد

الواحدة . وعلى هذا فهو وحده دون سواه يقوم بمطالب الدولة المالية كلها . واما صاحب الملايين فيستطيع ان يضاعفها ويكدسها تكديساً ويتناولها بالايمان والشمائل دون ان يطالب بشيء بشرط واحد . وهو ان لايكون له شأن بالعقارات الثابتة

ومعنى كل هذا فى آخر الأمر ؟ معناه الذى ليس له معنى سواه هو ان الفلاح يعاقب على بقائه أميناً لقراريطه القلائل . أو بعبارة أخرى فانه يجازى جزاء سنمار لقيامه بمطاليب من يتحكمون فيه ويريدونه على ان لايفعل غير ماهو فاعل من بدء التاريخ

والفلاح يرى ويحس ويشعر . ثم انه له منطق وعقل وتفكير . ويستطيع ان يرتب للامور نتائجها . ويرد النتائج الى أسبابها . فهويزن الأمور بالبديهة أو بالالهام أو بحكم الظروف ان شئت . وهو بطبيعة الوجود يوازن بين حالته وحالة من يفضلونه مالياً واجتماعياً . ويرى الى هؤلاء فيجد ان أرباب الوظائف هم أحسن منه حالا واهدأ بالا . فليس من يستقطع مما يملكون أو يطمع فيما يكسبون . وان رزقهم فى حرز حريز ليس من يفكر فى تحميله من اعباء مالية الدولة مايجب ان يحمل . ينظر الفلاح الى كل هذا فتأخذ ميوله تتجه الى الوظائف والمرتبات وتأخذ الوظائف التى لاتتعدى مرتباتها الثلاثة أو الأربعة جنيهات تستهويه وتخلب لبه وتغريه لأن يترك قراريطه وما عليها من الضرائب . اما اذا لم تتفتح أمامه الأبواب لمثل هذه الأعمال فانه يلهم أولاده ويلقى فى قرارات نفوسهم عبادة الوظائف والهيام بها هياماً ليس وراءه من مزيد

وهذا الهيام وتلك العبادة لهما بدورهما نتائجهما المحتومة - فمنها على سبيل التمثيل لا الحصر - ان النشء راض نفسه على التواكل والضعة والذلة والمسكنة . اذليس له مطمع فى مغالبة صروف الزمان ومجالدتها جلاد الابطال الذين ترغب نفوسهم فى الجهاد للحياة . لم يكن للنشء حظ من هذه القوة . قوة النفس الحارة الشجاعة الأبية التى يستهويها الصراع فتزج بنفسها فيه لان طبيعتها تستلذ هذه المجالدة وهذا الصراع

لم يكن للشباب المصرى حظ من هذا فاندفعوا وراء الحياة الهينة اللينة المضمونة . لم يكن لهم هيام بمجالدة الحوادث فاخذوا يتقونها بالفرار من وجهها والالتجاء الى حياة وادعة فى كنف وظائف الحكومة . فلم يكن للولد من مطمع سوى الجلوس الى مكتب فى احدى دور الحكومة ليعيش فى كنفها ومن موردها متقيا غائلة الجوع ومتجنبا التقلقل والاضطراب وعدم قرار الحالة التى هى جميعاً من مستلزمات الصراع والكفاح . فى مثل هذه الوظائف وجد الشاب المصرى مايبعد عنه شبح الجوع فى الحاضر وغائلته عند ماتتقدم به السن الى الشيخوخة . ثم فى مثلها أيضاً وجد كثيراً من أوقات الفراغ التى يستطيع ان يقضيها حسب اهوائه من بريئة ومريبة .

ويجب ان لاننسى ان الواحد منا وجد فى طفولته ان مايصبو اليه والداه هو حياة وادعة غير شاقة وغير محفوفة بالجهاد من كل صوب . وان مايصبوان اليه أيضاً هو الراحة من عناء العمل — أى ان انحطاط مستوى الحياة عند عائلاتنا وضغط الظروف عليها لتواصل ليلها بنهارها فى طلب القوت الضرورى فقط كانا من أهم العوامل التى حببت الى النشء العيش المضمون الثابت المؤكد والراحة من العمل بعض اليوم . وليس ذلك بغريب ان يحدث مثل هذين الاتجاهين فى النشء لان حالة كحالتنا هذه هى التى أوحت الى بعض القدماء ان جنات الخلد أو السماء ليست شيئاً سوى راحة وعيش مضمون وفراغ

ومن هذه الظاهرة استمد التعليم أغراضه وغاياته . أى ان التعليم استلهم الظروف لتحدد له أغراضه وغاياته فالهمته انها يجب ان تكون فى اعداد النشء لحياة وادعة مضمونة بعيدة عن النضال والجهاد . أو بعبارة أوضح ان غاية التعليم فى مصر يجب ان تكون الوصول الى الوظائف الحكومية . وإذ يسأل الاولاد فى مواضيعهم الانشائية عن اغراضه يجيبون ان أهمها جميعاً ان يحصل الانسان على وظيفة . ولا لوم عليهم فى ذلك لان كل العوامل تألبت عليهم لتسوق ميولهم إلى هذا الاتجاه دون غيره . وإلا فهل ينتظر من الاولاد ان ينصبوا لانفسهم أغراضاً وغايات غير تلك التى تحددها لهم الظروف والبيئة والتعليم ؟

فالجو الاجتماعى ونظام التعليم فى بلادنا اتجها بجملتهما هذا الاتجاه دون ان يفكر أحد من المسئولين عن الامور، أو دون ان تفكر القوة الحاكمة ايا كانت فى تحويلهما عن هذا المجرى. لم يحاول احد فيما نعلم ان يوجد جوا بخلاف هذا كأنه ليس ثمة جو من الاجواء يصلح للبيئة المصريه. وقد كان اللورد كرومر شاعراً بهذه الظاهرة دون ان يحاول معالجة عواملها. واليك مايقول فى كتابه (مصر الحديثة) : « ان الغالبية العظمى من الطبقتين العالية والمتوسطة تعيش من وظائف الحكومة » وفى الحق ان جماعة لاتكون طبقاتها العالية والمتوسطة سوى كتبة دواوين لايجب ان تترك وشأنها. فان مجتمعاً كهذا مريض وتجب مداواته بكل الوسائل. ولكن دواء لتلك الحالة الاجتماعية الخطيرة لم يفكر فيه أحد. ويظن الانسان ان موقف اللورد كرومر هذا هو الذى دعا الجرائد المصرية الى التصريح بأنه قال مرة ان غرض التعليم فى مصر ليس شيئاً آخر سوى اعداد الآلات للحكومة المصرية. وسواء أكانت هذه التهمة حقاً أم غير حق فان اتجاه الحوادث كان مما يساعد الكثيرين على هذه الظنون

ولهذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة نتيجة أخرى. وهى انها جعلت المصريين ينظرون باحتقار وازدراء الى كل الحرف الاخرى. فقد أتى عليهم وقت كانت كل حرفة أوعمل يتطلب من الفرد أى مجهود بدنى هى حرفة محتقرة دنيئة وكل مايطمع فيه الشاب هو ان يرزق بوظيفة نظيفة تبقى على نعومة يديه وجدة ملابسه. والحق ان بيئة كهذه تنسب الى ماليس له قيمة وقدر حقيقيان أقداراً وقيما مزيفة. نقول انه يصعب على بيئة كهذه ان تنتج أخلاقا وأغراضاً سامية

ثم ان لهذه الظاهرة نتيجة اقتصادية أيضاً. فهذا الاتجاه فى الميول حبس ايدياً ورءوساً كثيرة عن الانتاج الاقتصادى وحولها الى الخدمة. وهذه وان كانت ضرورية لابد وان يصحبها الانتاج أيضاً. وبالطبع فى جو كهذا تنعدم القدرة على الاستنباط والمغامرة. ثم فيه أيضاً لاتوجد التربة الصالحة للتعاون الاجتماعى والاقتصادى وفى كل مناحى الحياة. والتعاون فى رأى جميع العلماء هو بمثابة العمود الفقرى للاخلاق. وعلى هذا فالفردية البغيضة القبيحة المتنطعة تجد مرعى خصيباً فى بيئة كهذه

ومن ذلك أيضاً انها تذهب بحيوية الشباب ونشاطه الجسدى والعقلى والروحى . ففى الناحية العقلية يصير الشاب محدود التفكير . ليس لعقله مجال فسيح يصول فيه ويجول . يضيق به أفق الحيـاة وتتنزل أغراضها فيتغلب الجانب الحيوانى منه على جانب العقل أو الروح ان شئت ان تدعوها . والحيوانية تذهب بالخيال الى حيث لارجعة له

وعلاوة على ذلك أيضاً فانها تذهب بحيويته الطبيعية أوالجسدية . فبضعة سنين بين المحابر والاقلام وفى داخل جدران دور الحكومة تذهب بشباب الواحد منهم فيصير وكأنه أخلد على الدهر ، ولما يتجاوز الاربعين أو الخمسين بعد . يصفر وجهه ويشحب . ويضمر جسمه ويهزل . أو تأخذه السمنة من وسطه وتخرج به عن حد التناسب والجمال . أو يمشى وتكاد جبهته تصل الى صدره فى انحنائها . وعلى الجملة تكاد تجزم عند ماتراه انه من جيل صار فى ذمة التاريخ . والحال انه الاسبق لذمة التاريخ من أنداده وأقرانه . وذلك لان الامراض تجد فى جسمه مرتعاً خصيباً . ولقد كان يقول لى صديق انه كلما قابل انساناً بهذا الوصف يكاد يجزم انه احد موظفى الحكومة

ان مجتمعاً كهذا عرضة لكل الامراض الاجتماعية والخلقية . وفى الحق لولا ان قيض الله لنا حركة سنة ١٩١٨ . تلك الحركة السياسـية التى حملت معها بذور الاخلاق لكنا قد فقدنا كل أمل فى حيوية البيئة المصرية . واذا لم يكن لسعدزغلول من فضل سوى انه غيرنظرة الشعب للحياة وسوى ان حبب اليه المخاطرة والكفاح والجلاد . ان لم يكن سعد قد فعل غير هـذا لاستحق ان يكون بطلا من أبطال التاريخ لابل ولياً أو نبياً وطنياً كما يدعوه بعض المصريين الآن

لقد قلنا سابقاً ان العوامل الاجتماعية والاقتصادية متجاوبة الاصداء . ولذلك فان هذه الظاهرة تنيخ على صدر الامة والحكومة معا فى الوقت الحاضر . ويجب حلها على أحسن حال . اذ يجب ايجاد المجال للشباب ليكدح ويجالد صروف الزمان يجب ان تخلق لهم الظروف ليحصلوا على أرزاقهم خارج جدران الدواوين . وإلا كانت حياتنا القومية حلقة مفرغة من تواكل وخنوع واستسلام بغيض

الاسرة المصرية

هناك مرحلتان هامتان اذا جازهما الطفل آمناً سليما فقد لانعدو الصواب ان قلنا انه متى تساوت جميع العوامل الأخرى فان الطفل يشب رجلا على خلق عظيم . وهاتان المرحلتان هما البيت والمدرسة

ومتى قلنا البيت والمدرسة فقد قلنا كل مايلابس حياة الانسان الأولى من مولده الى سن العشرين أو ما يقرب من ذلك . لأن كل نشاط الانسان فى هذه السنين يكون فى البيت والمدرسة وما حولهما . وليس من ينكر أن النشاط هو أبو الخلق وموجده . وكما ينشط الانسان هكذا تكون أخلاقه . فاذا كان الأمر كذلك وهو مالا يخامرنا أدنى شك فيه — كان كثير من نقائصنا أو فضائلنا كأمة وافراد يعود فى مجموعه الى البيت الذى ولدنا ونشأنا فيه والى المدرسة التى غذتنا فى صغرنا وكان فيها منصرفاً لجهودنا ونشاطنا

وأما الأسرة المصرية فهى فى حالة من السوء لا يبزها فيه الا الشرق السحيق . لأن هذه الأسرة ينتابها من الفقر والمرض والجهل ماينتاب الأمة كلها . وحظ البيت أو الأسرة من هذا كحظ الفرد فى جماعته يحيق به بحكم الظروف مايحيق بالجماعة . وعلى هذا نستطيع أن نكرر هنا وفى هذا المقام ما قلنا عن البيئة العامة فى مجموعها . نستطيع أن نقول انها فقيرة وانها جاهلة وانها مريضة

ولكن الجماعة المصرية فى مجموعها شىء كبير معقد ضخم فلا يستطيع الولد ان يفهمه أو يتعامل معه . حقاً أن لهذه البيئة فى مجموعها اثر وأى اثر فى تكوين الأولاد ونموهم ولكن هذا الأثر يكاد يكون بطريقة غير مباشرة فى مجموعه . لأنه قد تكون الأمة جاهلة مثلا ولكن جهلها هذا لايصل الى الفرد فى أسرة بعينها فهو لايحسه ولا يراه ولا يتأثر به . لسنا نكر أن الأمة تؤثر فى الطفل عن طريق تأثيرها فى عائلته وبيته مهما كان حظ هذه الأسرة من الرقى والمدنية . ولكنه قد لايحس هذا الأثر وقد لايكون الأثر كبيراً

وحال الأسرة يختلف عن هذا لأنها شىء محدود ونظام اجتماعى صغير يفهمه الطفل ويتعامل معه بالأخذ والعطاء وبالخدمة والتضحية . ولذلك فهو يتأثر منه

فى الحال تأثراً سريعاً قوياً لابل قدتقتله العائلة أو يقتله أحد أفرادها فى الواقع والحق . وأظن أن عند القراء من مثل هذه الاختبارات مالا يحتاجون معه الى مزيد . فكم من مرة تقتل الأم وليدها لأنها جاهلة . وكم من أطفال يفقدون أبصارهم وصحتهم ويعجزون ويشوهون

ولو تركنا هذه الأمور جانباً لنرى هل تستطيع العائلة فى حالتها الراهنة أن تسهر على أخلاق الأطفال لوجدنا أن الأمر فى هذه لايختلف عن باقى الأمور الاخرى مما له صلة بحياتهم كلها . لأن معالجة نفوس الأطفال فى الواقع أصعب بكثير من معالجة حياتهم المادية فالاولى تتطلب دراية أكثر ونفاذاً الى بواطن الأمور وعلماً بطبائع الناس وخبرة فى أصول التربية . وليس من ينكر أن مثل هذه الأمور المعنوية أكثر تعقيداً وابعد عن الأفهام العادية من الحياة المادية كقواعد الصحة وما أشبه

فالأسرة فى مصر لجهلها وفقرها وأمراضها من اردأ البيئات للاطفال . لا بل هى السبب الرئيسى فيما نجد حولنا من علل وأمراض جسدية وخلقية واجتماعية . وماذا ننتظر من طفل ربى على الطاعة والخضوع بالضرب واللكم والارهاب والتخويف . ماذا ننتظر من انسان نبت فى بيئة معادية له شديدة عليه ظالمة له . والكاتب يحس أن مثل هذه البيئة امر عادى فى بلادنا . ويعرف عائلة هنا فى القاهرة ربها من حملة شهادة الحقوق ومحام ويعرف ايضا أنه عندما يدخل هذا الوالد الى المنزل يختبىء الاطفال داخل الغرف ويخشون أن يسعلوا وهو موجود خصوصا عندما يكون غاضبا أو يشتم أنه غاضب

انا لاازعم أن جميع اطفالنا يعيشون فى بيوت مثل هذه ولا ازعم ان الآباء والامهات لا يشفقون على اطفالهم وبعبارة اخرى لا ازعم ان الشدة هى اللازمة الوحيدة او حتى الظاهرة فى بلادنا . بل كثيراً ما تكون الشفقة والرأفة أصل الداء . كثيراً ما تضر العائلات بالأطفال لأنها لا تعرف ان تكون حازمة شديدة عند اللزوم

وكل ما ارمى اليه الآن هو أن العائلة المصرية فى حالتها الراهنة ليست مجهزة بالوسائل العلمية التى تجعلها اداة صالحة لتربية الأطفال . فالجهل يجعل معظم وسائلها

فى التربية معيبة والشدة الصارمة عندها تقوم مقام الحزم . والتراخى والاهمال يقومان مقام المحبة والعطف

ومع كل هذا لايجب ان تقوم الأسرة أخلاق الأطفال بالشدة أو بغيرها فقط . لايجب ان تكون مكانا او معهدا للعلاج والتقويم والعقاب والتوبيخ . لأن لها عملا موجبا أيضا . عليها أن تجعل البيت مكانا للاجتماع والتمتعات البريئة . فيه ينتظر الأطفال بفارغ الصبر عودة ابيهم من عمله وفراغ أمهم من مشاغلها فى البيت ليجلسوا الى بعضهم يتسامرون ويتفكهون ويقص الأولاد على ابيهم وأمهم ما مر بهم من يومهم وما جرى فى المدرسة وفى الشارع . ويروى لهم الاب بعض الحوادث الصغيرة والحكايات اللذيذة التى تجعلهم يقبلون عليه بآذانهم ونفوسهم ويجلسون فى حجره يطلبون المزيد من هذه الحكايات . ثم تقرأ لهم الام فى بعض الكتب ما حدث أويحدث لبعض الناس مما يلذ لهم الاطلاع عليه

كل هذه الأمور لاتوجد فى العائلة المصرية بوجه عام . حقا قد توجد بعض العائلات التى تمارس مثل هذه الأمور الاجتماعية كوحدة تربطها الروابط الكثيرة ولكن على العموم نستطيع ان نزعم بأن الغالبية العظمى من العائلات لاتهتم لمثل هذه الأمور . وكأنهم يزعمون أن مثل هذا الضرب من الحياة الاجتماعية مضيعة للوقت . وان عمل الاب أن يسهر مع أصدقائه واخوانه على القهوة أو فى الملاهى وان عمل الأم فى المطبخ وانه ليس للأطفال الا أن يجلسوا الى كتبهم ليدرسوا ثم يناموا .. الحق أن الحياة العائلية عندنا ناقصة وعليلة ويجب أن تتغير بشكل من الأشكال

أن العائلة المصرية تخسر كثيراً إذ لا تهتم بادخال المواقد fire place فى البيوت . لأن فائدة الموقد لاتقتصر على تدفئة المنزل وجعله مقبولا فى الشتاء . بل له أثر كبير أيضاً فى حياة الاسرة اجتماعياً . وفى الواقع هذا هو المكان الملائم لاجتماع العائلة كلها حيث يجلسون ليصطلوا بالنار ويحدقوا فيها ثم يتحدثون . وللنار أثر فى النفس لايدركه الا من يختبرها ويجلس اليها بين المعارف والأحباب . فهى تلعب دوراً هاماً فى حياة الغربيين يدركه من زار بلادهم وعاشرهم أو من

قرأ روايات ديكنز الكاتب الانجليزى التى لا تكاد تخلو رواية له من ذكر الموقد

ومن هذا يدرك القارىء أن الحياة العائلية عندنا مفككة كثيراً أو قليلا . لسنا نقصد بهذا أن الخلاف مستحكم بين أفرادها وان كان لايمنع أن يكون الحال كذلك — لسنا نقصدهذا . وانما نعنى أن الوحدة والتماسك والمصالح المشتركة والميول المتجانسة والعلاقات العميقة بين الأفراد ليست كما يجب أن تكون . ليست العائلة كفرقة رياضية تنشط وتتحرك وتفعل كوحدة . وانما نراها مكونة من افراد كل منهم منصرف الى شئونه . الأب فى مطالعة جرائده أو فى سهرته خارج الدار والام مكبة على أعمالها المنزلية والأولاد يعصرون ادمغتهم ليتفهموا مسائلهم المدرسية

وثمة ظاهرة أخرى للعائلة المصرية — ظاهرة تدل على ضعف الوحدة أو حاجتها الى التقوية والتعهد . ذلك أنها لا تخرج من المنزل الا كافراد يذهب كل منهم الى حال سبيله . يذهب الأب الى القهوة أو الى زيارة الأصدقاء وتخرج الأم منفردة لزيارة صاحبتها أو تبقى فى البيت ترعى شئون المنزل ويخرج الأطفال الى الشارع ليلعبوا . أو بعبارة أخرى أن العائلة تذهب الى ملاهيها كافراد وليس كعائلة . لا يهتم الآب مثلا لأن يأخذ العائلة كلها الى دار الصور المتحركة أو الى أحد الملاهى أو الى المتنزهات العامة

وبعبارة أخرى لاتوجد بين افرادها رغبة أو ميل مشترك Common interest لأن لكل منهم ميوله التى يتبعها ورغائبه التى يقف وقته ومجهوداته على تحقيقها . ليس هذا فقط بل الظاهر ان الأب والأم لا يهتمان ولا يلقيان بالهما الى غرس بذور الميول المشتركة بين أفراد العائلة . فما يحبه هذا لايرغب فيه ذاك . وتترك المسألة عند هذا الحد . فلا يوجد من يحرص على أن ينظم العائلة كلها فى فرقة كفرق الألعاب الرياضية بحيث أنها تسعى وراء رغائبها كجماعة موحدة منظمة

الحق اننا نأسف لهذه الحالة جد الأسف لأنها علاوة على أنها تجعل الحياة فى العائلة مجردة نوعا ما من التمتعات البريئة والأوقات السعيدة التى تذهب بجزء من حدة الحياة ووطأتها فانها أيضا تغفل ناحية مهمة من التربية الاخلاقية للاطفال ،

تلك الناحية التى تساعد الفرد على ان يكون اجتماعيا قابلا للاندماج فى الجماعة من غير ان يعوقه شذوذ او اختلاف جدى مع الجماعة . لأن أهم ما يجعل حياتنا فى مستوى اقل من الامم الاخرى هى فرديتنا البغيضة التى تقف عقبة فى سبيل الحياة الاجتماعية بمظاهرها المختلفة . فالمصريون افراد قبل ان يكونوا جماعة او امة

المدرسة فى بلادنا

قلنا ان المدرسة هى الاخرى بيئة مهمة يصرف فيها الطفل الجزء الباقى من جهوده ونشاطه والقسم الأوفر من يومه فيها يتأثر الطفل كما يتأثر كل صبى من البيئة ويؤثر فيها أيضا كما يؤثر فيما يحيط به من الظواهر الاخرى

لقد مر بنا فى الفصل الأول أن خلق الأنسان ينشأ وينمو مادام يفعل وينشط . فعلى قدر ما ينشط هكذا يظل يبنى فى أخلاقه وهكذا يظل يتعهدها ويرعاها عن قصد أو غير قصد الى أن يفارق ميدان النشاط هذا أو الحياة بعبارة أخرى . وبمعنى آخر أن الخلق وليد السعى والنشاط

فاذا كان الامر كذلك ، وإذا كان من مستلزمات حياة الطفل أن يقضى الجزء الاكبر من حياته اليومية — حياة الحركة والسعى — فى المدرسة فقد لا نعدو الصواب إذا زعمنا أن أثر المدرسة فى الأخلاق بعيد وقوى وقد يتبع الطفل فى حياته كلها . قد تتحكم المدرسة فى حياة الطفل وقد تغير مجرى تلك الحياة وتوجهها الى وجهة لم تكن لتذهب فيها لولا المدرسة

لسنا بمستطيعين أن نحلل العوامل التى تفعل فى الأخلاق لسنا مستطيعين أن نحدد على التحقيق مقدار أثر البيت ومقدار أثر المدرسة ومقدار أثر باقى العوامل الأخرى . حقاً أننا نعجز عن ان نبين بطريقة حسابية — بالنسبة المئوية مثلا مقدار ما يخص كل هذه العوامل — أى البيت والمدرسة وما عدا هذين العاملين ولكننا نستطيع أن نقول أن أثرهما هو الغالب القاهر على العموم

من هذا يتضح أن أثر المدرسة فى حياة الطفل أقوى من كل شىء آخر سوى أثر البيت .ونستطيع أن نقول أن البيت والمدرسة يضعان الأسس ويبنيان سوية فى حياة الاطفال . فهما يتعاونان ويسيران جنبا الى جنب فى هذا الدور

لكن المدرسة فى بلادنا تخطىء فهم التربية على العموم أى أنها تخطىء فى معالجة الاطفال وخدمتهم والقيام عليهم . ثم تخطىء أيضا فى تعليمهم وتزويدهم بالمعلومات النافعة التى قد يستعملونها فى مستقبل حياتهم أو فى حاضرها . تخطىء فى هذين الامرين . وبعد ذلك ماذا يبقى من عمل المدرسة ؟اذا كانت تفشل فى تعليمهم ثم تفشل فى تربيتهم ماذا يكون عملهابعد ذلك ؟ الا يكون تعبها باطلا وجهودها هباء فى هباء

نحن لسنا متطيرين أو متشائمين . وليست نفوسنا مرة أو سوداوية ولكننا لانريد ان نغمض عيوننا عن ان نرى الحقائق حولنا . لانريد ان نحل معضلاتنا بتجاهلها أو باغفالها . فاذا كان الحكم على الامور لا يكون إلا بنتائجها العملية فقد يحق لنا ان نزعم ان المدرسة فى بلادنا فاشلة فى عملها وذلك من النتاج الذى أوجدت ومن الشبان الذين اصطنعت . لانه لو القينا نظرة على متخرجى مدارسنا فى مجموعها لايسعنا إلا ان نصدر هذا الحكم عليها

التعليم فى المدارس

فالتعليم عندنا هو عبارة عن مران آلى لايتعدى استظهار بعض المواد التى قد تنفع فى الحياة . وهذا مشكوك فيه . وقد لاتنفع وهو الارجح . والمران كما لايخفى هو عملية ميكانيكية لادخل للتفكير والخيال فيها . هوعبارة عنأخذ عضلاتالجسم أو خلايا الجهاز العصبى بنظام محكم لايدرى الكائن له مبرراً معقولا أو غـــير معقول . فيصير الحى بازائه كالادات فى نظام آلى يدور متى دارالنظام وينفعل لمجرد ان النظام كله أخذ ينشط . كالحصان يشد الى العربة ويراد ان يخطو بنظام مخصوص وضع له فيرفع قدمه هكذا ويختال فى مشيته بهـذه الطريقة ويتمايل بتلك . يفعل الحصان المشدود الى العربة هكذا لا لانه يريد ان يختال أو يتمايل فى مشيته بل لان النظام الموضوع يريده على ان يفعل ذلك . يراد الحصان على هذا الوضع وبتلك الحالة ويحمل بكل الطرق على ان يتصرف هذا التصرف الى ان تصير حركاته آلية لارأى له فيها ولا فكر

والمدرسة تمرن الطفل Train him الى ان يعتاد جهازه العصبى على هذا المران

والى ان يصير هذا الضرب من النشاط لازمة من لوازم هـذا الجهاز . كل ذلك والطفل نفسه لايدرى لماذا يراد له ان يكون هكذا . لايدرى ولـكنه يفعل ماينتظر منه ان يفعله الى أن يصير جهازه العصبي اداة لهذا المران وذاك النظام . ومتى حذق هذا وصار كالآلة الصماء التى لاتخطىء فى القيام بوظيفتها ظن انه تعلم وعلم

يتبين صدق هذا القول متى فحصنا عن الطريقة التى بها يتعلم الاطفال جدول الضرب مثلا . لنفحص عن هذه العملية حتى نرى طبيعتها هل هى عملية مران آلى بحت أم هى شيء آخر . نرى أنه عندما يصل الطفل الى هذا الدور يخبره الأستاذ ويجد هو فى الـكتاب أن ٥ فى ٦ تساوى ٣٠ فيأخذ الطفل فى تدريب جهازه العصبي حتى يغرس فيه هذه الحقيقة ويظل يقول فى نفسه سراً وعلانية ويقول له الأستاذ ويعيد عليه الـكتاب أن ٥ فى ٦ تساوى ٣٠ يجهد نفسه وجهازه العصبى حتى يتم الارتباط الوثيق بين هذه الأرقام الثلاثة أى خمسة وستة وثلاثين

لايستطيع انسان أن يزعم أن هذه عملية تتطلب أعمال الفكرة والروية أو استخدام التخيل والبحث . لايستطيع أى كان أن يزعم أن الولد يستنبط هذه الحقيقة استنباطاً من مقدماتها . لأن كل مايعمله هو أن يستعين بالزمن وبالتكرار الممل حتى تصير مرانا يدرج عليه . كلنا مررنا فى هذا الدور . وكلنا صرفنا أياما وليالى نبدى ونعيد فى مثل هذه الحقائق حتى صارت نظاماً قائماً فى جهازنا العصبى أو بعبارة أخرى مراناً آلياً كالحال فى مشية حصان العربة سواء بسواء

ولنأخذ مثلا آخر أروع فى باب المران وهو الطريقة التى بها يتعلم الأطفال عندنا الحروف الأبجدية . ليست هذه العملية فى المدارس الامراناً بحتاً . يوضع الـكتاب فى يد الطفل ويقول له المعلم هذه هى « ا » وتلك هى « ب » والأخرى « ج » ادرس هذا واحفظه ثم كرره أمامى . أما ماهى هذه الالف وتلك الباء وهذه الجيم فالطفل لايدرى . وكل ما يدريه هو أنه يسلط جهازه العصبي على هذه العملية الى أن تصير نظاماً فيه أى الى أن يتم الارتباط بين النظر والنطق . وانى اذكر أن طفلا ظل يناضل ويجاهد ستة أشهر كاملة حتى استطاع أن يمرن جهازه العصبي على هذه العملية وافلح . واذكر الشاة التى ذبحها والداه احتفالا بفوزه

هذا مران آلى لا أكثر ولا أقل لأن الطفل لايدرى قيمة الباء فى أى نظام فى الوجود . لم يمر عليه فى اختباراته اليومية أن رأى باء أو سمعها أو وقعت تحت حسه بأى شكل من الاشكال . وكان يحسن أن يتعلم الـكلمات صحيحة بداءة ذى بدء ومن ذلك يعرف الحروف الابجدية . يستطيع الطفل أن يتعلم لفظة « باب » مثلا لأن مثل هذه اللفظة مرت به وأختبرها بنفسه ووقعت تحت حسه

وبالاختصار فاننا نرى أن المدرسة تعتمد كل الاعتماد على المران . فهى لا تعلم الطفل ولا تفهمه ولـكنها تمرنه كما نمرن بعض الحيوانات على اتيان حركات بذاتها من غير أن تفهم ما هى فاعلة

التربية فى المدارس

طريقة المدرسة فى تعليم الاطفال خاطئة لأنها تمرنهم ولا تعلمهم . وأما من جهة تربيتهم فهذا مالا تفعله المدرسة ايضاً . الحق انها تخطىء فهم التربية كل الخطأ وتخلط بينها وبين التعليم خلطاً كبيراً فى الحق اننا نرى من تصرف المـدارس مع الاطفال انها فى الواقع لا تفهم أن لها وظيفة عدا تعليمهم وشحن ادمغتهم بالحقائق فالمنهج وقف على المواد والساعات وما يجب أن يدرسه الاطفال وما يجب أن لا يدرسوه . وأما تربية النشء وتعهده لـكى ينمو ويتفتح فهذا مالا يهتم له المنهج

حيازة المعلومات والتعليم ليس هو التربية ولـكنه جزء منها لاغير . لأن للاخيرة ناحية اجتماعية لاتدخل تحت باب التعليم .فالانسان الذى يستحوز على قسط معلوم من الحقائق يصح أن ندعوه متعلما ولـكن لايستلزم هذا أن يكون قد حاز على قسطه من التربية وتمنح الحـكومة المصرية البـكالوريا للشاب لانه يعرف ما يجب أن يعرف من الرياضيات واللغات والعلوم الاخرى . ولـكن هذا لا يعنى أنه ترى وتهذب . أما كيف تنمو شخصيته وما أثر هذه الشخصية فى الجماعة أو بعبارة أخرى ، أما التربية الحقة فليس لها مكان فى نظام التعليم عندنا

من هذا يتضح أن التربية هى عملية تجعل عيون الفرد تتفتح وشخصيته تنمو والناحية الاجتماعية من حياته تقوى حتى يصير عاملا فعالا فى حياة الجماعة التى ينتمى اليها سواء أكانت هذه الجماعة كبيرة أم صغيرة . ففى عرف التربية أن كل طفل هو

حالة قائمة بذاتها لها حكمها الخاص الذى يختلف عن حكم كل الافراد الآخرين . فلا يجوز عليه بالضرورة ما يجوز على غيره — وحال الاستاذ فى هذه العملية كحال الفلاح الذى يتعهدكل نبتة بمفردها يعالجها ويحميها ويدفع عنها كل الآفات مااستطاع الى ذلك سبيلا . وبعبارة اخرى إن كان التعليم بالجملة فالتربية يجب أن تكون بالقطاعى

ولكننا نرى أن المدارس فى بلادنا تعالج الاطفال بالجملة وتخضعهم كلهم لنظام واحد . وهى بهذا تغض النظر عن جميع الفروقات الفردية التى اثبت وجودها علماء النفس بشكل قاطع . وكل هم الاستاذ أن ينجح فى درسه عدد معين من الاولاد وأن يخرج فى آخر السنة بنسبة مئوية معلومة . وأما ما عدا ذلك فليس يهم فى شىء

ليس يسعى الأستاذ لأن يعالج كل طفل على حدة ولا يقف جهوده ونشاطه على خير كل طفل بمفرده — لا يدرس الطفل ويراقبه ويتعهده ويرعاه ويقدم له المعونة اللازمة له فى طور النمو الذى يمر فيه . ولا يعين الطفل حتى لا ترهقه البيئة وتحمله فوق ما يتحمل . كل هذا لأن الاستاذ يفهم أن وظيفة المدرسة تختلف عن هذا ووظيفتها فى عرفه هى أن تقدم للطفل المعلومات المقررة فى المنهج وأن تحاول بكل الطرق الممكنة أن تجعله يحصل على قدر من تلك المعلومات يتناسب مع بقية أفراد الفرقة

اذن فداء المدارس فى بلادنا هو الفهم الخطأ ان التربية هى مران آلى لا يتعدى التصرف فيما يعرض للطفل فى قاعة التدريس أو ماله اتصال بقاعة التدريس لا غير وما يعرض له فى هذه القاعة ليس شيئا سوى أن يستظهر قطعة من الشعر أو يصف ارقاماً بعضها الى بعض أو أن يستظهر قائمة طويلة من حقائق تقويم البلدان

ومعظم هذه الحقائق لا تمت لحياة الطفل اليومية بصلة . وان لم يكن هذا هو الواقع فالكاتب يرغب ويريد بأخلاص أن يعلم صلة الجبر وهندسة اقليدس وما أشبه بحياة المجتمع المصرى البالغ فضلا عن حياة الاولاد الذين لا تتجاوز اعمارهم الخامسة عشرة . ما دخل هذا الطفل بمنبع نهر الجانج وحوضه ومصبه

وما ينبت على ضفافه . ولماذا يطالب الولد المصرى أن يتعلم تعداد السكان فى بيكين وما تنتجه أوماها وجزر الاوقيانوس

ولسنا نكرر أن للمعرفة فوائد أياً كانت هذه المعرفة . ولسنا ننكر أن فروع العلوم كلها ليست تضر على أى حال متى فاز بها الانسان . ولكن لمثل هذه الامور حداً لايجب أن تتعداه ومقدرة الطفل وكفايته ليست مطلقة وليست غير محدودة . واذا كان الأمر كذلك يجب أن نختار منها ما كان أمس بحياة الأولاد الراهنة وما كان منها يؤثر بطريقة مباشرة فى حياته ونشاطه اليومى . وانه لافضل للطفل فى رأينا على الأقل — أن يعرف كيف يصلح دراجته ويعرف شيئاً عن حيوانات حديقة الجيزة وكيف يطالع الكتب وكيف يبحث فى بطونها عما يريد من أن يمر بهذا المنهج الذى يتخذ المران الآلى وسيلته الوحيدة فى حشو أدمغة أطفالنا بالمواد المتنوعة

ولكن المدرسة فى بلادنا مغرمة بهذا المران وهذا الاستظهار . وهما كل ما ترمى اليه التربية عندنا . ونتج عن ذلك أن يبقى الطفل داخل جدران أربعة تسعاً وثلاثين ساعة فى الاسبوع أو ما أشبه . وهذا فى الواقع سجن للاطفال وهم حريون أن يبغضوه ويحاولوا الخلاص منه

الحق اننا نرى أن من يزعم أن حبس الاطفال فى القاعة واستظهار الحقائق هو الحياة التى يجب أن يحياها الطفل — من يزعم هذا فليس يدرى ما هى الحياة والذى نذهب اليه فى هذا الصدد هو أن المدرسة فى بلادنا على حالتها الراهنة لم تعد دينا يعيش فيها الاطفال . بل هى مكان يقضى فيه الطفل سنيه الاولى منقطعاً عن الحياة انقطاعاً يكاد يكون تاماً . بل هو فى حالته هذه اشبه بالمحكوم عليه الذى يقضى زمن الحكم منه بالكائن الحر الحى

المدرسة فى الرأى الحديث

أن المدرسة فى رأى علماء التربية المجددين هى صورة مصغرة للمجتمع البشرى أى انها تعتبر كذلك ، وليست وسيلة للجمعية البشرية كما يعتبرها كثيرون فى بلادنا والفرق عندنا بينها وبين الجمعية البشرية هو أن المدرسة أولا صورة مصغرة للجمعية

وثانيا انه يسهل التحكم فى عواملها وضبطها بخلاف الجمعية البشرية التى يصعب التحكم فيها بطريقة مجدية . وثالثاً انها غير معقدة وعلى هذا فهى قريبة لافهام الاولاد . ولكل هذه الاسباب لا يحسن بنا أن نعتبرها مكاناً للتعليم فقط بل نعتبرها دنيا للاطفال فيها يعيشون ويصرفون جهودهم ونشاطهم ثم يتعلمون

فكل ما تريد الجماعة أن تعمله وتتعلمه يجب أن يتعلمه الاطفال ويعملوه . فاذا كان طهى الطعام من مستلزمات الجماعة وجب أن يكون ايضاً من مستلزمات المدرسة . فليست المدرسة نظاماً خاصاً قائماً بنفسه مستقلا عن الحياة العامة . بل هى الحياة العامة نفسها فى شكل اصغر وأكثر سهولة وبساطة . واذن فنحن نستطيع أن نسأل لم يستظهر الاولاد المصريين فتوحات الدولة العلية ولم يتعلم بناتنا الجبر والمثلثات . ولم هؤلاء واولئك يتعلمون فقط . لماذا لا يعيشون ايضاً

والأستاذ ديوى يتكىء جداً على الناحية الاجتماعية للمدرسة خاصة وللتربية عامة . ففرض التربية فى عرفه الحياة نفسها — الحياة فى حالتها الراهنة ومن ناحيتها الاجتماعية . وعلى هذا فليس يصح أن تعتبر التربية وسيلة لغاية معينة . فما هى الا غاية فى نفسها . واليك ما يقوله الأستاذ ديوى فى هذا الصدد . « الحياة معناها النمو والاضطراد . والكائن الحى يحق له حتما أن يحيا ويعيش فى أى مرحلة من مراحل الحياة وجميع مراحل الحياة هذه تتساوى فى الاعتبار والقدر والقيمة »

فليس يقصد من ذهاب الطفل الى المدرسة اذن أن يعلم ويمرن مراناً وتعليما آليا على حساب الحياة السعيدة المفيدة . ليس للمدرسة أن تعلم الطفل فقط بل عليها أن تجعله يحيا ويعيش . وبعبارة أخرى ليس واجب المدرسة أن تعد الطفل لحياة اخرى مستقبله قريبة أو بعيدة فقط لأن للطفل ماهو فيه من حياة وعلى المدرسة أن تستثمر تلك اللحظات من حياته الراهنة الى اقصى حدود الأستثمار . وفى الحق أن المعلمين الذين يزعمون انهم يعدون الاطفال لحياة اخرى فقط لا يدرون الغرض من وظيفتهم ولا يؤدونها خير اداء

يقول الأستاذ ديوى فى هذا « يحسن بنا أن نذكر انفسنا أن التربية فى ذاتها

ليس لها غاية أو غرض. وفى الواقع ليست الاغراض والغايات الا للاشخاص فقط أى ان الآباء والمعلمين هم وحدهم الذين يصح أن تكون لهم اغراض وأن تكون لهم غايات . أما التربية نفسها فهى شىء معنوى وليس لها أغراض ترمى اليها وعلى هذا يجب أن نأخذ فى حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجياتهم الطبيعية والاكتسابية عندما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

فليست التربية اذن حشواً لأدمغة الاطفال بالحقائق التى ليس لها علاقة بحياتهم الواقعية . بل يجب أن نجعل نصب اعيننا امرين مهمين تغفلهما براجمنا كل الاغفال . أولا : يجب أن نذكر أن للأطفال حق الحياة ايضاً . فطفولتهم ليست طريقا للرجولة فقط بل هى حياة لها ما لكل انواع الحياة من القيمة والقدر . فيجب اذن أن نرتب لهم الامور بحيث تكون اقامتهم فى المدارس حياة فعلية ايضاً وليست مجرد فرصـــة لارهاقهم بالمواد كأنه سيغلق على عقولهم بعد هذا الدور فلن يستطيعوا أن يتعلموا شيئاً . وثانياً : يجب أن تتاح لهم الفرصة فى المدرسة لينموا نمواً جسميا وعقليا واجتماعياً ويستمتعوا بالحياة استمتاع الاحياء بها . فالمدرسة مكان للنمو ايضاً . والنمو ليس قاصراً على استظهار الحقائق بل يتناول الانسان من جميع نواحيه

عقد الاستاذ ديوى مقارنة بين حالة المدرسة الآن وما يجب أن تكون . فيما هى آخذة فيه وما هى تاركته . بين ما تزعم انه من واجبها اداؤه وما تظن انه يخرج عن نطاق اغراضها . فقال : « ان التربية فى حالتها التقليدية الراهنة تخضع الزمن الحالى أو الواقع الحى للمستقبل البعيد المجهول . ومبدأها هو الاعداد والتحضير والتجهيز . فنتج عن ذلك انها فشلت فى الاعداد والتجهيز الكافيين وفى تكييف الكائن الحى تكييفا مستنيراً معقولا . فأكبارها وتوكيدها المتعسف للمستقبل انقلب فى الواقع ونفس الامر الى انقياد اعمى للتقليد ، والى تخبط غير منتج من يوم الى يوم . . . أما لو كنا نسير بالتربية على قاعدة استثمار الموارد الراهنة كل الاستثمار . أو على قاعدة تحرير قوى الاطفال واطلاقها وتسديد مجراها تلك الطاقات التى تظل تتطلب الانطلاق . أما لو كنا نفعل هذا لكانت حياة اطفالنا

تكون أسعد حالا وأعود عليهم وأكثر امتلاء بالمعانى منها الآن . ولنتج عن ذلك ايضاً أن عقل المربى كان يأخذ فى استقصاء اتجاهات قوى الاطفال . وفى البحث عن جميع الموانع والعوائق التى تعترضهم . وفى تتبع اختبارات الازمنة الخالية جميعها التى تساعد على تفهم الطاقات الحالية . ثم لأخذ العقل ايضاً فى تكييف الغرائز والعادات الحية فى الفرد . ليس بقصد اخضاع الاخيرة للاولى . ولكن بقصد معالجتهما معالجة مستنيرة . لو كان المربون يفعلون هذا لكنا نرى أن التربية تنسحب على المستقبل من تلقاء نفسها . ويكون اعداد الاطفال لهذا المستقبل امراً واقعياً بخلاف الحال الآن حيث تفشل فشلا مريعاً فى اعداد النشء لهذا المستقبل »

ويتفق ثورندايك مع هذا الضرب من التربية — وهو كما لا يخفى من أئمة علماء النفس المعاصرين . فهو بحـــكم استعداده اهل للحكم فى هذا الموضوع حكما يتقبله معظم المربين فى عصرنا هذا . واليك ما يقوله ثورندايك فى صدد ما ذهب اليه ديوى . « ذلك المذهب الذى دافع عنه ديوى دفاعاً بديعاً رائعاً — أى ان مهمة المدرسة تنحصر فى تكييف برامجها تكييفا يساعد الطلبة على حل معضلات حياتهم الراهنة — هذا المذهب يتقبله الجميع على علاته . » وبعبارة أوضح أن مهمة المدرسة ليست تنحصر فى تعليم الطلبة تعليماً آلياً وحشو ادمغتهم بالحقائق . بل هى فى الواقع اعداد الطفل ليحيا فى الحال بالفعل وليأخذ نفسه بمجابهة ما يعرض له من المشاكل الراهنة فيحلها

ومحصل القول فى فلسفة التربية الحديثة هو أن المدرسة يجب أن تكون البيئة التى فيها تستيقظ فى نفس الطفل الميول الايجابية فى تصريف أمور حياته الراهنة . أو بعبارة أخرى أن المدرسة هى الدنيا التى يعيش فيها الطفل فى الحال . وبطبيعة العيش تعترضه ككائن حى بعض الامور التى تتطلب منه أن يبذل مجهوداً ونشاطاً يتجهان لناحية معينة بقصد التصرف فيما يعرض له . وهذا ليس من مخترعات الخيال أو من النظريات البعيدة عن الحياة العملية . لأن الكائن الحى فى نشاط مستمر وحركة دائمة الغرض منهما معالجة عوامل البيئة أما بقصد التغلب عليها أو بقصد توجيهها الى وجهة معينة

فالسعى هو مظهر الحياة . والتربية ليست الا توجيها لهذا السعى الى وجهة معلومة . ثم منعه عن التدفق فى الوجوه الاخرى

التربية الاخلاقية فى المدارس المصرية

ليس للتربية الاخلاقية مكان فى مدارسنا . وهذا لا يعنى بالطبع أن المدارس تغض الطرف عن النقائص أو تترك الفساد ينتشر فى ربوعها . شيئاً من هذا لسنا نقصد . ولكن من الجهة الاخرى فان التربية الاخلاقية الايجابية ليس لها وجود فى المدارس . لم تلتفت بعد الى هذه الناحية التفاتاً علمياً يقوم على أساس صحيح من قوانين التربية الحديثة . وكل ما تفكر فيه المدرسة المصرية فى وقتنا الحاضر ليس شيئاً سوى عقاب من يخطىء من الطلبة خطأ يستحق العقاب أو يستدعى التوبيخ فكأن الاداة الوحيدة فى بناء الاخلاق عندنا هو العقاب او التوبيخ ليس غير والحال أن علم النفس وعلوم التربية لا تذهب هذا المذهب . فليس حتما لزاماً أن يكون العقاب والتوبيخ هما الاداة الوحيدة فى بناء الاخلاق . ليست الوجهة السلبية من الآداب هى كل ما فى الامر لا بل ليست هى أهم ما فيه

ان الاخلاق شيء ايجابى له قوة دافعة . فهى بث الميول الاجتماعية وتعهدها بالعمل والنشاط . وهى ايضاً بث المؤثرات الايجابية فى الفرد وتعهدها لتنفعل وتنتج ما تنتج فى عالم الآداب والفضائل . فالاخلاق اذن هى التأثر بمؤثرات خاصة تنتج افعالا خاصة . وعلى ذلك فهى تستدعى أن يكون للانسان فرصة ليحيا بطريقة معلومة . وبهذه الصفة ليس لها مكان فى مدارسنا . فكل ما تعمله المدارس فى باب التربية الاخلاقية من الوجهة الايجابية هو أن تعظ وتحض . ونحن لسنا فى حاجة الى الوعظ والحض . أو على أقل تقدير ليس هذا كل ما نحتاجه لأن اهم عامل من عوامل الاخلاق — الا وهو الفرصة لممارستها عملياً وفى الحياة المدرسية — ليس له وجود فعلى فى هذه المدارس وعلاوة على ذلك فالتربية الاخلاقية التى تقوم على الوعظ والارشاد ليست من النوع المنتج المفيد

وأما معظم كتب التربية الاخلاقية للمدارس فهى لا تختص الا بتعاليم دينية تعسفية وسنتناولها بالبحث عندما نعرض للتربية الدينية . والحق أن الكاتب

لم يعثر فى الكتب المقررة على واحد يصح أن يعد بحق من كتب الاخلاق التى لها قيمة تذكر . ونستثنى من ذلك الكتاب القيم البديع الذى وضعه الاستاذ احمدأمين فى « الاخلاق »

ولو تصفحت هذه الكتب جميعاً كما تصفحها الكاتب لوجدت انها تحتوى على بعض الحوادث فى صدر العصر الاسلامى للطلبة المسلمين . وبها بعض القصص اللامذهبية (secular) التى تدور حول الكذب والصدق والامانة والشجاعة وما أشبه . وعلاوة على ذلك فروح تلك القصص أو مغزاها والدين الذى تحاول بثه — هذه جميعاً لا تعنى بالآداب والاخلاق والدين الا من الوجهة النفعية . فالغاية منها جميعاً هى المنفعة الاقتصادية فى معظم الاحوال أو التقدير الاجتماعى فى بعضها وبالطبع السماء أو الجنة وجهنم النار تلعب دوراً هاماً فى الحث على الآداب والاخلاق فى هذه الكتب . وبالاختصار فان الاخلاق تعامل دائما على انها وسيلة لغاية اخرى وقد تكون هذه الغاية مادية أو اجتماعية . وقد تكون الاخلاق وسيلة للفرار من نار جهنم

وفى الحق أن هذا المنحى فى بث الاخلاق خطأ من أساسه : أولا لأننا وجدنا انه يصعب جداً تعليمها وبثها بالوعظ والحض والكلام . فالاخلاق لا تدرس بل هى نوع من الحياة يحياها الفرد . وفى المدارس فرص كثيرة لحياة كهذه . وثانياً لأن الاخلاق ليست وسيلة لغاية اخرى . بل هى غاية فى نفسها

ومع ذلك حتى لو سلمنا جدلا بأن الاخلاق تبث بالوعظ والكلام فقط فطريقة النفعية لا تجدى فى تعليمها . ومن حيث نار جهنم فقد فقدت كثيراً من تأثيرها المرعب من افئدة العالم المتحضر بما فيه مصر . فليس يقف الولد عند اتيان امر من الامور ليرى هل يقوده مثل هذا العمل الى جهنم أو الى غير جهنم . وفى الحق انه لخير للنشء أن يكون وازعه فى اعماله شيئا آخر غير الرعب والخوف

أما من حيث المنافع الاقتصادية والاجتماعية التى تعود على الولد من تخلقه بالاخلاق الفاضلة فهو زعم شديد الخطورة على الاخلاق ومشكوك فى صلاحيته وذلك لسبب بسيط وهو انه لا يصدق فى معظم الحالات . فقد يسبب التخلق

بالفضائل خسائر اقتصادية واجتماعية كثيرة . وبالاختصار فان اعتبار الاخلاق مجرد وسيلة لغاية أخرى فيه خطر كبير

ولا تقتصر اخطار النظرية النفعية على الوجهة السلبية اذ أن لها اوجهاً ايجابية كثيرة . لانه اذا كانت غاية الاخلاق المنافع الاقتصادية والاجتماعية فما ضر الطفل أن يحصل على هذه الغاية بوسائل اخرى كأن يترك الاخلاق وشأنها ويلجأ الى الرذائل والقبائح للحصول على تلك الغاية ؟ وفى الحق أن كثيرين من الاطفال يعجزون عن مقاومة هذه التجربة فهل يلام الطفل على اتباع هذا السبيل ؟ اذ انه ليس للانسانية أن تتشبث بالوسائل . يكفيها الغايات تتحقق . اما اذا تشددت فى تخير الوسائل فانها تكون قد احالتها الى غايات وهى تدرى أولا تدرى . فاذا اكتشف الطفل بالأختبار يوماً من الايام أن الجماعة مخطئة فى اختيار تلك الوسائل بعينها للاغراض والغايات التى وضعتها نصب عينها . نقول اذا اكتشف الطفل هذا الخطأ — وهو لا بد فاعل — اذا وجد بالاختبار المرير أن الاخلاق ليست وسيلة مؤكدة لمثل هذه الاغراض الاقتصادية والاجتماعية فماذا يكون مصيره ؟ وماذا يستطيع هذا الضرب من التعليم أن يقول أو يفعل

وبخلاف ذلك فاننا لو دققنا النظر فى هذا النوع من التربية لوجدنا فى آخر الامر أن الولد الذى يتخلق بالاخلاق الفاضلة لهذه الاسباب ليس له من الاخلاق حظ كبير أو قليل . والسبب فى ذلك واضح . لأن كل هذه الغايات التى نجعلها غرض الآداب إن هى الا غايات ذاتية . فكأن الكون يدور حول منافع الفرد فهو الذى يربح من الاخلاق وهو الذى يخسر من غيرها . وبعبارة أخرى أن هذا الضرب من التربية يتطلب من الولد أن يكون محباً لنفسه نفعياً وفردياً . وكل هذه الصفات تتعارض مع نظريتنا فى الاخلاق على خط مستقيم . فالاخلاق فى نظرنا اجتماعية غيرية وليست فردية أو ذاتية

وبالاختصار أن التربية الاخلاقية فى مدارسنا تقوم على الوعظ والحض والكلام وتنتهى الى نتيجة منطقية واحدة وهى أن تكون اخلاقا لا طعم لها ولا لون فى مفعولها إن لم تكن ايجابية فى اضرارها . ثم انها غير مجدية ولا علاقة لها

بالجماعة والاجتماع التى هى الأساس فى بناء الاخلاق

فالحل الوحيد كما يخيل الينا هو الأخذ بالوجهة الديناميكية (The dynamic Aspect of Character) من الاخلاق كما مر بنا . أو بعبارة أخرى هو توفير الظروف والأسباب واصلاح البيئة فى المدرسة بحيث يحيا الولد حياة اخلاقية عملية . وهذا بالطبع لا ينفى أن الولد يعلم ويرشد وتقدم اليه المعلومات والحقائق التى هى من متممات الفضائل والآداب

التربية الوطنية

فالتربية الوطنية مثلا هي نوع من المعرفة الاخلاقية (moral knowledge) التى يجب أن يحصل عليها الطفل من المدرسة . ولم يكن لهذا الضرب من العلم والمعرفة مكان فى برامجنا الى عهد قريب فالاولاد لم يكونوا يدرون شيئاً عن نظام حكومتهم ولا عن مسئوليات كل طائفة ومميزاتها وخواصها ولا مقدار ما تقدمه تلك الطوائف من الخدمات للجماعة المصرية . وهل تقوم بما وضع عليها وهل لوجودها مبرر لأن مثل هذه المعلومات اذا ما علمها الطفل تجعله اكثر خبرة بالجماعة التى يعيش فيها . يقول (شارب) (١) : « أن التربية الوطنية اذا ما درسها الطفل بالطريقة المثلى ، هى من خير العلوم وانجعها فى ايقاظ عاطفة حب العدل والصلاح فيه ، وهى ايضاً من خير الامور فى مساعدة عقله على تحقيق مثله العليا »

فالى عهد قريب لم تكن تعطى للطفل دروس فى محبة الاوطان والاسرة والجماعة أو فى فهمها . ولم يكن يجد تقديراً كافياً لرجال قومه العظام . وبالطبع انه من لغو الكلام أن نقول إن الاخلاق لاتنمو نموها المطلوب من دون العلم بالجماعة التى يعيش فيها الفرد ومن دون معرفة معاهدها ونظمها وما أشبه ومن دون أن يقوده مربوه الى احترام تلك الجماعة ايضاً

وأما احترام الجماعة المصرية فيكاد يكون منعدماً عند افراد المصريين فى مجموعهم مع استثناء القليل منهم . انه ليزعج الانسان حقاً أن يرى أن احتقار الافراد لهذه الجماعة ظاهر مجسم كأن الله خلق المصريين من طينة أخرى غير تلك التى خلق

(1) F. C. Sharp "Education For Character,, page 230

منها الغرب . أن المؤلف ليفهم أن يكون لمواطنينا اغلاط قبيحة ونقائص معيبة ولـكنه يثور أذ يسمع من احدهم اننا لا ننفع لشيء أو اننا ميئوس من صلاح حالنا ثم هناك ايضاً بعض الذين تعلموا فى الخارج وحصلوا على بعض القشور . بعض هؤلاء رجعوا الى بلادهم باجسامهم وأما عواطفهم وعقولهم ومشاعرهم فقد تركوها فى الغرب . ولقد سمعت أحدهم مرة يقول انه لا يشعر بأنه بين أهلهوعشيرته الا فى انجلترا (At home in England)

فالتربية الوطنية الحقة متى كان القائمون على أمرها اكفاء تذهب بكثير من هذه الظواهر القبيحة التى لا تدل الا على الـكنود والجحود وعلى عدم فهم للبلاد أو عدم حب وحدب على الاسرة والبيئة . والعواطف والمشاعر هى من الشروط الأساسية للوطنية . ونحن ندعو الى مثل هذه التربية وندعو الى توسيع برامجها بحيث تـكون شاملة جامعة . ندعو الى هذا بشرط واحد وهو أن لا تـكون مثل هذه التربية ضيقة متعنتة أو متعسفة فتجعل الطفل محباً لبلاده وكارهاً أومحتقراً لمن عداها من الدول كما هو الحاصل الآن فى معظم دول اوربا . يجب أن يفهم الطالب ايضاً أن الجماعة البشرية فى مجموعها هى وحدة . وليس هذا فقط بل وحدة مقدسة يجرم من يحاول تفكيكها

التربية الدينية

من عمل الدين أن يبث الاخلاق والفضائل كما بينا فى كلام سابق . أما اذا لم يقم بهذا العمل فقد فشل كل الفشل ويحسن بنا فى هذه الحالة أن نتركه من حسابنا فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية . والآن فلنسأل . هل تقوم التربية الدينية فى مدارسنا بهذا الامر حق قيامه ؟ هل غرضها الاول والأساسى بناء الاخلاق وبث الفضائل

نحن لا يهمنا من الأديان فى هذا المقام مراميها ومباديهاواغراضها أو المفاضلة بينها . كل هذا لا يعنينا هنا . وانما كل ما يهمنا منها هو طريقة تعليمها فى المدارس وبعبارة أخرى نحن نبحث فى التربية الدينية وليس فى الدين نفسه . فالتربية الدينية تخص ارباب التربية الذين هم وحدهم المنوطون بمثل هذا الأمر . وأما الدين فى نفسه فله أئمته وأربابه ونحن نتبع بعض هؤلاء فيما يذهبون اليه

فا كثر اهتمام الدين فى عرف بعض اربابه هو للذهاب الى الجنة وللفرار من نار جهنم . وهذه الوجهة لا تعنينا من جهة قيمتها فى الايمان ولكن قيمتها فى الاخلاق مشكوك فيها كثيراً . لأنه اذا كان الخلاص من نار جهنم لا يهم الولد كثيراً . أو اذا تطرق اليه الشك فى وجودها الفعلى فسيترك الولد الدين تركا باتا أما اذا وجد أن تركه للدين بهذا الشكل يجلب على رأسه غضب الجماعة التى يعيش فيها فسيظل تاركا له بالفعل وفى الواقع حتى وان تمسك به فى الظاهر . ولكنه اذا كان له من الفضيلة القدر الكافى أو اذا كان ممن لا يتظاهرون بما لا يبطنون فسوف يتركه و يتحمل النتائج التى تترتب على هذا الترك كما يحدث مع كثيرين من المسلمين والمسيحيين على السواء . ثم أن بناء الدين على أساس هذه الأمور المادية خطر فى ذاته . لأنه ينتج عنه أنه كلما تعلم الشعب وتحرر فى ارائه من قيود التقاليد القديمة ـــ وهذا امر ميسور وقريب ـــ فسوف يزداد عدد الكفرة وأحرار المعتقدات Free Thinkers واللا أدريين Agnostics . حقا أن ازدياد التعليم فى كل مكان يصحبه عادة ازدياد فى مثل هذا الصنف من الناس . ولكن حالنا سوف تكون شراً من حال غيرنا وذلك لأن ارباب الدين اقفلوا باب الاجتهاد أو كادوا يقفلونه دون جميع الآراء الحديثة

ومع ذلك ايضاً فليس هذا مما يعنينا كثيراً فى هذا البحث . لا يعنينا سواء أأقفل باب الاجتهاد فى الدين أم ما يزال مفتوحا . ولكن للمسألة خطر من وجهة التربية الدينية فى المدارس . ذلك لأن هذا الاتجاه فى الميول يتحكم فى وضع كتب التربية الدينية وتخيرها . وهذه الروح هى التى تقر ما اذا كانت كتب معلومة تدخل المدارس أم لا تدخل . ولقد تصفحنا ما وصل الى ايدينا منها وخصوصاً تلك التى تقررت للطلبة فى المدارس من ابتدائية وثانوية

وفى الحق أن محتويات هذه الكتب ترجف . فبأى ميزان وزنتها لا تجد أن لها علاقة بالدين . فكل ما فيها هو عبارة عن فلسفة عتيقة متعسفة لا تمت للواقع بصلة من الصلات . وهل يعقل أن ولداً فى الثامنة أو السابعة من عمره يفهم صفات الله تعالى واسمائه الحسنى وذاته العلية والثالوث الأقدس ؟ كيف يستطيع

طفل فى هذه السن أن يفهم المقصود من تلك الالفاظ ترص الى بعضها من غير أن يكون لها عنده معنى ومن غير أن تقع هى واشباهها تحت حسه وفى متناول ادراكه ؟ أم هل يفرض فى اطفالنا أن يكونوا كالببغاوات يرددون الاصوات وهم لا يدرون ما يقولون ؟ أم يفرض فيهم انهم يدركون معنى تلك الالفاظ لمجرد رغبة الكبار فى ذلك ؟ كأن ما نرغب فيه ونشتهيه يصير بمجرد هذه الرغبة وتلك الشهوة مفهوماً للاطفال والرضع . ومن جهة أخرى هل يستطيع من حشا تلك الكتب بمثل هذه الالفاظ أن يضع هذه الحقائق فى كلام بسيط مفهوم أو فى لغة سهلة هينة يستطيع الصغير أن يتفهمها ؟ اننا نرى انه اذا كانت مثل هذه الحقائق تدرس على الاطلاق فهذه السن هى اردأ ما نختاره لها

ومع ذلك فما هى النتيجة الخلقية أو الأدبية التى تعود على الطفل من أخذه بمثل هذه الامور التى تنوء تحتها قواه العقلية ؟ هل يصير خلقه امتن اذا حفظ صفات الله جميعا عن ظهر قلب ؟ هل تتغير حياته بالفعل وفى الواقع اذا ما استظهر نصف آيات القرآن أو التوراة والانجيل من غير أن يفهم معناها ؟ الحق اننا لا نجد عائدة من تحميل عقول الاطفال بمثل هذه الفلسفات كالقادر على شىء والعالم بكل شىء والحال فى كل مكان واشباه هذه التعاليم التى يعجز معظم البالغين عن فهمها . فاذا كان هذا حال البالغين معها فكيف تكون حال اولئك الاطفال المساكين الذين يكادون لا يفقهون من الاشياء فى هذا الدور الا ما كان منها يقع تحت الحس والمشاهدة — واين مثل هذه التعاليم من دنيا الاطفال ؟ الحق اننا نرى انه لا فائدة اخلاقية تعود من اثقال كاهل الاطفال بمثل هذه الامور فى مثل هذه السن

ليس لمثل هذه التعاليم فائدة للطفل أولا لأنها ليست من معضلات الحياة ومشاكلها فى نظره . لا بل هى لاتقع فى دائرة اختباراته اليومية أو فى حيز مجهوداته ونشاطه بأى وجه من الوجوه . إذ أن مشاكله ونشاطه ومجهوداته تقع كلها فى حيز أو مستوى آخر بخلاف هذا . لا بل نذهب الى أكثر من هذا فنقول ان مثل هذه التعاليم تزيد مشاكل الحياة له وتخلق المعضلات له خلقاً من غير داع لذلك . فهى تثقل كاهله عند مايحاول أن يستظهرها كى ينال رضاء أساتذته ويقوم

بواجباته المدرسية على الوجه الأكمل . فالمؤلف يعرف بالاختبار أن هذه التعاليم وأشباهها بغيضة إلى الأطفال وكريهة . وهى فى نظرهم شر لابد منه . وكل هذا ليس مما يساعد على بناء الأخلاق كما نفهمها . لا بل نستطيع أن نقول أنها معطلة لها ومضرة بسيادة الدين على القلوب والعقول

وثانياً لأن لمثل هذه التعاليم أضراراً إيجابية . فالحيـاة معقدة التعقيد كله على الأطفال . وهم فى مثل سنهم هذه يحتاجون لأن يوضعوا فى أبسط مظاهر الحيـاة حتى لقد قيل أن واجب المدرسة الأولى هو أن تقدم لهم الحياة فى سهولة وبساطة بعيدة عن التعقيد والالتواء . وأين هذا مما تفعله هذه التعاليم ؟ ثم ان الحياة المدرسية فى بلادنا مزدحمة بالمواد ازدحاماً مريعاً . وان نعجب لشىء فعجبنا للطفل المصرى الذى لاينوء بمثل تلك الاحمال الثقيلة . وفى الحق أن الطفل عندنا فى حاجة مابعدها حاجة إلى الراحة واللعب والمراح والتسلية البريئة المفيـدة . وفى نظام مدارسنا الحاضر ليس له متسع لـكل هذه أو لجزء معقول منها . والنتيجة لذلك أنه لايحتاج الى كل هـذه النظريات . فكل ماقل مايطلب منه القيام به كلما تحسنت أحواله الصحية والعقلية والاجتماعية والأخلاقية والدينية أيضاً

وثالثا وأخيراً يجب أن لاتعدو التربية الدينية العلائق الاجتماعية . يجب أن لانتورط فى النظريات والآراء الفلسفية بدرجة تجعلها غير متصلة بالواقع الملموس وبالامور العملية البحتة . لأنها إن فعلت انقطعت الصلة بينها وبين الأخـلاق تلك الصلة التى قلنا فى مكان آخر أنها غاية التربية الدينية . فغرض الدين كما يفهمه جمهرة العلماء هو بناء الأخلاق بداءة ذى بدء . ولـكنه فى بلادنا أوشك أن يكون شيئا مستقلا بذاته لاعلاقة له بالحياة اليومية

وبالاختصار إننـا ندعو بالحاح الى تغيير كل الـكتب الدينية التى تدرس فى مدارسنا وبخاصة فى المدارس الابتدائية والسنين الاولى من التعليم الثانوى . وغايتنا من هذه الدعوة أن نتناول الدين فيما يوضع من الـكتب فيما بعد من الوجهة الاجتماعية فقط دون العقـائد والآراء والفلسفة التى تدعم هذه العقائد والآراء .

فحاجتنا القصوى الآن هى إلى الاخلاق القويمة وإلى الميول الاجتماعية السليمة وليس الى تعسفات ميتافيزيقية

ويلاحظ مما تقدم أننا لم نعرض للأديان فى ذاتها لأن هذا ليس من شأننا . ومن وجهة نظرنا ليكن للاديان جميعا من الآراء والعقائد والفلسفات ماتريد وما تشاء . وكل مايهمنا هنا وكل مانذهب اليه هو طريقة تعليم الدين للافراد . وهذه مسألة تختص بالتربية التى لها وحدها كل الشأن فى الوسائل والطرق

العلاقة الجنسية

كل بحث فى بيئة الولد المصرى — وفى بيئة أى ولد آخر — يخلو من الاشارة إلى العلائق الجنسية بين الذكور والاناث فهو بحث ناقص ومشوه . ومع أن المؤلف يشعر بأهمية مثل هذا البحث الا أنه مضطر بحكم الظروف لأن لايتوسع فيه نظراً لما استغرقته البيئة فى مجموعها من هذا الكتاب . وعلى هذا فسنقتصر على بحث بعض الامور الجوهرية فى هذا الامر

مركز المرأة المصرية

لقد فات كتاب الغرب فهم هذه النقطة على حقيقتها . فهم متأثرون وهم يدرون أولايدرون بما كتب قديما عن المرأة المصرية

ففى رأى هؤلاء الكتاب ومن رأينا نحن أيضا أن تعدد الزوجات هو أصل لبلاء كثير وشر مستطير . ولكن أولئك الكتاب لايقفون من هذه المسألة عند هذا الحد . ولا يكتفون بتقرير هذه الحقيقة التى لن تجد اثنين من المتنورين يختلفان فيها بل تراهم يسبحون فى عالم الخيال ويستوحون الفن والعبقرية اللذين قد يوجدان فى كثير منهم لتصوير حالة الاسرة المصرية بصورة تكاد تكون طبق الاصل لكتاب ألف ليلة وليلة

فمنها أن البيوت المصرية مقسمة الى قسمين أحدهما عادى ينطبق على نظائره فى أوربا وأمريكا . وهو مستكمل لكل شرائط المدنية والحضارة الى آخر هذا الوصف . وذلك خاص بالرجال فيه يستقبلون ضيوفهم من مصريين وأجانب . وأما الآخر فيكاد يشبه قصور الجن والشياطين والمردة . تصل اليه من دهاليز

مستطيلة متعرجة سقوفها متدانية بحيث تضطر لان تنحنى عند الدخول فيها .
وذلك الجناح من المنزل خاص « بالحريم » وقد صارت هذه الكلمة علما فى اللغة الانجليزية لن تجد لها تحولا أو تبديلا وعلى باب هذا الجناح يقف عبد أسود قوى جبار عار من الثياب إلى النصف . يقف هنالك والمدى تطل من قرابها على فخذيه كالسجان فى العصور المظلمة . يقف مشبكا ذراعيه على صدره كأنه يتحدى الداخل أيا كان أن يدخل

ولو قدر لك أن تمر بهذا الخصى من دون أن تحز رأسك فلن تأمن أن تضل الطريق لتشعب المسالك أمامك . وأما إذا قدر لك أن تصل الى قرارات هذا السجن فستجد رهطا من النساء عاريات الاذرع والنحور تكتنز ملابسهن باللحم والشحم اكتنازا . وهن جلوس على الارض أو منبطحات يلعبن ويمرحن ويضحكن وكل أولئك هن ملك لرجل واحد لاينازعه فيهن منازع

تكاد هذه تكون صورة دقيقة لما يتخيله كثيرون من الغربيين فى الاسرة المصرية . ويكاد هذا يكون محصل مايكتبون فى هذا الموضوع مع تغيير طفيف هنا وهنالك ومع مايدخلونه على هذه الصورة من المحسنات البيانية والجملات اللفظية ولقد قابل المؤلف كثيراً من الغربيين ممن تكاد فكرتهم عن المرأة المصرية لاتتعدى هذه . وقد كان له مع كثيرين منهم فى بلادهم شأن فى هذا الموضوع وقد فات هؤلاء الناس أن هذا لاوجود له إلا فى مخيلاتهم وأن البيت المصرى كأخيه الغربى مع قليل من الفوارق التى وجدت بحكم الظروف والعادات والتوارث الاجتماعى . وفاتهم أيضا أن تعدد الزوجات فى الواقع يكاد يخسر الموقعة فى بلادنا وإن كانت له بعض النتائج التى مانزال نعانيها . ولقد صدق السر فالانتاين تشيرول إذ يقول : ان « تعدد الزوجات فى مصر نادر وهو أمر بغيض للمصريين »

ومع أن هذا هو حال معضلة تعدد الزوجات . ومع اننا موقنون انها أخذت تموت جذورها فى التربة المصرية الحديثة . وبرغم الضغط الاجتماعى والاقتصادى الذى شرع يحول مجرى ميول الناس عن هذه الناحية حتى كدنا لانسمع فى الأوساط الاجتماعية التى ننتمى اليها بحوادث كثيرة من هذا القبيل . نقول انه برغم كل هذه

العوامل ما يزال بعض الناس يغمضون عيونهم عما يترتب على هذا الامر من الاخطار الاجتماعية والاقتصادية ويسرفون فى استعمال حق اكسبتهم اياه الشريعة اشباعا لحيوانيتهم . وهذا هو منشأ تلك الظاهرة الاجتماعية الخطيرة التى هى شر ما ينتاب الحياة العائلية فى بلادنا

أما الدين نفسه فقد أعطى المرأة حق الطلاق اذا اشترطت ذلك فى عقد الزواج وبهذا الحق وباتساع دائرة تعليم المرأة المتزايد نرجو انشاء عرف جديد يحول دون اساءة استعمال هذه الاحكام الشرعية وتطبيقها تطبيقاً لا يتمشى مع روح العصر والحكمة التى وضعت لأجلها . ذلك لأن العرف يكون ابداً على استعداد لحماية المرأة عند اللزوم . ومن الجهة الاخرى تكون المرأة قد ارتقت وقوى فيها شعورها بحقوقها ومميزاتها وتأصل فى نفسها احترامها لشخصيتها فتربأ بنفسها أن يعاملها الرجل معاملة السوائم تشرى وتباع وتبدل تبعاً لنزوة الشهوات فى رأس الرجل الذى كثيراً ما يكون بجملته مطية لاحدى غرائزه تركبه متى شاءت وايان ارادت

الولد والبنت

ثم انه يوجد تباعد بين الجنسين فى بلادنا . وهذا التباعد يكاد لا يتزحزح عن مكانه . فالاولاد والبنات لا يختلطون بحرية كما يفعل ابناء الأمم المتحضرة . وليس لهم حفلات ايناس تجمعهم الى بعض ليستمتعوا فيها بالمراح البرىء . وأما اذا خطر لبعضهم أن يستمتعوا بالاجتماعات البريئة فقد ذهبت سمعتهم فى بيئتهم وأخذ الناس يتهامسون عليهم كأنهم ارتكبوا من المعاصى ما تحمر له الوجوه وتطأطىء له الرءوس فنحن نسلك بازاء الشباب فى بلادنا لا من حيث ما يرتكب هذا الشباب من الاخطاء بل من حيث ما عساهم قد يرتكبون . وحكمنا عليهم ليس على ما عملوا بالفعل بل على ما قد يعملون . أو بعبارة أخرى لا نأخذهم بغير التظنن والريبة والحال انه يجب أن يكون بعض الظن اثماً والارتياب بالبرىء جريمة تستحق غضب الارض والسماء

ومن الجهة الأخرى لا يستطيع البنين والبنات أن يتعلموا فى مدرسة واحدة أو تضمهم غرفة واحدة ويحاضرهم أستاذ واحد . وليس ما يدفعنا الى هذا سوى

زعمنا الخطأ بأن الناس جميعاً مريبون وأن الذكر والانثى عدوان ليس من عداوتهما بد وليس يصح أن يجتمعا فى مكان واحد اذا كنا نسعى وراء الفضائل . كأن الفضيلة ليست تنمو حيثما وجد رجل وامرأة . أو كأن الله الحكيم لم يكن حكيما حقاً عندما خلقهما ذكراً وانثى . أو كأنه لم يكن ليهتم بالفضائل اصلا عندما أوجدهما على أرض واحدة . حقاً أن الانسان ليعجز عن أن يفهم هذا التعنت والتعصب للفضيلة التى هى فى الواقع أشبه بفضائل المسجونين . والمسجونون ايضاً لا يستطيعون أن يسرقوا أو يقتلوا لأنهم رهينوا السجون ولأن عليهم من الرقباء من لا ينامون ، ألا بئست هذه الفضيلة التى لن توجد الا حيثما انعدمت الحرية وذهب حق الاختيار بينها وبين الرذيلة . حقاً أن الفضيلة التى ليس منها بد هى أقرب الفضائل الى الرذيلة

وكان من أثر هذا الجو الموبوء حقاً أن اقيمت الفواصل والحواجز بين الولد والبنت فصار الواحد منهما ابعد الاشياء فهما للآخر . صار الشاب عاجزاً العجز كله عن أن يجلس الى فتاة يتحدث اليها وتتحدث اليه فيتبادلان المواضيع العامة والخاصة التى تكون قد عرضت لاحدهما فى حياته . . لا يستطيع الفتى أن يزور فتاة يحبها . . كلا لا يستطيع أن يحبها أو أن يعلن عن ذلك الحب . لأن الحب حيوان دنىء والوالدون لهذا الحيوان بالمرصاد

وعند كثيرين من المفكرين أن هذه ظاهرة خطيرة . فان هذا التصرف يحرم كلا الجنسين من علاقات اجتماعية شرعية ومفيدة . ثم انه لا يتفق ونظريتنا فى الاخلاق بأنها : « اتجاه فى الميول للاشتراك فى الحياة الاجتماعية » . وليس حياة اجتماعية احق بالاشتراك وأفعل فى تأثيرها على الاخلاق وامتع للطرفين من تلك التى يتقاسمها الجنسان . فمثل هذا التفاعل بين الجنسين ليس يفوقه شىء فى تهذيب الاخلاق وفى توجيه الميول الى الوجهات القويمة وفى تغذية الصفات الاجتماعية فى الفرد ثم فى رفع حالته المعنوية وتطهير لغته من الالفاظ القبيحة . وفضلا عن ذلك فانه ينقذ الولد من الميول الخطرة المضرة ومن امراض عقلية وأدبية كثيرة تنشأ عن بعده عن الجنس الآخر . وبخلاف ذلك كيف يتسنى للولد مع هذا التباعد أن يفهم البنت وتفهمه ويوطنان النفس على حياة مشتركة بينهما ويخلدان الى حياة

زوجية هانئة وادعة ؟ الحق أن بيئتنا هي من أردأ البيئات من هذا الوجه

بالطبع فى مثل هذه الحرية شيء كثير من الخطر فهى ليست خيراً محضاً . ولكن هذه حال كل شيء آخر فليس ثمة خير محض . فكيف نصر على أن يكون لاختلاط الجنسين حكم آخر مغاير لحكم جميع الاشياء ؟ ومع ذلك فيمكن تجنب كثير من شرور هذا الاختلاط اذا ما ازداد اهتمامنا بالاختلاط وبخاصة فى البيت والمدرسة

وأخيراً فاننا نؤكد فى ضوء تحليلنا للاخلاق انه لا يمكن أن يكون هناك خلاص للجماعة المصرية من دون تكاتف الجنسين على العمل . واتحاد جهودهما وتواضعهما على النضال فى سبيل الاخلاق ويد احدهما فى يد الآخر . حقاً سيسقط الكثيرون من الجنسين فى هذا النضال الاخلاقى . ولكن الفائزين والفائزات سيكونون أصلا لجيل أقوى واثبت فى ميدان الاخلاق ممن سبقوهم . وفضلا عن ذلك فان من خطب الحسناء فلا بد وأن ينقدها المهر . فأن كنا حقاً نهيم بالاخلاق والفضائل فلا بد من دفع الثمن كما سبق أن دفعت الانسانية فى مجموعها ثمن كل شبر من التقدم . اما اذا ترددنا فى دفع هذا الثمن فليس لنا الا أن نعيش بغير اخلاق إن كان ذلك مستطاعا . يقول الأستاذ روفيوس جونز « انى اعرف بالاختبار الصعوبات الكثيرة والمسالك الوعرة التى تكتنف مثل هذا الاختلاط بين الجنسين . وحتى فى طفولتنا كان كثير من أمورنا يستدعى الانتقاد . ولكن أثر هذا الاختلاط حول موائد الطعام وفى غرف الدرس كان عاملا بالغا وفعالا فى تربيتى . وأما صداقتى الخالصة للفتيات اللواتى كان لهن اخلاق شريفة وذوق لطيف وروح طاهرة فقد رفعتنى الى مستوى من الحياة جديد »

الحالة المعنوية من سنة ١٩١٨

فى الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ رفع فلاح مصرى صوته مطالبا بالحرية السياسية للبلاد . وقد أخذت الاجواء تعج بذلك الصوت رغم ما تعرض له صاحبه من إخطار النفى والحرمان والسجن والاضطهاد الى أن اخفته الموت فى الثالث والعشرين من اغسطس سنة ١٩٢٧ . وحتى يد الموت لم تستطع أن تمحو اصداء

هذا الصوت التى أخذت تتجاوب ليس فقط فى الافق السياسى بل فى كل مناحى الحياة المصرية . ومع انه قد استخلص للامة بعض الميزات السياسية الا أن المناحى الادبية والمعنوية التى استطاع أن يوجه اليها ميول الامة هى فى الواقع اعود كثيراً على مصر وادوم لها على الايام

وليس من المغالاة فى شىء أن يزعم الانسان أن خير مدرسة تتلمذنا فيها فى تاريخنا الحديث هى هذه العشرة سنين التى قضيناها فى الثورة والجهاد . فالحالة المعنوية فى البلاد ارتفعت كثيرا فى هذه الفترة . ونفسية الامةواحترامها لشخصيتها وشجاعتها ومظاهرها الاجتماعية واغراضها وغاياتها ومثلها العليا . كل هذه المظاهر المعنوية وثبت وثبة كبيرة الى الامام فخرجت فيها المرأة الى الميدان فى شجاعة وروعة لتبرهن للعالم ولمصر أن لها وجوداً وأن لها امكانيات . فكل هذه الظواهر تخطت ما كان مقدراً لها كثيراً . وفى الحق أن احداً لم يكن يخطر له على بال أن فى الامة مثل هذا التدفق فى الحياة . كلا ولا زعيم الامة نفسه بماله فيها من الايمان لم يكن يظن أن مثل هذه القوة كامنة فيها

أما الانجليز فقد صعقوا فى مكانهم وأخذوا يقيمون لرغبات تلك الأمة بعض الوزن ويلتفتون اليها بعض الالتفات وأخذوا يتكلفون مداراتها ، ما يتكلفه الفرد بأزاء انسان له شخصية ونفس كبيرة نوعاً . ولم يقف تكلفهم هذا عند حد الألفاظ والمظاهر الجوفاء بل تعدى نوعاً ما الى المعانى والحقائق

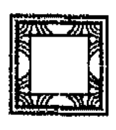
ومن أروع ما اظهرته هذه الحركة هو قوة المرأة فى البيئة المصرية . فالى هذا التاريخ كانت البلاد لاتدرى لها وجوداً أو تحس لها أثراً فى أى منحى من مناحى الحياة الا من شذ منهن وليس للشذوذ حكم . كانت المرأة الى ماقبل هذه الحركة قعيدة بيتها لاتتصل بالعالم خارج الدار الا من خصائص الباب ومن خلف ستائر النوافذ . ولكنها فى هذه الحركة القت على البلاد درساً لن تنساه ويحسن أن لاتنساه . فقد برهنت على أنها عامل لم نكن نحسب له مايستحقه من الحساب

فهذا النهوض بغض النظر عن وجهته السياسية كان أهم عامل فى تغيير كثير من أركان الأخلاق فى مصر فى الحقبة الأخيرة من التاريخ . ولسنا ننكر أضراره على

الأخلاق أيضا اذ انه لم يكن خيراً محضاً كما قدمنا . الا أننا ننوى أن نغض الطرف عن ذلك فى هذا المجال . وكل مايهمنا هو أن المصريين قد أخذوا يتحركون فلم يعودوا قانعين بما هم فيه وخيراً يفعلون . فليس للقناعة فى هذه الناحية من معنى سوى الركود والجمود فالموت

خاتمة

هذه صورة مصغرة للبيئة المصرية تكاد تكون مختلة لاقتضابها . ثم هذه هى العوامل الاجتماعية والأدبية التى ذهبت فى تكوين هذه البيئة . وهذا أيضاً ماندعو اليه رغبة فى بناء أخلاق الناشئة المصرية . واننا نشعر أن هذه الصورة قد رسمت على عجل . وانها مختصرة جداً ولـكننا نخال أنها دقيقة وموضوعية (objective) بقدر ماسمحت لنا به الظروف التى نحن فيها مقيمون . والكاتب لاينسى أنه مصرى وأنه قد يتأثر عن غير عمد بحبه لبلاده وتلهفه على أنها تأخذ مكانها تحت الشمس . ولقد حاول المؤلف أن يمنع طغيان المشاعر والعواطف على العقل والفكر فى هذا الباب . وسواء أكان قد أفلح فى هذا أم لم يفلح فهذا مايترك الحكم فيه للقراء



الفصـــل الثالث

البيئة والاخلاق

لقد حاولنا فى الفصل السابق أن نبين العوامل التى أخذت فى تكوين الخلق المصرى فى عصرنا الحديث . ثم حاولنا ايضاً أن ندل على تلك المواضع من هذه البيئة التى يجب أن يجرى عليها التغيير والتبديل أو بعبارة أخرى يجب أن نصلح البيئة المنزلية والمدرسية حتى يتسنى للولد أن يشترك اشتراكا فعليا وفعالا فى الحياة الاجتماعية المصرية

وبالطبع يستحيل على أى انسان أن يبحث جميع العوامل التى تذهب فى بناء الاخلاق بحثا مستوفيا كاملا . لانه علاوة على أن هذا أمر مستحيل من الوجهة المادية فهو ايضاً مستحيل من الوجهة العلمية . وذلك لاننا لا نستطيع أن نعلم على التدقيق ماهى جميع تلك العوامل . فالكائن الانسانى معقد التركيب جداً . ثم اننا فى الواقع لا ندرى على التحقيق ما هى حدود البيئة . وليس يمكن بسط هذين العاملين بسهولة

وعلى أى حال فنحن مزمعون أن نبحث باسهاب بعض الاختبارات التى تساعد على تنمية الاخلاق فى الفرد . فان تبين من سياق الكلام أن ما اخترناه من تلك الاختبارات منفصل عن بعضه بعيد الشبه أو لا علاقة بينها جميعاً فيشفع فى هذا التفكك الظاهرى أن ما يربطها جميعاً هو الولد المصرى بمميزاته الدينية والاجتماعية والتعليمية . وبعبارة أخرى ليس المرجع فيما نقول هو علاقة الاختبارات ببعض أو ترتيبها وتبويبها بل هو الولد نفسه . ثم ليلاحظ القارىء ايضاً اننا لا نزمع حصر كل هذه الاختبارات بل سوف نتخير منها تلك التى يكون لها أثر ظاهر فى تكوينه . نقول اننا سوف نبحث فى بعض هذه الظواهر وسوف نحاول أن ندل على ما يجب أن يعمل فيها ما استطعنا الى ذلك سبيلا

وتستطيع ان شئت ان تعتبر هذا الفصل ملحقاً للفصل السابق ومكملا له مع العلم ان بعض ما سنذكره قد يظهر فى بعض الأحوال غير مقتصر على الولد المصرى بل يتعداه الى الأولاد جميعاً فى كل البلاد الأخرى . أو بعبارة أخرى قد يظهر انه عام ينطلق على غير أولاد مصر . وفى هذه الحالة يحسن بنا ان ننبه مقدماً الى ان مانحتاجه نحن كمصريين ليس يعدو ان يكون حاجة عالمية عامة فى كثير من الحالات . فنحن كباقى أهل الأرض فى حاجة الى الخلق المتين

وسوف نحاول ان نكون عمليين فى هذا الفصل مع مافى الواقع العملى من التعسف الذى ليس منه بد . والتعسف هو ضربة العملية أوشر ليس منه محيص لمن يريد ان يوضح الأمور توضيحاً لايحتمل الشك . ولكننا لنا شفيع فى هذا التعسف فى اننا نرغب ان نفيد ولسنا نريد ان نظهر براعة فى الاحتياط . وعلى حد قول الاستاذين شابمان وكونتس ان « التعسف هو الثمن الذى يجب دفعه للصراحة والوضوح »

مكان الاسرة من التربية الآخلاقية

عندما يتكلم انسان فى مكان الاسرة من حياة الطفل وتأثيرها فى تكوين شخصيته وأخلاقه يشعر بقلق واضطراب . وذلك لانه مقرر أو فى حكم المقرر ان هذه قضية مفروغ منها . والبدء والاعادة فى أمثال هذا الموضوع تكرار مل ومبتذل . ولكن رغماً عن ان العالم المتمدين قد أخذ يوجه جهوده لحل هذه المعضلة نكاد نحن فى مصر لانشعر بوجودها أصلا ان لم يكن من الوجهة النظرية فمن الوجهة العملية المحضة . ويخيل الينا ان هذه الظاهرة الاجتماعية لم يكن لها من مفكرينا الالتفات الكافى التى هى أهل له . قد يجوز ان وجهتها النشوئية والانثروبولوجية لم تغفل كل الاغفال . اما من وجهتها العملية فتكاد تكون غفلا . ولذلك فان الانسان يشعر بأنه يجب عليه ان ينوه باقتضاب عن أثر الاسرة فى بناء الاخلاق

لقد أجمع العلماء على انه ليس لظاهرة من الظواهر الاجتماعية ماللبيت من الاثر فى تكوين الافراد . فالبيت هو معمل للرجال كما انه معمل للجبناء والمجرمين والانذال . وهو من أهم العوامل التى أوجدت الناس فى حالتهم الراهنة ان لم يكن

أهمها على الاطلاق . وكما قال وولتر فسك (١) « بعض العوامل الاخرى مهمة . ولكن البيت أهمها جميعاً . بعضها قوية فعالة . ولكن البيت الفاضل الكريم القوى لن يقهر على أمره فى تكوين الاخلاق »

ولو أخذنا برأى الاستاذ (أوشيا) من جامعة هارفارد بأن « معظم ميول الأطفال نحو الناس والمعاهد والنظم الاجتماعية والعادات المحيطة بهم تتكون فى العاشرة أو الحادية عشر من عمرهم » فقد حق علينا أن نقول أن الناس كما هم فى حالتهم الراهنة رجالا ونساء ، هم فى الواقع ونفس الامر من صنع البيوت . ومع أنه ليس مأموناً من الوجهة العلمية أن نزعم أن الأطفال يتم تكوينهم فى العاشرة أو الحادية عشر — لأنه فى الواقع لايتم تكوين انسان الا فى نهاية أجله — نقول مع أنه لايتحتم علينا من الوجهة العلمية أن تأخذ بهذا المذهب الا أنه يكاد يكون من المحقق أن فى مثل هذه السن يكون الجزء الأكبر من أساسات الشخصية بجملتها والأخلاق على الخصوص قدفرغ من وضعه . ففى مثل هذه السن أو مايقرب منها بكثير أو قليل تتكون ميول الفرد نحو الظواهر الاجتماعية حوله بشكل يدل على البقاء والثبوت . وذلك لأن التلبيات النفسية وردود الأفعال يكون قد تم الارتباط بينها وبين تلك الظواهر . وعلى نوع هذا الارتباط يتوقف ميل الفرد لأن يدعو لصالح تلك الظواهر أو لغير صالحها . أو بعبارة أخرى تكون ميول الطفل قد أخذت تسير على منوال يتفق أولا مع ما يجده حوله من الحياة الاجتماعية . ومتى تساوت العوامل الأخرى فان مثل هذه الميول تأخذ فى الثبات والاستمرار والتأصل . « فلماذا اذن لايهتم الوالدون الاهتمام كله لهذه التربية الأولية . تلك التربية التى تتحكم فى مستقبل الطفل وتوجه مصيره . » كما يتساءل روفيوس جونز ؟

عمل البيت

لقد اتفق العلماء على أن للبيت وظائف عدة أهمها ثلاث . وهذه وظائف

(1) " Parents and Their Problems,, by The National Congress of Mothers Vol 1V P. 283

أساسية فى تكوين الجماعات البشرية . فهو اولا الوسط الوحيد المعترف به من الشرائع لتحقيق الغرائز الجنسية . وثانياً — وهذه نتيجة للاولى — أن المنزل هو الاداة الوحيدة لحفظ الحياة الانسانية من الانقراض بالتناسل المشروع . وثالثاً يكاد البيت أن يكون النظام الاجتماعى الوحيد لتربية الأطفال . ويحسن بنا أن نمر بوظيفتيه الأوليين مر الكرام خصوصاً ونحن ليس لنا معهما شأن . وأما وظيفته الثالثة فهى كل ما يعنينا فى هذا المجال

يخيل الينا ان اهم وظائف البيت بلا مراء هى الاعتناء بالاطفال بعد ان يولدوا لانه قبل ان يتكون الجنين فى بطن امه يكون ملكاً لابويه ان شاءا اوجداه وان ارادا تركاه حيث هو فى عالم الغيب . والترك اوعدمه ليس يهم الجماعة البشرية كثيراً الا متى صار هذا سنة يتبعها الجميع فتؤثر فى الجماعة من حيث ندورة النسل فانقراض النوع او من حيث كثرته بشكل ينزل بمستوى العيش والحياة فى العالم . وحتى مع ذلك يظهر لنا ان العالم لايهتم لماسيكون ان خطأ او صوابا . ولن يتدخل الامتى كان النسل حقيقة واقعة اى لما يولد الطفل . ففى هذه الحالة فقط تدعى الجماعة ان لها حقوقاً على الاحياء وان لها مصالح فيهم تسهر عليها وترعاها . فمن هذه الوجهة اذن تكون أهم وظيفة للعائلة فى نظرنا هى رعاية الطفل بعد ان يولد ويتحقق وجوده المستقل وهذا مايدعونا الى الزعم ان تلك الوظيفة بالذات هى اهم الوظائف على الاطلاق وذلك لمساسها بكيان النوع وتطوره مساساً مباشراً ذا أثر مستمر ومستديم . ولكنه يظهر من الواقع الملموس ان البيت فى مصر يكاد يفشل فشلا ذريعا فى تأدية تلك الوظيفة بالذات

- فالاغلب ان حاجات الطفل المادية تتوفر له بقدر ما تسمح به طاقة والديه الاقتصادية وان كان الجهل فى معظم الحالات يفسد عليهما نواياهما الحسنة . وعلى كل فهما يقدمان له غذاء ومأوى ومع ما فى طريقة خدماتهما للطفل من المآخذ الكثيرة الا انه ليس لانسان ان يتهمهما بعدم الرغبة فى توفير كل الاسباب للاطفال لان الرغبة متوفرة للوالدين وعدمها ليس امراً طبيعياً . ومتى تساوت جميع العوامل فاننا نستطيع أن نقرر أن العائلة هى خير من يقوم على حاجات الأطفال المادية بشرط

أن تكون العوامل الاقتصادية مساعدة على ذلك . ومع كل هذا فاننا ندعو الى وضع تشريع يحمى الاطفال فى سنيهم الأولى مما قد ينجم عن استحالة بقاء الأب والأم فى كنف واحد

ولكن حاجات الطفل المادية ليست كل ما ننتظر من الوالدين . فالعيش ليس كل مستلزمات النفس البشرية . بل يلزمها النماء والتقدم فى الشخصية والاخلاق وعلى العائلة أن تقدم للطفل ما يساعده على أن يصير رجلا . وسواء أرادت العائلة أم لم ترد فانها قوام على رجال الدنيا ونسائه . وهنا يتضح لنا مقدار فشل العائلة المصرية فى تأدية هذا الواجب . فهى عاجزة والنتاج ردىء . ومن ثم صارت الجماعة مريضة .

البيت هو أول من يستقبل الطفل فى هذه الدنيا . وهو أول من يقدم له ذلك التراث الاجتماعى الذى تسلمناه ممن غبر . لا بل هو أول من يعلم الطفل أن يؤدى ما يعنى بأصوات متغيرة وأول من يعلمه الكلام . فالعادات والعرف والظواهر الاجتماعية المختلفة يتلقاها الطفل عن والديه أولا . وهناك يتصل بالجماعة البشرية أول اتصال . وهناك يتعامل مع الانسانية بالأخذ والعطاء . وهنالك ايضاً يرى الجماعة البشرية فى أول مراحلها وعلى أبسط صورها . وليس من ينكر أن الأسرة هى الوحدة الاولى للجماعة . أو النموذج المصغر القابل للفهم والادراك . فى البيت يتعلم الطفل أول ما يتعلم عن الخطأ والصواب . والحسن والقبيح . وهنالك ايضاً يتلقى معنى الملكية الفردية والحكومة والواجبات والحقوق والمميزات

وبالاختصار نستطيع أن نقول أن البيت هو أول معمل يجتازه الطفل ليخرج منه الى الجماعة البشرية مستكمل شرائط الانسانية أو فاقدها كل الفقد . فهو المصنع الذى يصطنع من ذلك الحيوان الصغير عضواً نافعاً للجماعة . أو يفشل فى ذلك فشلا تعود مضاره على العائلة والجماعة والطفل جميعاً

ومع كل هذا تدرج الجماعة البشرية على الزعم الظاهرى أو المستور أن العائلة فى حالتها الراهنة كفء لأداء كل هذه الواجبات . فلم يخطر فى بالها أن تتساءل عما اذا كان الأب والأم جديرين بالاضطلاع بهذه المسئولية . ليست تتريث لتتأكد

هل الثقة التى تضعها فى الأب والأم هى فى محلها أم هى ثقة عمياء تكاد تكون تواكلا يضر ولا يفيد . فالاولاد هم أفراد فى الجماعة كما هم فلذات اكباد الوالدين فلها حق رعاية مصالحهم كما أن ذلك من حق الآباء . فلماذا اذاً لاتتنبه الجماعة لواجباتها ؟ وتلتفت الى هؤلاء الاطفال فتأخذ بيدهم فى نموهم وتقدمهم وتأخذ بيد والديهم فى القيام على صوالحهم لماذا تترك هذا الواجب للآباء كل الترك ؟ كأن الوالدين لا يخطئون . أو كأنه مفروض فيهم التنزه عن العيوب . أو كأن رعاية الاطفال حق الهى منحه الله فقط للآباء والامهات . أو كأن الطبيعة أخذت على عاتقها تفهيم الوالدين ما يحسن بهم أن يفعلوه مع اطفالهم وقصرت هذه المعرفة عليهم دون غيرهم . يقول شابمان وكونتس (١) فى هذا الصدد « نحن درجنا على الزعم أن الفتاة التى ليس لها حظ يذكر من الادراك والفهم تصبح فى لحظة وبطريقة تكاد تكون سحرية حائزة على القدر الكافى من العلم فتعتنى بوليدها ليس من الناحية المادية فحسب بل من الناحية العقلية والاخلاقية ايضاً » وكل هذا الانقلاب الخارق للعادة ليس لشىء سوى انها وضعت وليداً

كأنه يكفى الأم أن تضع الوليد لتصير اهلا للقيام على اخلاقه وميوله وشخصيته فما دامت قد حبتها الطبيعة بالولد فلا بد وأن تكون قد حبتها ايضاً بالقدرة على تربيته والقيام على جميع مصالحه . وتنسى الجماعة أو تتناسى أن القدرة على الانتاج امر يتساوى فيه البله والعته والمجانين . وأنه لا خلاص للانسانية الا بتدخلها بين الوالدة ووليدها لصالح الولد والأم والجماعة جميعاً

وفى الحق أن البيت فى حالته الراهنة يكاد يكون ضربة على نمو الاولاد الاخلاقى والاجتماعى . فالتعاويذ والسحر يكادان يستبدلان من الطب والعلم . ويكاد الجهل والخرافات تغطى على العقل والبصيرة فى التصرف مع الاولاد . فيجب والحالة هذه أن نفعل شيئا لسلامة الجماعة المصرية . نستطيع على الأقل أن نتحقق من كفاية الشاب والشابة عند الزواج لان يعتنيا بأبدان الاولاد وعقولهم وأخلاقهم

علاقة الاب بالام

يتوقف نمو الاولاد الاخلاقى على مقدار حظ الوالدين من الذكاء كما ذكرنا

(1) Chapman and Counts "Principles of Education,, P. 226

آنفاً . ثم انه يتوقف أيضاً على العلاقة الكائنة بين الاب والام كما سنبين الآن . وقد يظهر غريباً لأول وهلة اذا نحن قلنا ان خير الاولاد المادى من حيث النمو الجثمانى السريع يتوقف أيضاً على جو العائلة . ومع انه يمكن الاخذ بهذه النظرية والدفاع عنها بسهولة إلا اننا نمر بها مراً سريعاً ونتركها لمن يريد استقصائها . أما نمو الاولاد الاخلاقى بالاخص فهذا مايتحتم له جو صحو رائق فى البيت . فمتى حل السـلام فى عائلة ومتى استتب التعاون والحب الاكيد والتفاهم بين الاب والام فلا بد من توافر أسباب النمو الاخلاقى للذرية متى تساوت العوامل الاخرى . لانه فى مقدور الاطفال أيضاً ان يرتبوا النتائج . ولبساطتهم وسلامة طويتهم يعملون فى الحال بمقتضى تلك النتائج . وليس ترتيبهم لها يتبع طرق المنطق والتفكير بل يكاد يكون الهاماً . لابل نستطيع ان نقول مجازاً انهم يستنشقون آراء احد والديهم فى الاخر . ثم يترسمون خطاهم من دون تفكير لانه فى عرفهم ان سلوك والديهم ليس مادة للتفكير والتأمل ولكنه مثال يحتذى للتو والساعة من غير مابحث أو ترو . فى عرفهم أن الأب يتحدث هكذا والأم كذلك ليس لدوافع قد تغيب عن الأطفال أو قد لاتغيب بل هما يعملان ذلك والسلام وما على الأطفال الا أن يعملوا مثلهما لأن طبيعة الأشياء تتطلب ذلك

ولسنا نقصد فيما نقصد بالعلاقة بين الاب والأم أن أحدهما يقدس الآخر ذلك التقديس الظاهرى الفارغ . بل نعنى شيئاً أكثر من ذلك وأبعد غوراً لأن ذلك الاحترام المصطنع — احترام الرجل للمرأة لأنها امرأة ولأنه رجل والسلام — قد أخذ يتقلص ظله فى بعض الجماعات المتمدينة . وأول من أخذ يمجه هو المرأة نفسها التى يقدسونها من جهة ومن الجهة الأخرى يضنون عليها بحقوقها فى الانتخابات . فهى على هذا مقدسة . وهى أيضاً لاتفهم وكل هذا فى الوقت الواحد وحسنا فعلت بطلة طاغور عندما أخذ الرجل يتملقها بقوله « أنت مقدسة . أنت الهة » فاجابت « كلا . كلا . لست مقدسة . ولست الهة . وانما أنا انسان . أنا امرأة »

وفى الحق أن المرأة الغربية وخصوصاً الامريكية أخذت تمج ذلك الضرب من

الاحترام المصطنع . فهى تريد الآن أن تعامل كانسان عادى ليس له من المميزات شيء على من عداه . تريد أن تتساوى بالرجل فى الحقوق وفى الواجبات . ليس نظرياً فقط بل عملياً أيضاً . حقاً أن الشقة لازالت بعيدة علينا نحن المصريين من هذه الناحية . ويكاد الانسان يجزم أننا سوف لانصل هنالك مطلقاً بغير حرب ضروس بين الرجعيين والمجددين منا

ونحن لسنا نرمى من هذه الدعوة الى مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق السياسية أو غير الحقوق السياسية لسنا ندعو المصريات الى أن يغمضن عيونهن ويتبعن اخواتهن الغربيات فى كل مايذهبن اليه . لأن مثل هذه الدعوة سواء كانت صائبة أو خاطئة ليس لها محل فى هذه الرسالة . ولكن كل مانرمى اليه هو أن يأخذ المصريون بيد المرأة لتصير فى مصاف الناس من حيث الاحترام لشخصيتها واعطائها حقوقها على العموم . وليس يعنى هذا حقوقاً مفردة بذاتها على التخصيص . وسواء عندنا فى هذا البحث أن تنال هذا أو ذاك من أنواع الحقوق التى هى الآن وقف على الرجال . وانما ندعو الى أن يكون لها يد ظاهرة فى شئوننا العامة وفى أحوالنا الاجتماعية

فيرى من هذا أننا لانرمى الى تقديس المرأة أو تملقها أو ماشاكل ذلك . ثم لانرمى أيضاً الى دعوة معينة لها . بل كل ماندهب اليه هوأن تعامل فى بيئتنا معاملة تختلف عما يجرى الآن . كأن يكون لها فى البيت من الاحترام ماللرجل . ولها من الحرية ما يساعدها على أن تنمو فى شخصيتها وتستوفى الاحترام الواجب لها . فلا يعود الأطفال يشعرون أنها مستعبدة للرجل أو أقل منه بأى وجه من الوجوه . بل مكملة له ومتممة لوجوده . وانها الركن الاساسى فى العائلة

ثم أن هذه العلاقة بين الآب والأم تستدعى أيضاً أن يتعاونا فيما بينهما فى كل ما يتعلق بتربية الطفل . هذا التعاون يكاد يكون منعدماً فى بلادنا . لأنه كثيراً مايتشاحنان ويقتتلان أو يتجاذبان النفوذ على الطفل . فترى أن أحدهما يحاول جهده لأن يقصى الآخر عن أن يكون له على الطفل يد أو قول . وهذا بالطبع من الأخطاء التى لاتحتاج الى كبير عناء لأظهار مافيها من خطر . لأنه لايحسن أن يترك

الولد لأحدهما بمفرده . بل يجب بقدر المستطاع أن يتأملا سوية فيما يجب أن يتبع حياله عندما تعرض لهما مسألة . ولا يجب أن يختلفا عليه فى بعض الأمور كأن تريد الأم أن تفعل معه شيئاً فيعارض الأب أو بالعكس . لأن هذا علاوة على أنه يباعد الهوة بينهما ، يساعد الطفل على أن يتمادى فيما هو آخذ به . فى مثل هذه الحالة التى يختلف فيها الوالدان يميل الطفل الى أن ينسب الظلم والتعسف لمن يعارضه منهما . وأيضاً يتسمم فكره من نحو أحدهما ويوغل فى التسمم اذا أوغل هذا فى الخلف . ثم ينتج أيضاً أن الطفل يفعل مايعلم أنه لايحسن به أن يفعله . يفعل ذلك اتكالا على حماية أحد الوالدين

وأيضاً يجب أن لاتترك تربية الطفل للوالد بمفرده كما تفعل بعض العائلات . لأن مثل هذا الترك يحرج العلائق بين الاب والابن . فيصير الاب فى نظر ابنه كالبوليس للمجرم لا صلة بينهما الا عن طريق التجاذب والاختلاف فى الميول والرغبات . وبعد فليس الاب قاضياً أو حاكما ومنفذاً للقوانين . بل هو أب قبل كل شىء . يجب أن يتقابل مع ابنه فى غير موضع للتوبيخ والعقاب كل هذه أمور ظاهرة لا تحتاج الى شرح أو تفصيل كثير . ويمكن تجنب الاخطار التى تنجم عنها بقليل من العقل والروية من ناحية الابوين

مركز الطفل فى العائلة

يؤكد الدكتور بنزيون ليبير فى كتابه (الطفل والبيت) امراً اغفله الاباء كثيراً . الا وهو أن الطفل ليس متاعاً أو سلعه تمتلكه العائلة . ويوغل الدكتور فى هذه الحقيقة ويتكىء عليها كثيراً بحيث يشرف على التطرف . أوغل فيها بشكل دعا معارضيه الى رميه بأنه يريد أن يكون الابوان ملكا للطفل يلهو بهما ويلعب ولكن رغماً عن هذا الاتهام الذى يصمه به معارضوه نرى نحن اننا فى حاجة الى توكيده والحافه والى اكثر من هذا التوكيد وذاك الالحاف . نحن فى مصر اكثر من غيرنا فى حاجة لأن نفهم أن الطفل ليس متاعاً للوالدين يلهوان به ويتمتعان

الحق أن الطبيعة لم ترزق الناس أولاداً لتسرهم أو تسليهم أو تخفف عنهم مشاق العيش وتكاليف الحياة . ومع ذلك فقد درجت الناس على جعل الاطفال فى هذا

الوضع . وضع المهرجين الذين خلقوا ليتحركوا وينشطوا و يتعلموا فيقهقه الاباء اعجاباً وسروراً . أما اذا أراد الطفل أن يفعل ما يريد . اذا رغب فى أن يسر نفسه وليس الكبار . اذا شعر أن له ايضاً ميولا يريد أن يتفقدها و يستجيب لها . فلا . انه فى هذه الحالة يكون عاصياً . وليس يعدم الاباء حيلة فى معاقبته على عصيانه وليس المؤلف مبالغاً فى هذا أو متعسفاً فقد حصل أمامه بحرفه . واليك التفصيل

ذهب الكاتب لزيارة احدى العائلات الراقية . وكان لها ابن فى الثالثة أو الرابعة من عمره . وقد حدث لسوء حظ هذا الطفل أو لحسنه أن كان قد تعلم أن يقلد بعض الرجال الذين اعتادوا زيارة هذه العائلة تقليداً مضحكاً فكهاً يدل فى الواقع على انه قوى الملاحظة . أراد الاب أن يرى الكاتب مهارة ابنه فى هذا الضرب من المحاكاة . ولكن الولد كان فى دنيا غير هذه الدنيا . كان منهمكا فى تنضيد العابه وصفها الى بعض . وكان هذا يستغرق كل ما يملك من انتباه وحس . اراده الوالد على أن يترك كل هذه ليهرج أمام الكبار و يسرهم ويضحكهم ويسليهم . وأراد الولد امراً بخلاف هذا . فضل أن يظل بقرب العابه ليسر نفسه ويشبع اهواءه وميوله فما كان من الوالد الا أن عاقبه على ذلك . ولما لامه الكاتب اجاب بقوله « لا . اسكت . يحسن بالاطفال أن يطيعوا اذ يؤمرون » فقال الكاتب « كلا كلا . يحسن بهم أن لا يكونوا سوى الات صماء فى أيدى الآباء لا يفعلون غير ما يريدونهم أن يفعلوا »

هذا نوع من التملك للأطفال لايترك لهم مجالا لينموا ويكبروا . كأنهم ما خلقوا إلا ليسروا عن نفوسنا مللها وتبرمها بالحياة . اما الاطفال أنفسهم فيجب ان لايكون لهم رغائب واهواء يسعون وراءها . ثم ان هناك ضرباً آخر من التملك يفسد على الاطفال حياتهم وينغص عليهم عيشهم . وذلك هو محبة والديهم لهم . وفى الحق ان المحبة التى هى أفضل العواطف الانسانية وأسماها والتى تعتبر بحق من الغايات الكونية القصوى . هذه المحبة تكاد فى حالات كثيرة تنقلب الى حب التملك الذى هو فى آخر مداه نوع من حب النفس . وظاهرة هذا النوع من المحبة تتبين من علاقة الوالدين بأولادهم فى حالات كثيرة

فما دامت الام مثلا ترغب فى تقبيل ولدها دلالة على حبها له يجب ان يكون الولد راغباً فى ذلك أيضاً فى نفس الوقت . ومتى شعرت الام انها تميل الى التعبير عن ذلك الحب بقبلة يجب ان يتقبل الطفل ذلك بنفس رضية متهللة فرحة فى جميع الأوقات . وبالاختصار يصر الوالدون على حب الاطفال والتعبير عن ذلك الحب بالطريقة التى تعجبهم هم بغض النظر عن ميول الطفل فى ذلك الوقت وبغض النظر عن ظرفه الذى يعيش فيه . نحن لانعترض على المحبة الوالدية ولكننا نعترض على زعم الوالدين انه متى شعروا بضرورة شىء أو برغبتهم فيه يتبع ذلك حتما ان يشعر الاطفال مثل هذا الشىء

ثم ان محبة الوالدين للأولاد تكون فى كثير من الحالات أو فى أغلبها عبارة عن عاطفة صرفة ليس للعقل دخل فيها . والعاطفة من غير العقل عمياء وجاهلة ومتقلبة ومندفعة وشديدة الخطر . ولا يستطيع الانسان ان يوجهها وجهة معلومة بل نستطيع ان نقول انها هى التى توجه الانسان الى حيث تريد . فيصير مطية لها تقوده بزمام الى حيث لايمكنه ان يذهب فيها لو كان ينقاد للعقل . ولأن العاطفة قلب فهى لاتستقر على حال وتجدها تتحول من النقيض الى النقيض فى لمح البصر . فبعد ان كانت رقيقة كالنسيم تراها كالبركان ينفجر من هنا ومن هنالك وتصيب ماتصيب ومن تصيب من غير مبالاة أو ترو

ولكم من مرة ترى الأم تسيل رقة وحناناً وعطفاً على وليدها فى وقت ما . ثم تثور عليه متى جن جنونها وتنهال عليه رفصاً ولكزاً . وذلك لأنها تتبع الغريزة والفطرة فقط فى حبها وفى غضبها . فهى تتبع الغريزة والفطرة فقط فى كلتا الحالتين . وليست بمستطيعة ان تفعل غير هذا اذا ما اسلست قيادها كله للعاطفة من دون العقل والفكر . نقول ان هذا النوع من المحبة غريزى غيرمتأثر بحكم العقل والفكر . وهو مدعاة الى الأسف الشديد . وبالطبع لسنا فى حاجة كبيرة الى تبيان مافى هذه الميول من الأخطار على تربية الأولاد الأخلاقية . تقول السيدة تيودور برنى (١) فى هذا الصدد « ينجم عن فكرة ملكية الأطفال كثير من الاخطاء فى تربيتهم .

(1) "Parents and Their Problems,, Vol III P. 119

اما لو تغلبت فكرة الوصاية عليهم على فكرة التملك هذه لأمكن ان ينالوا بعض الاحترام والتقدير الواجبين لهم . ولا ستطاعوا ان يفهموا العدل على وجه أتم وان يتجهزوا لدور الابوة والامومة وحب الوطن . اما فكرة التملك فهى تغدق عليهم العواطف الحسنة حيناً لتنهال عليهم بالعقوبات الشديدة حيناً آخر »

ونستطيع ان نقول ان أغداق العواطف الحسنة حيناً والانهيال بالعقوبات حيناً آخرهما الطريقتان المتبعتان فى مصر فى هذا الزمان . اما القصد والاعتدال فى الاثنين فليس لنا منهما نصيب كبير أو صغير . لسنا نقتصد ونعتدل فى حبنا لاطفالنا أوفى عقابنا لهم على السواء . لسنا نفهم للتوسط معنى . فاما هذا أو ذاك وليس غير

وبينما نحن نتردد فى اتباع الدكتور بنزبون لبير الى آخر شوطه وذلك تبعاً للعرف والعادة أكثر من أى شىء آخر . إلا اننا لا نذهب مذهب كثير من العائلات فى بلادنا فى هذا الامر . اننا نميل لان نعتبر الولد حراً أكثر منه ملكا لوالديه أو ماأشبه ذلك . حقاً ان بلادنا ملأى بأمثال استيفينس الذى كتبت عنه دوروثى كانفيلد فى كتابها The Home Maker. وان أنسى لاأنسى ماقاساه استيفنس هذا من خيبة الامل والتعاسة اللذين نتجا عن حب والدته له وغيرتها على صالحه المزعوم . ومع ان أمثال هذه الام كثير إلا اننا لانستطيع ان نزعم انهن لايحببن أطفالهن رغماً عما يقوم فى أذهان الاطفال أنفسهم أمثال استيفينس واضرابه من التنكر لهذه المحبة

إحاجة الولد لاحترام شخصيته

ان الولد — والبنت أيضاً — فى حاجة ماسة الى احترام شخصيته . فهو حقيق بالاحترام عندما يتكلم وعندما يسكت ، عندما يسأل وعندما يجيب . وحقه فى هذا الاحترام هو كحق البالغين سواء بسواء . قد يكون كلامه غير ذى معنى فى نظرنا وقد تكون أسئلته فارغة . ولكن هذا الكلام وذاك السؤال هما فى نظره شىء مهم أو معضلة عسيرة الفهم . فهو اذ يتكلم يحاول ان ينال حظه من الامور الاجتماعية . وبالتالى يظل يبنى أخلاقه حجراً على حجر . فالضغط عليه وانتهاره فى مثل هـذه الحال لايساعده من هذه الوجهة مطلقاً بل يدفعه الى الفردية المرذولة . أوالى العزلة

التامة عن هذه الدنيا والانكماش الى نفسه فيضيق مستوى خبرته بالجماعة . إما ان يفعل هذا بالذات او يدفعه الانتهار الى الايمان بظلم الحياة وعسفها . وهذا بدوره يدفعه الى التمرد والعصيان . هذا إذا كان الطفل فى الاصل ذا شخصية قوية

ولربما يدفعه الاحتقار والامتهان الى ان يأخذ هذا الامر على انه هو الذى يجب ان يعمل مع الصغار والضعاف . فينتهر بدوره من هم أضعف منه ويحتقرهم ولا يقيم لقولهم وزناً قياساً على مايفعله معه الكبار البالغون . واحتقار الضعفاء والازدراء بهم ليسا من الاخلاق فى شىء . وبخلاف هذا وذاك ألا يدرى الوالدون ان الصغار يشعرون بالاهانة والتحقير عندما يصدمهم الكبار وينتهرونهم قبل ان ينتهوا مما هم فيه ماضون من الحديث ؟ الحق انه ليس فى هـذه المعاملة شىء من الاحترام للصغار . ومع ذلك فلا يزال كثير من العائلات يسلك بازائهم هذا المسلك الخشن كأنه ليس من اللائق بالصغار ان يعبروا عما يجول فى أدمغتهم الصغيرة

ومن الناحية الاخرى ان أسئلة الصغير دليل على تطور قواه العاقلة أو المفكرة فهو يريد ان يرد الاسباب الى مسبباتها أو يكتشف تلك الاسباب اذا لم يكن قد اكتشفها بعد . فاذا لم تكثر أسئلته في هذا الدور فثمة نقص فى تكوينه العقلى يجب البحث عن علته . يجب عرضه على احد أطباء العقول او الأجسام ان كان لايسأل كثيراً عن طبيعة الكون حوله . فاذا ماأخذ يتساءل كما هى عادة الأطفال ، فمن حقه كما انه من الواجب الذى لامفر منه على الاباء ان يجيبوه . يجب ان يكون الأمر كذلك لعدة أسباب . أولا لأن فى اجابته دليلا على احترام شخصيته . وثانياً لأنه يعوده على احترام نفسه واحترام الآخرين . وثالثاً لأن هذا دليل على تفتح ذهنه للظواهر الطبيعية والاجتماعية التى تحيط به

أثر النقود فى التربية الأخلاقية

يجب أيضا توكيد الاحترام للطفل فى الأمور الاقتصادية . فيجب ان يكون للأطفال نقود خاصة يتصرفون فيها بمحض ارادتهم وبدون تدخل من الوالدين . اما السبب فى عدم الأخذ بهـذا المبدأ على مانظن هو اعتقاد الوالدين ان الأولاد لايدرون كيف يتصرفون فى أموالهم . ولانهم لايدرون تراهم يرتكبون اخطاء

كثيرة . ولكن ليس يصح ان يكون هذا الخطأ داعية لخطأ آخر وهو ان يتدخل الآباء من غير مبرر فى شئون الأولاد . لايجوز ذلك لان الكاتب للآن لم يعثر على بالغ لم يخطىء فى مثل هذا الامر . واننا نشعر اننا أخطأنا كثيراً فى التصرف فى أموالنا ولا نزال نخطىء وسوف نخطىء فى المستقبل أيضا

ان التدخل فى مايجب ان يفعله الابناء بأموالهم وفيما لايجب ان يفعلوه لم ينجم فى الواقع إلا عن عدم احترامنا لهم الاحترام الواجب . ليس السبب الظاهرى وهو جهل الاولاد إلا فى الحقيقة ستاراً يغطى الدافع الحقيق وهو ان الكبار لايحترمون شخصيات الصغار . وقد يشعرون بهذا وقد لايشعرون . ولكنه على كل حال هو الاصل فى التدخل فى شئون الاطفال . فتارة يكون هـذا التدخل على سبيل النصيحة . وتارة يكون على سبيل الامر والنهى . فكيف اذن يتدرب الاطفال على الاضطلاع بالمسؤوليات متى كان هذا هو شأن الوالدين معهم فيما يملكون ؟ كيف ننتظر منهم أن يكونوا رجالا اذا كنا نستهين بحكمهم على الاشياء الى هذا الحد ؟ متى يستطيع الولد اذن أن يعد نفسه لتحمل المسئوليات الجسام فى المستقبل إن كنا نحرمه فى صغره من التحكم فى مثل هذه الامور التافهة ؟ هل يظن الوالدون انهم سيخلدون فى هذه الدنيا وسيبقون بجانب الولد حينما يصير رجلا فيحملون عنه ما هو من واجبه أن يحمل من مسئوليات الحياة ؟ فمن حسن السياسة اذن فى التربية الاخلاقية أن يكون للطفل مجال يتصرف فيه من تلقاء نفسه وبارشاد عقله من غير تدخل من أحد . وكل ما يطلب من البيت فى مثل هذه الاحوال أن يساعده على تفهم الحقائق ثم يتركه لنفسه ليدفع ثمن اخطائه ويبتاع الاختبارات بذلك الثمن التافه . أى بالاخطاء التى سيقع فيها حتما . يقول الاستاذ جورج كو (١) « يجب أن يكون لكل فرد من العائلة الديموقراطية مجال للاقدام . ويكون له وحده فى هذا المجال القول الفصل » ويقول ايضا « أن حرمان الاطفال من حرية الارادة هو بمثابة وضعهم فى طبقه اجتماعية خاصة تحت سقف بيوتهم » ويقصد الأستاذ من ذلك أن من يحرمهم من الاستقلال فى ارادتهم يقيم الفواصل الاجتماعية بينهم وبين

(1) Coe. " Social Theory of Religious Education ,, P. 213

البالغين فى العائلة : ويقول الاستاذ ويجال (١) « يجب أن يعامل الاطفال معاملة الاشخاص فى الهيئة الاجتماعية سواء أكانت هذه الجماعة هى العائلة أم الانسانية عامة . يجب أن يفهم أن لهم حقوق وأن عليهم واجبات . وأن حقوقهم تحترم ويجب أن يؤدوا واجباتهم حق ادائها »

يجب أن تكون حريتهم فى التصرف فى أموالهم مظهراً من مظاهر تلك الحقوق فعلى تلك الحرية يتوقف كثير من فهمهم لحقوقهم وحقوق الآخرين . ثم انهم يتبينون واجباتهم من غلطاتهم التى يقعون فيها . فعلى أى الحالات سواء اخطأوا أم اصابوا فى هذا التصرف فانهم يتعلمون فى كلتا الحالتين . يقول ويليام بايرون فوربوش (٢) فى ختام بحثه فى هذه النقطة . « وبالاختصار اننا نعتقد أن الاستعانة بالنقود فى تربية الاطفال هى من أهم العوامل فى تلك التربية . فيجب على كل أب أن يضع نظاماً اقتصاديا لابنه . ويجب أن يكون هذا النظام قابلا للتعديل والتحوير مع نمو الطفل . ثم يجب أن يطبق هذا النظام بالعدل والتسامح ويأخذ به الأب الى أن يشب الابن عن الطوق » ثم ينصح ايضا انه لا يجوز مطلقا معاقبة الابن باستقطاع جزء من مصروفه بحالمن الاحوال . ونحن ايضا نرىرأيه فى هذا الامر

وأكثر من هذا فاننا نرى أن الولد يجب أن يعطى حقه فى الاشتراك فى وضع ميزانية العائلة بأكملها . وبعبارة أخرى ليس من حق الولد فقط أن يتحمل مسئولية التصرف فى ماله بل يجب أن يكون مسئولا أيضاً ولحد محدود عن خير الجماعة التى هو أحد أفرادها . يجب أن يتدرب على الاضطلاع بهذا الواجب الذى سوف يضطر لأن يضطلع به فى المستقبل . وهذا مالانفعلهنحنفى بلادنا بوجه عام قد يكون هذا نظام بعض العائلات المبعثرة هنا وهنالك . ولكننا لانعرف عن هذا النوع شيئاً . أما الغالبية المطلقة فلا تعمل شيئا من هذا . وانما نعرف أن الأب هو المسئول الأول والوحيد أيضا عن التصرف فى موارد العائلة تصرف الحاكم المطلق

ولو أخذت العائلات بهذا النظام لاستطاع الأطفال أن يدركوا بالحس المدى

(1) Weigle "The Trainig of Children in the Christian Family,, P. 181

(2) "Parents and Their Problems,, Vol IV P. 187

الذى تصل اليه طاقة العائلة الاقتصادية . يجب أن يشترك الاولاد فى التشاور فى أمور العائلة المالية حتى يتعرفوا حدود مقدرتها الاقتصادية لأنهم فى معظم الأحوال يظنون لجهلهم بالحقائق أن والديهم قادرون على كل شىء من تلك الوجهة ولكن اذا ماكان لهم حظ الاشتراك فى التصرف فى مال العائلة يستطيعون أن يدركوا الحقائق ولا يعودون يثقلون كاهل أهلهم بالطلبات الغير المستطاعة . ثم من الجهة الأخرى لايتبرمون بوالديهم إذا ما عجزوا عن تحقيق كل رغائبهم أو سد كل حاجياتهم ولا يتسرب الشك عندهم الى ان امتناع الوالدين عن تحقيق تلك الرغائب شىء ارادى أو مقصود لذاته ، او أن الوالدين لايرغبون فى الاستجابة لمطاليب أبنائهم تعسفاً والسلام

ويجب أن تضطرد مسئوليات الأولاد فى هذا الأمر باضطراد نموهم فتزداد أموالهم الخاصة حتى تصير جامعة شاملة لكل مطالبهم فى حدود قدرة العائلة الاقتصادية . وعندما يكبرون يجب أن تكون لهم جميع الحقوق والمسئوليات التى تترتب لهم فى هذه السن . فتطلق لهم الحرية فى ابتياع ملابسهم وضروراتهم وما أشبه ويزداد حظهم من المسئوليات الملقاة على عاتقهم من نحو العائلة كلها وبذا ينمو فيهم الشعور بمسؤليتهم عن خير الآخرين وسعادتهم ويشعرون أن اخطاءهم تصيب الجماعة كلها بالاضرار المختلفة وكذلك يشعرون أن حسن سياستهم وتقديرهم وتدبيرهم كانت سبباً من ضمن الأسباب فى تقدم العائلة فى مجموعها . يجب أن نسهل لهم السبل ليشعروا هذا الشعور ليس عن طريق الوعظ والكلام التى يظهر أنها كل بضاعة الوالدين . وهى قلما تأتى بفائدة . بل خير وسيلة لذلك فيما ندرى هى فى تلقينهم كل هذه الامور بالطرق العملية وعن طريق الخبرة والمران الشخصيين وبالحس وبالاشتراك الفعلى فى هذه الامور الاجتماعية

ويخطىء الوالدون كل الخطأ إذ يظنون أن تجنب الاخطاء والغلطات هو كل ما يجب أن يسعوا وراءه لان مثل هذا المطلب مستحيل النيل . وعلاوة على استحالته من الوجهة العملية فليس مما يساعد فى تربية البنين الاخلاقية تلك التربية التى هى بيت القصيد . لأنه يدخل فى مثل هذه التربية عاملان مهمان الا وهما

الخطأ والصواب وكلا هذين الأمرين عامل بعيد الأثر وضرورى فى التربية الحقة وبانعدام أحدهما تفسد التربيةمن أساسها . ولولا الواحد منهما ماكان الآخر يقول الاستاذ جورج كوCoe فى هذا الصدد «وليس المهمفى الموضوع هو الحصول على النتائج المرضية بسرعة بل المهم هو نماء الشخصيات المستقلة الراغبة فى التعاون فبحرية التصرف فى أمواله الخاصة يضع الولد لبنة فى استقلال شخصيته . وبالاشتراك الفعال فى أمور العائلة الاقتصادية والاجتماعية تتقوى فيه الميول الاجتماعية كالتعاون وغيره

الحقوق والواجبات

يقول هودج (١) « إذا قام البيت على خدمة الولد وعمل له كل شيء فالطفل لايعمل شيئاً ويتوقف نموه أو يتعطل الى أقصى حدودالتعطيل » فيجب أن لانوغل فى تأكيد حقوق الطفل ايغالا يغطى على واجباته أو يحجبها — تلك الواجبات التى يحسن به أن يكون عارفها ومقدرها حق التقدير . ويحسن بنا أيضاً أن لاننسى أن المسؤليات هى التى تخلق الرجال وليست الحقوق والامتيازات

وأكثر من هذا لايحسن بالولد أن يعمل كل الامور لانها تعود عليه بالفائدة الشخصية فقط . أو بنسبة مايناله منها من الفوائد سواء كانت هذه مادية أم معنوية لأن مثل هذه الدوافع فى الواقع منبعثة من غريزة حب الذات . وهذه وان كانت ضرورية فى بعض الاحوال الا أنها لايمكن أن تكون الاساس الوحيد فى بناء الاخلاق . ومتى كانت هذه الدواعى للأخلاق أموراً شخصية فقط كان هذا ضد النظرية الصحيحة للفضائل . فهى تتميزكما قلنا بميولها الاجتماعيةوليست بالذاتية المحضة . يقول ريتشارد مورس هودج (٢) « هل يستند الولد الى شعوره بذاته ام بالجماعة ؟ فالأمر الأول ذاتى والثانى غيرى . الشعور بالذات فوضوى . لأن الفوضوى هو من ينكر حقوق الجماعة على الفرد . فالطفل يدرج على الميول الفوضوية اذا ماغسل يديه لاحترامه لنفسه فقط . أو اذا كان مؤدبا لدوافع ذاتية فقط أو اذا ما كان صادقا أو أمينا أو رحيما لدوافع ذاتية لاغير . وحتى أن عمل كل هذه الأمور لينمى

(1) Parents and Their Problems. ,, Vol. IV P. 238.

(2) "Parents and Their Problems,, Vol IV P. 235—236

اخلاقه هو أو ليذهب الى الجنة عندما يموت . فمتى كانت الدوافع لمثل هذه الامور فردية ذاتية فالولد فوضوى» وفى الحق اذا لم يكن لنظرية الرجوعية Recapitulation من عيب سوى انها تستند الى الفردية وتدعو الى توكيد حب الذات فى الولد لكفى ذلك مبرراً لرفضها من وجهة الفضائل والاخلاق . ولكن لحسن الحظ أن هذه النظرية لم تجد من العلم دعائم ترتكز عليها

ولقد وضح الآن من الدراسات العلمية لطبائع الاطفال انهم يستطيعون أن يسلكوا انفسهم فى سلك الميول الاجتماعية الحسنة والمرغوب فيها كما انهم يستطيعون أن يتشبعوا بالميول الفردية المرذولة . فكلا الامرين ممكنان . ويتوقف نمو ايهما على العوامل والمؤثرات التى تحيط بالانسان فى طفولته . فمن الممكن اذن أن يتعلموا بالاختبار وبالمران وبالحس أن يقوموا بواجباتهم وبكل الخدم المستطاعة لعائلاتهم وبيوتهم . يقول الاستاذ جورج كو [1] فى هذا « ليس من شيء يوقظ فى الولد محبته لوالديه اكثر من تشجيعه على أن يؤدى لهما الخدمات المتنوعة . وليس ما يعمله الابوان لأجله بمستطيع أن يحرك مكان العطف من قلبه نصف ما يعمله هو من أجلهما » ويقول الاستاذ وبجال [2] ايضاً . « يشعر الطفل بالسعادة متى سمح له المربون بأن يتحمل بعض المسئوليات الصغيرة وخصوصاً متى شعر بأن اضطلاعه بها هو فى الواقع خدمة يؤديها للعائلة . . . . . . فالاطفال يحبون كما انهم موضع الحب من الكبار وهم ايضاً يهتمون للآخرين كما انهم يتقبلون الاهتمام منهم » ويقول جورج وولتر فسك . « والتعاون فى تأدية الاعمال المنزلية هو فى الواقع ونفس الامر تحضير للطفل واعداد له ليتعاون مع الجماعة الكبرى »

والخلاصة أن النماء الخلقى يتوقف على ما يعمله الطفل بنفسه وعلى الروح التى بها يعمل . على هذين جميعاً يتوقف نمو الفضائل فيه لأنه بمقدار ما يخدم الجماعة عن شعور صادق وحب لهذه الجماعة ورغبة فى خدمتها — بهذا المقدار عينه تزداد فيه الميول الاجتماعية وتنمو . فليس اذن الوعظ والكلام سوى وسيلة لربط المعانى

(1) Coe. "Social Theory of Religious Education,, Page 128.

(2) Weigle "The Trainig of Children in The Christian Family,, Page 43.

بالافعال وشرح ما يمكن أن يؤدى اليه النشاط . وهما فى هذه الحالة يدخلان فى باب الادراك والفهم. وأما الخلق فهو السلوك وهو النشاط . ولا يستطيع الطفل أن يتحلى بالاخلاق لمجرد فهمها أو ادراكها بل يلزمه أن يمارسها بالفعل ويمارسها برغبة ولذة . وهذا لا يتأتى الا بعد أن يسهل له الكبار السبل ليفعل ويعمل وينشط وبالاختصار فان وضع بعض المسئوليات على عاتق الولد يقوده الى النمو الاخلاقى علاوة على انه يقوى ربط العائلة ويجعلها وحدة شديدة التماسك

والامثلة على ذلك كثيرة نأخذ منها التعاون . فالتعاون اصطلاح ينطبق على كل مظاهر حياة الفرد الاجتماعية من اندماج فى الجماعة والعمل معها والنشاط من اجلها . وهذا باب يصح أن يكون موضوعاً للدرس المستمر وللبحث المستديم فى المدرسة وفى الكلية والجامعة ويجب أن يكون كذلك . ولكنه لو اقتصر على هذا لصار مجرد نظريات يفهمها الطالب ويدركها . ولكن لا يترتب على فهمها وادراكها أن يتعاون الطالب بالفعل مع الجماعة ، ولكى يكون التعاون عنصراً من اخلاق الفرد يجب أن تتاح له الفرصة فى حياته اليومية ليعمل ذلك بالفعل . والفرص لذلك كثيرة فى المدرسة وفى البيت ففى المدرسة مثلا يستطيع الطلبة التعاون فى كل انواع الالعاب الرياضية وفى انشاء النوادى بأنواعها وفى القيام بالمشاريع الاقتصادية البسيطة . وحتى فى العلم والتحصيل يستطيعون أن يتعاونوا فى البحث وراء الحقائق وتوزيع نواحى البحث على أفراد الفرقة حتى يقوم كل منهم بقسطه فى تنوير الجماعة

العقاب والضغط والرغبة

عندما تتكون الجماعة ويخلد افرادها الى العيش بعضهم الى بعض ينتج عن ذلك تضييق على حرية الافراد فلا يعودون قادرين على أن يتصرفوا فى الامور كما يحلو لهم وبمحض ارادتهم فللجماعة حريتها ايضاً . وبالتالى لها حقوق يجب احترامها كما أن للافراد فيها حريتهم التى لا يجب المساس بها . ومتى تعددت الحريات بهذا الشكل ـــ حريات الافراد وحريات الجماعات ـــ فلا بد وأن تتعارض هذه الحريات جميعا فى اكثر من موضع واحد . وعند تعارضها لا يجب حرمان أى طرف منها كل الحرمان

بل على العكس يجب تنظيمها جميعا تنظيما الغرض منه افساح المجال لكل منها الى النهاية التى تسمح بها الظروف بشرط أن لا تجور احداها على الاخرى

ولكن لايغيبن عن الاذهان أن تنظيم الحريات هذا يجب أن يكون موضع تفكير عميق . فكل الحريات المتعارضة هى حريات ايضاً لها ما لغيرها من الاعتبار ، والتعرض لناحية منها هو تعرض لها فى الصميم . فلا يجب تضييقها الا لاعتبارات من الحرية نفسها . فهى وان كانت محبوبة الا أن توزيعها بالعدل أعود على الجماعات والافراد

الضغط والاجبار Coercion

والآن لنبحث فى الطرق التى تستعمل فى منع الأفراد والجماعات من المغالاة فى حرياتهم — تلك المغالاة التى هى فى الواقع ونفس الأمر اساءة فى استعمالها . فالضغط أو الاجبار هو احد هذه الطرق . فيضغط الفرد لكيما يخضع للجماعة مثلا أو يقلدها ويحاكيها . ولكيما يتنازل عن بعض حرياته من أجل الجماعة أو بعض الأفراد . أو بعبارة أخرى يضغط الفرد كيما يتنازل عن جزء من حريته الشخصية . ويجب أن يفهم المعنى المقصود من الضغط فهو اجبار الفرد بالطرق المعنوية على أن يسلك مسلكا أو يأتى أمراً يتعارض مع مايريد

فالضغط أو الاجبار اذن هو حالة من حالات النفس حيث يضطر الفرد لأن يقبل فى الظاهر نوعاً من السلوك يرفضه ويثور ضده فى قرارات نفسه . ويجب أن يلاحظ أيضاً ان لاموضع للرغبة مطلقاً فى مثل هذه الحالات لأنها منعدمة اصلا والا لما لجأ المربى اليه . فليس الضغط اذن تنظيما للحرية ولكنه فى الواقع خنق لها . وهما اذن ضدان لايجتمعان

والأجبار فى حالتنا نحن البالغين شىء عادى نختبره فى كل حركة من حركاتنا فلا تكاد تمر دقيقة من حياتنا من دون أن نضطر لبعض الأمور . حتى وان كان الاضطرار يكادلايشعر به ولكن معظم البالغين عندهم قوة التميز فيخضعون للقوة القاهرة من غير أن تتسمم حياتهم ومن غير أن يلوموا أحداً فى جميع الحالات . لأننا نعرف بالاختبار مدى القوى حوالينا — تلك القوى التى تحول مجرى حياتنا اليومية

و بعض تلك القوى طبيعى ليس لانسان فيه يد . نحن نعلم أن هذا أمر واقعى فنخضع من دون تذمر أو تململ

والأمر بخلاف ذلك مع الأطفال . فالضغط فى نظرهم منسوب الى الافراد — الى الآباء والى الأمهات . ولان خيالهم لم يصل مداه بعد فتراهم يعجزون عن التمييز بين أنواع الاضطرار . لايستطيعون أن يفهموا أن ليس لوالديهم رغبة فى احراجهم لمجرد الاحراج . لايدرون أنه فى طبيعة الوجود لايمكن أن يكون للافراد مايحلو لهم من الحريات . وأن للطبيعة نظاما تسير عليه وتكره الناس للسير عليه فليس للفوضى عندها نصيب . لا يشعر الأطفال بهذا وانما نحن ندرج على الزعم أنهم له عارفون ويجب لذلك أن يخضعوا . نفترض فيهم المعرفة ولا نكلف أنفسنا مشقة الملاينة والاقناع والصبر حتى يرى الأولاد لانفسهم مايجب أن يفعلوه . ومن هذا تنشأ كثير من الصعوبات التى كان من المستطاع تجنبها بقليل من الروية والصبر ومن هذا أيضا يوقر فى اذهان الأطفال أن مجرد الاحراج والاجبار هو مايرغب فيه الوالدون والسلام ويشعرون أن رغباتهم مهملة كل الاهمال فلا وزن لها ولاقيمة . ولنلاحظ أنهم ليسوا فى حاجة إلى الاجبار الا لأن الرغبة منعدمة اصلا من نفوسهم ولانعدامها يتولد فى نفس الطفل كراهية شديدة لمن يرغمه وكراهية أشد للعمل الذى عليه يرغم . والنتيجة لذلك أن الطفل يثور فى قرارات نفسه ويتحين الفرص ليسخر من الفعل نفسه وممن يرغمه على الاتيان به

والولد المضطر لأن يفعل امراً أو لأن يتركه ينسى كل الاعتبارات الأخرى ولا يذكر سوى حقيقة واحدة وهى أنه مضطر وإن الاضطرار آت من اناس كبار بالغين لاحيلة له فى ايقافهم عند حدودهم . ولانهم أكبر منه سنا وأقوى عضلا فهم يحملونه حملا لأن ينزل عند ارادتهم ولأن يفعل مايرغبون فيه هم بغض النظر عما يريده هو

وهذا خطر الاضطرار فقوانين علم النفس أو ما يسمونه بقانون النتيجة The Law of Effect فى هذا العلم ينطبق على هذه الحالة . فينتج من ذلك كراهية للفعل بالذات. لايستطيع الاضطرار أن يوقظ الرغبة . فاذا كان الفعل من مقومات الخلق

انعدم الميل اليه وحب الطفل له . والميل والحب لبعض انواع النشاط هو بالذات ما يجب أن نهتم له من الناحية الاخلاقية . يقول برکسون [1] « أن الاضطرار مضاد لكل شيء ديمقراطي فهو يجعل الانسان تابعاً لارادة خارجة عنه ويعطل من امكانيات الفرد الى اقصى حد ولا يترك مكاناً للشعور بالمسئولية . ذلك الشعور الذى هو بمثابة العامود الفقرى للاخلاق » وعلى هذا نجد انفسنا مضطرين لأن نرفض مبدأ الارغام فى التربية لاننا نجده لايتفق ونظريتنا فى الاخلاق . فاضراره بها اكثر من فوائده . وعلى هذا فاننا نرى انه من المستحسن أن لا يتبع هذا المبدأ الا فى القليل النادر اذا لم يستطع الوالدون أن يتركوه تركا قاطعاً باتاً

يقول الاستاذ ديوى [2] « لما كانت الغايات ابعد من أن يتفهمها التلاميذ يبحث الانسان عن الوسائل التى يضطرهم بها لأن ينتبهوا لتلك الغايات فيحصل على بعض النتائج . ولكن لما كانت رغبات الاطفال وميولهم لم تعبأ لاداء هذه الواجبات تأخذ هذه الرغبات وتلك الميول فى البحث عن مخارج اخرى » ويقصد ديوى بذلك أن واجب الطفل يصبح فى واد ورغائبه وميوله فى واد آخر . وقديماً قال افلاطون أن المعرفة التى يحصل عليها الانسان عن طريق الاجبار لا تمكث فى العقل طويلا

— وبالاختصار اننا لا نجد أن للاضطرار فائدة كبيرة فى التربية الاخلاقية لا بل نرى أن الرغائب والميول تتحول تحت الضغط الى ما من شأنه أن يعطل النمو الاخلاقى والادبى فى الطفل

العقاب

للعقاب مناح كثيرة لا نستطيع بحثها فى هذا المجال فمنها العقاب الانتقامى ومنها التأديبى . وثمة طرق كثيرة له . ومن هذه ما يتناول العقاب البدنى ثم المعنوى ومظهر هذا الاخير الالم النفسانى . ومنها العقاب الاجتماعى ومظهره عدم رضاء الجماعة عن سلوك الفرد

---

(1) Berkson " Theories of Americanization ,, Page 43

(2) Dewey " Democracy and Education ,, Page 209.

والمؤلف يصرح لأول وهلة انه لا يرى للعقاب الانتقامى فائدة ما وخصوصا مع الاطفال فلسنا نقبل النظرية القائلة أن العدل يتطلب العقاب للعقاب نفسه لسنا نحفل بالزعم أن العدل اعمى لانه اذا كان اعمى كما يزعمون فليس لنا به شأن من وجهة التربية ، حقاً أن الطبيعة تنتقم ممن يخطئون . ليس من ينكر هذا ولكن انتقام الطبيعة ليس يترتب فيه حتما أن يكون من عوامل التربية فى كثير من الحالات فلا يجب أن نتبعها مغمضى العيون

فمثلا تحكم الطبيعة على الطفل الذى يلعب بالنار بالهلاك حرقاً فى بعض الحالات فماذا تعلم هذا الطفل المسكين من الطبيعة ؟ وماذا استفاد ؟ وعقاب مثل هذا قد يجوز أن يكون عدلا من وجهة الانسانية عامة ولكنه ليس عدلا للطفل ذاته. فليس على الوالدين اذن أن يأخذوا فعل الطبيعة قضية مسلمة أو يقلدونها تقليداً اعمى . فهى تنفذ قوانينها بغض النظر عما يحدث للافراد بينما يجب على الوالدين أن يهتموا بما يحدث للاولاد بغض النظر عن مصير القوانين لأن القوانين جعلت للانسان ولم يخلق الانسان للقوانين

والفكرة الدينية فى العقاب تبحث فيه من وجهة نظر الآلهة للخطية . وهى بطبيعة الحال قد نشأت من التأمل فى قوانين الطبيعة التى تعاقب من يعتدى عليها عقاباً سريعاً يقول سترونج فى هذا (1) « وليس الغرض من العقاب اصلاح المذنب أو تأمين الجماعة البشرية أو الحكومات على حياتها ورفاهيتها . ولكن غرضه فى الواقع ونفس الامر هو الانتقام للعدل المطلق ولطبيعة بارىء الكون » اليس هذا الزعم فى الواقع انزالا للآلهة الى مصاف القوى الطبيعية العمياء ؟ اليس هو فى آخر الامر عصباً لأعين الآلهة عن أن ترى ما يكتنف الانسان المسكين من العوامل التى لا قبل له بها ؟ وعلى أى حال فان زعماً كهذا لا يأخذ به ارباب التربية الحديثة فى هذا العصر ولا يقيمون له وزنا فى حسابهم . فلو أخذنا بهذه النظرية فى معاملتنا للاطفال لما كان لها معنى سوى أن الاطفال خلقت لتكون لعبة للاقدار وللآلهة يتسلون بها

وبالاختصار فاننا ندعو الى أن يكون العقاب مفيداً ومانعاً وليس للانتقام بوجه

(1) Strong "Systematic Theology,, P. 350.

من الوجوه أو للقصاص فى ذاته . ومتى ظهر للوالدين فى حالة بذاتها انه لخير الطفل أن يترك من دون عقاب على ما اقترف فمن واجب الآباء والمربين الا يعاقبوا أو يقتصوا . ولحسن الحظ أن هذا فى الواقع ما أخذت به محاكم الأحداث فى البلاد المتحضرة

ويحسن بالآباء أن يلاحظوا أنه من المستحسن أن يكون العقاب منفصلا عن شخصياتهم بمعنى أنه يجب أن يحرصوا على أن الاطفال لايجمعون بين فكرة العقاب ووالديهم أو مربيهم ، يحسن فى كل الحالات أن يفهم الطفل أن العقاب خارج عن طوق الوالد أو المربى . وليس يهم فى هذا مايجول بخاطر المربى نفسه بل المهم مايفهمه الولد نفسه إن خطأ أو صوابا . وبعبارة أوضح يجب أن يؤخذ بيد الطفل ليرى بنفسه أن العقاب لم يكن سوى نتيجة طبيعية لتصرفه هو كالحال فى احتراق أصبعه عند ما يضعه فى النار . وليس لأن الاب يفعل ذلك بمحض ارادته ورغبته . أما اذا لم يكن ثمة ما يساعد الطفل على أن يفهم أن العقاب هو النتيجة الطبيعية للتصرف فيحسن أن يترك من غير قصاص بالمرة

العقاب البدنى

لسوء الحظ أن هذا الضرب من العقاب مازال فاشيا فى بلادنا . وقليل جداً هم الذين يفهمون أن لافائدة ترجى من تعذيب أبدان الاطفال بالضرب . وكثيرهم الذين يتبعون هذا النوع من المعاملة كأن هؤلاء يؤمنون أن الاخلاق نتيجة للآلام والخوف أو الرعب والتعذيب البدنى . أوكأن الاخلاق شجرة يجب أن يتعهدها المربى بالفزع فتنمو وتمد أغصانها وتؤتى أكلها . وما دروا أن الخوف فى ذاته آفة من آفات الأخلاق التى تفتك بها فتكا ذريعاً

وكثيرون من مفكرى الأزمان الغابرة يدعون الى مثل هذا الضرب من الفلسفة فسليمان الحكيم دعا اليها كما هو وارد فى التوراة . وأما افلاطون وارسطو فقد لايحجمان عن استخدام الهراوة . ولكن مفكرى العصور الحديثة يترددون كل التردد فى استعمال العصا إن لم يحجموا عن ذلك كل الأحجام [يقول بلوتارك « انى اصرح أنه يجب أن يؤخذ بيد الأطفال بالحسنى حتى يستطيعوا أن يتخلقوا

بالأخلاق الفاضلة . ولكن لا يجب مطلقاً أن يكون ذلك بالضرب والصفع والمعاملة القاسية » ويقول ثورندايك (١) « قد يجوز أن ينتج خير فيما لو ضربت الطفل على يده فى كل مرة يمدها الى أمر غير مرغوب فيه . قد يكون فى مثل هذا التصرف فائدة ولكن مالا يمكن أن يكون منه فائدة ابداً هو أن تضربه لأنه سود كراسته بالمداد . فمثل هذا خشونة وفظاظة » ففى المثل الأول من أمثلة ثورندايك يحصل التداعى بين فكرة الالم والرغبة فى اتيان الأمر المكروه فعندما يشرع الطفل فى ارتكاب المخالفة تنطلق فكرة الالم فى خلايا مخه فى نفس الوقت فيشعر أن لا رغبة له فى هذا العمل . ومثل هذه الحالة هى ما يسميه النفسيون بالأفعال المنعكسة Conditioned Reflex فليس هو إذن داخلا فى باب العقاب وسنبين ذلك فى فصل تال عندما نتكلم عن قانون الارتباط الشرطى The law of Conditioned reflex

وانا نرى رأى ثورندايك وبلوتارك فى العقاب البدنى من أنه أمر ثقيل وانه من الامور الوحشية . ونقصد من العقاب البدنى الضرب خاصة لانه لو كان للطفل من القوة المادية ومن الشجاعة وعزة النفس لما سمح بالعقاب على هذه الطريقة ولما اجترأ أحد على مثل هذا الأمر . فالضارب إذن يثق مقدما بعجز المضروب عن المقاومة ويستهتر به سواء أكان يشعر بذلك أو لا يشعر به . وفى الواقع هذا هو الحاصل بالذات لاننا يندر أن نرى أحدا يعاقب الأقوياء والشجعان من الأولاد بهذا النوع من العقاب . فالأولاد الذين هم فى دور الفتوة والقوة لا يفكر أحد فى ضربهم ليس لأنهم لا يستحقون العقاب مطلقا بل لأنه لا يجرأ أحد حتى والديهم أن يعذبوهم فى أبدانهم وإن خطر هذا لأحد ببال لرد الولد الاعتداء المادى بمثله كما يحصل فى كثير من الحالات . والحال بخلاف ذلك تماما مع الصغار المساكين فلأنهم تنقصهم القوة تراهم معرضين للكم والصفع والضرب تحت ستار التربية والتأديب والتقويم . والحال أن كل مادفع الكبير للضرب ليس شيئاً سوى أنه تملكته سورة من الغضب

(1) Thorndike " Education ,, Page 202.

يقول مارشال (١) « لقد اقتنع علم الأجرام الحديث انضربالآدمى فىالواقع ليس شيئاً سوى اقرار صريح من المربى بفشله وعجزه . فماذا يقال اذن فى اذلال الأطفال وكسر نفوسهم عند مايضربون وبخاصة متى كان الضارب هم الوالدون وليس غيرهم ؟...... فليس يصح عقلا أن رجلا أو امرأة يضرب فى حالة غير حالة الغضب » والاباء الذين يدعون أنهم يتألمون لضرب أولادهم اكثر من آلام الأطفال انفسهم يغالطون انفسهم فى الواقع لأن هذا نوع من خداع النفس Rationalization ليس غير . يقول مارشال فى هذا ايضا «يضرب الناس أطفالهم لأنهم غاضبون ، ويغضبون اما لأنهم عجزوا عن اكتساب ثقة الأطفال وحبهم أو لأنهم لا يهتمون لاكتساب هذه الملكات التى تساعدهم على تربية أولادهم . ولذلك تراهم يتبعون اسهل السهل . والعصا هى مفتاح ذلك السبيل السهل المعبد »

فالأطفال اذن يضربون لأن الآباء مغضبون أو لأن هؤلاء الآباء لا يعلمون ماذا يفعلون سوى أن ينهالوا بالعصى على ظهور أطفالهم ، وبعبارة أوضح تذل نفوس الصغار ويعذبون لسببين اثنين وكلا السببين من اخطاء الوالدين فهم يضربون اما لجهل الاباء أو لقابليتهم للانفعال والاضطراب النفسانى الشديد . يقول ماك كن (٢) « ليست تغرس الاخلاق فى نفوس الأولاد بمبادىء العقاب وقوانينه ...... وعلى هذافيحسن بنا أن نلجأ إلى الوسائل الايجابية فى التربية — تلك الوسائل التى هى اعود الاشياء على التربية والتأديب »

وليس من ينكر أن الآباء يستطيعون أن يحلوا بعض مشاكلهم بعقاب الأطفال ولكن ليس من ينكر ايضاً أن العقابات البدنية لاتعود بفائدة على الأخلاق . ففى آخر الأمر يتضح أن العقاب يحل بعض معضلات الآباء والمربين . وهذه المشاكل هى فى معظم الأحوال كيف يحملون الاطفال على أن يقوموا ببعض الأمور أو يمتنعوا عن البعض الآخر . أما مشاكل الولدنفسه فيتركها العقاب من غير أن يحاول ايجاد حل مرض لها بل فى الحقيقة يزيدها تعقيداً على تعقيد . فبعد ان

(1) "Parents and Their Problems,, Vol. VIII P. 287—288.

(2) Mac Cunn "The Making of Character,, Page 158.

كانت مشكلته أنه يكذب مثلا تصبح الكذب ومحاولة النجاة من العقاب أو الكذب والخوف من والده . والاثنان من النقائص الاخلاقية

ويجب أن لا ينسى الآباء والمربون عند مايهمون بضرب أطفالهم قول هوبهوس الفيلسوف الانجليزى « نحن لا نقتص من المذنبين لأن القصاص عدل بل لأننا فى الواقع نكرههم أو نخشاهم . ثم نحوك من البغضاء والخوف نظاماً من الاراء والافكار تصور لنا أن آلام المذنبين هى نتيجة طبيعية لذنوبهم كأنه ليس للشخصيات أو التحزبات دخل فى الموضوع بالمرة »

الشوق Interest

لقد يسأل سائل ماذا نفعل إذن لما يكذب الطفل أولما يتعود على سرقة بعض الأشياء الصغيرة أو الكبيرة فى البيت ويبددها او إذاكان شديد الأثرة محباً لنفسه قليل الاكتراث للاشياء ومجرداً من الميول الايجابية الاجتماعية ؟ لقد سلمنا جدلا أننا عرفنا مايجب أن لانفعل ولكن لم يذكر لنا المؤلف ماذا يجب أن نفعل . وبعبارة أخرى يريدنا هذا السائل على أن نكون عمليين أكثر مما كنا يرغب فى أننا نترك النظريات قليلا بعد أن أطلنا فى شرحها بعض الاطالة أو بالحرى يريدنا على أن نأخذ ببعض الحالات الخاصة فنبين ما يمكن أن يعمل فيها

ولكن قبل أن نطاوع السائل فيما يذهب اليه يحسن بنا أن ننظر فى مسألة أخرى لأنها وإن كانت نظرية الى حدما فان لها اتصالا مباشراً بالأمور العملية ثم لها من الحيوية والقوة ما يجعلها من العوامل الأساسية فى بناء الاخلاق وهذه القوة هى « الشوق » . وهو أحد الدوافع النفسية الفعالة وعليه ينبنى كثير من أصول علم النفس التجريبى وخصوصا التجارب التى أجراها واطسون السلوكى Behaviorist . والتى يرى برتراند رسل أنها من خير ما توصل اليه علم النفس الحديث من القواعد والنتائج

لقد خطر للاستاذ ليتلتون مدير كلية ايتون سابقاً أن يعقد مقارنة بين التربية التى تستخدم الضغط والارغام وبين تلك التى تستخدم الشوق فقال « نجد أن أحدها إذ تنجح لابد وأن تكون قد استعانت بالأخرى . » ويقصد بذلك ان نجاح الشوق

فى التربية مثلا متوقف على مقدار مايستعيره من الارغام . ويبنى الاستاذ ليتلتون نظريته على الزعم بان الانسان كثيراً مايضطر لان يخنق رغائبه وأشواقه فى سبيل واجبه . ثم يزعم ان هذا ماسيحدث للطفل فى حياته المقبلة ولامفر له منه ان كان ذا أخلاق فاضلة . ويستخلص من ذلك انه لامفر من استعمال الضغط والارغام فى التربية حتى نعد الاطفال لماسيحصل لهم فى مستقبل حياتهم . فالارغام والاجبار فى نظره من مستلزمات التربية الصحيحة حتى يتعود الطفل ان يكبح جماح شهواته عند ما تتعارض مع واجباته

ولكننا نظن ان هذا الزعم لايقوم على أساس من الواقع لأننا لو أنعمنا النظر فيه لوجدنا انه قائم على زعم فاسد هو الآخر من أساسه الا وهو ان الواجب فى جوهره خارج عن دائرة الرغائب والاشواق . ولسنا نأخذ بهذه النظرية أصلا لاننا نعتقد ان الواجب هو فى الواقع فى دائرة الاشواق والرغائب ويمكن المربين ان يجعلوه كذلك من الاصل . فالفتى الذى يؤدى واجبه لايعدو عن ان يكون قد قام بما تفرضه عليه ميوله ورغائبه . وليس حتما ان يكون مضطراً لذلك اضطراراً اما القطيعة والعدوان اللذان قد يحدثان بين الواجب والرغبة هى فى الواقع قطيعة وعدوان بين رغبتين كل منهما تجذب الفرد لناحية معينة .

ولكى نزيد هذه المسألة ايضاحا دعنا نضرب لذلك مثلا . يريد شخص معلوم ان يذهب الى دار التمثيل ليشهد قصة سمع عنها وأخذت تميل نفسه لمشاهدتها . هذه رغبة أو شوق تتطلب العناية والالتفات ولا يسع الفرد الا ان يسعى الى اشباع تلك الرغبة . فيزمع ان يفعل ويجمع أمره على الذهاب . ولكن بينما هو آخذ فى هذا الامر يعترضه واجب يجب ان يؤديه لانه أيضا يتطلب الاداء فى نفس الوقت . فهذه الحالة لاتعدو عن ان تكون ان هذا الانسان يرغب ويشتاق لان يعمل الامرين فى نفس الوقت . فهو يرغب فى ان يذهب الى الاوبرا . وهو يرغب أيضا فى ان يؤدى واجبه

ويحسن بنا عند هذا الحد أن نذكر انفسنا أن الرغبة ليست شيئاً سوى الاستجابة لاحد الدوافع النفسية ، وتعدد الدوافع النفسية ينتج تعدداً فى الرغائب . فما كان

منها أقوى وأشد نفذ وتغلب . وما كان منها أضعف قهر على امره . وليس معنى هذا أن الرغبة المقهورة تذهب من غير أن تترك اثراً لأن قمع الرغبة اياً كانت ليس امراً سهلا ميسوراً . ولكن هذا لا يطعن فى أن اقواها تطغى على اضعفها فاذا كان هذا الانسان ممن تعلموا أن يربطوا بين رغائبهم وواجباتهم فلا بد وأن يذهب لاداء هذا الواجب ويكون فى هذه الحالة قد استجاب لأقوى الرغائب عنده . وعمل الواجب فى حالته لا يعدو أن يكون اجابة لداعى الرغبة التى هى كما قلنا اشباع للدواعى النفسية ، ومن هذا نرى أن الواجب ليس فى الحقيقة ضرباً من الضغط والارغام كما يزعم الاستاذ ليتلتون فيما نقلناه عنه

فالطفل الذى يرغم ضد رغبته على أن يؤدى واجبا يكون فى الواقع عرضة للافساد لأنه فى هذه الحالة يكون القائمون على امره قد دفعوا اشواقه ورغائبه على أن تتحول عن واجبه . أو بعبارة أخرى يكون هؤلاء المربون قد أقاموا سداً منيعاً بين اشواق الطفل وواجباته . ويصير الواجب فى عرفه شراً ليس منه بد ثم انه سوف يركل هذا الواجب بقدمه عندما يشعر باستقلاله عن مربيه والقوامين عليه . وخير ما يعمل فى مثل هذه الحالة هو أن يأخذ المربون انفسهم على أن يساعدوه ليوجه رغائبه وميوله ناحية الواجب وليس فى اتجاه مضاد له . ثم يتعهدون هذه الاشواق بقواعد عـــلم النفس حتى تعتاد خلايا مخه على مقاومة الميول التى تتعارض مع هذا الواجب

وإذن فليس للضغط أو الارغام ما يجعله صالحاً لبناء الاخلاق الا متى كان فى فى امكان الضغط أن يتحول الى رغبة اثناء نشاط الفرد وسعيه . وهذا ليس من المستحيلات . فقد يحمل الطفل على اتيان امر يصير فيما بعد من تلقاء نفسه رغبة كالحال فى تعلم الموسيقى مثلا حيث يضطره ابواه لأن يعزف على البيانو اضطراراً قد يتحول فى المستقبل الى رغبة وشوق للعزف . نقول ليس هذا مستحيلا ولكنه من الامور القليلة الاحتمال فى معظم النواحى الاخرى

وعلى هذا نستطيع أن نقول فى ختام هذا البحث أن نجاح التربية الأخلاقية يتوقف على الأكثار من الدوافع النفسية لها . أى أن الأشواق والرغائب هى من

أفعل العوامل التى يمكن أن نستعديها على النقائص الاخلاقية . وهذا يظهر لنا أنه الصواب والحق من الوجهة النظرية على أقل تقدير

فاذا كانت التربية الاخلاقية هي كما يقول الاستاذ هل Hill « ليست شيئا سوى تكوين الرغائب والأشواق الأدبية » فقد انفتح طريق التأديب والتربية أمام الوالدين . وقانون علم النفس الذى استخلصه ثورندايك هو من خير القوانين التى تستطيع أن تؤلب كل قوى النفس ضد النقائص الاخلاقية . وهذا القانون يعرف فى علم النفس بقانون « المران اللذيذ » Practice with Satisfaction ومحصله أن كل مران ينتج لذة للكائن الحى من طبعه أن يميل الى الاعادة والتكرار مادام لايجد مقاوماً من البيئة أو من طبيعة الكائن ذاته . وينتج من ذلك أن خير فلسفة للأخلاق هى ما تأسست على الرغبة وليست على الارغام . ويجب أن لايغيب عن بال المربين أن الغرض من التربية ليس حمل الصغار على اتيان أمور بذاتها . بل هو فى الواقع خلق بعض الميول والرغائب التى تجعل الطفل يميل لأن يفعل هذه الأمور من تلقاء نفسه . ونستطيع أن نقول اذن أن الرغبة او الشوق هو من الزم العوامل لبناء الأخلاق

مسائل عمليـة

الكذب

والآن لنعد الى الأمور العملية ان كان مافات ليس عملياً محضاً . ولنحاول أن نطبق مافات على حوادث معينة بذاتها لنرى هل منها عائدة على الأخلاق وهل لها اتصال بحياة الأطفال اليومية أم هى مجرد محاولات منطقية لاتمت للواقع بصلة ولنأخذ الكذب مثلا

ماهو الكذب ؟ هذا هو السؤال الذى يجب ان نستهل به بحثنا لانه على مقدار فهمنا لهذه المسألة يتوقف كثير من صلاح الطرق التى نأخذ بها من عدمه . فان كان الكذب هو الاختلاف بين حقائق الامور فى ذاتها (موضوعيا objectively) وبين وصفنا لها فكلنا يكذب ولا حيلة لنا فى الكذب . والعلم أيضا يكذب ولن يزال يكذب الى ماشاء الله والفلسفة هى الاخرى تكذب ان لم تكن فى الواقع أكثر امعاناً فيه من العلوم

ولـكننا نعني بالـكذب عادة محاولة اظهار الامور على غير حقيقتها . أو بعبارة أخرى هو ان يقصد الانسان ان يعطى صورة مغلوطة عن بعض الوقائع وهو يعلم فى نفس الوقت ان تلك الصورة فى الحقيقة مغلوطة . هـذا هو مايقصده العرف فى تحديد معنى الـكذب . وعلى أى حال فايضاح الفرق بين الـكذب المقصود والغير مقصود ينفعنا فى حالتنا هذه . لان كثيرين من الآباء والمربين لايكلفون أنفسهم مشقة التفريق بين هذين النوعين . ففى رأى أغلبهم ان الولد يكذب فى كل حالة لايتفق قوله فيها مع الحقائق كما يراها غيره أو كما يرونها هم على التخصيص . فهم لايحاولون النظر الى بواطن الامور . وكل اختـلاف مع الواقع هو فى نظرهم كذب

يجب على الآباء والمربين بداءة ذى بدء ان يفرقوا بين الجهل بالامور والـكذب فقد يجوز ان يكون قول الطفل منطبقا على الحق من وجهة نظره حتى وان كان مغايراً للواقع من وجهة نظر الآخرين . وفى مثل هذه الحالة يكون الطفل صادقا فيما يقول لانه ماهو الحق والصدق ان لم يكن علاقة الآراء بالاشياء فى نظر انسان معين ؟ وعلاقة الشيء بالفكرة هو أيضا من حق الطفل يتصرف فيه الى حد محدود وتبعا لمداركه وقدرته على النفاذ الى ماتحت الظواهر فاذا أصر الآباء والمربون على ان لايسمعوا سوى الصدق والحق فليتطلبوا الصدق والحق من أناس آخرين غير الأطفال فليذهبوا الى الفلاسفة لهـذا الغرض مثلا . واننا نشك فى مقدرة هؤلاء أيضا على اظهار الحقيقة كما هى

ثم على الآباء أيضا ان يفرقوا بين الخيال والـكذب الصراح . فالانسان فى دور الطفولة ليس أبعد منه عن الموضوعية . فالدنيا حواليه هى جزء منه . وليس يستطيع ان يميز بين الاشياء المحيطة به وبين شعوره الداخلى . فلم تتعين الحدود بين الحقيقة والخيال فى هذا الدور وكلا الحقيقة والخيـال فى قرارة نفسه شيء واحد . يقول أوجدون (١) « هنالك من الأسباب مايحمل على الظن أن الطفل فى الصغر يعجز عن التمييز بين الادراك والتخيل لأنه لم يقم الحدود بينهما بعد كما هى الحال

(1) Ogden " The Meaning of Psycholgy,, Page 134.

مع الكبار . وهذا التمييز بين الواقع والخيال هو أحد الفروق بين دنيا الأطفال ودنيا البالغين » وعلى هذا فالخيال أو الشعور الداخلى فى نظر الطفل هو حقيقة مستقلة منفصلة عنه . ووصفه لذلك الخيال هو غاية مايصل اليه فى محاولته أن يصف الأمور وصفاً موضوعياً . يقول جرونبرج (١) « يستحيل على الطفل أن يميز بين ماندعوه حقيقة وبين الخيال قبل أن يصل الى الخامسة من عمره . فالى أن تتأكد أنه يستطيع التمييز بين هذين الأمرين لاتعلق اهمية أدبية على قصصه ورواياته » ومع ذلك فكثير من الآباء يجعلون أطفالهم مسئولين أخلاقياً عن تلك القصص والروايات

فيظهر من هذا أنه فى كثير من الأحيان وخصوصاً فى عهد الطفولة لايصح للآباء والمربين أن يتطلبوا من أبنائهم أن يكونوا صادقين فى جميع الأحوال . ليس يحسن بهم أن يخلطوا بين الادراك والاخلاق ، بين الفضائل والذكاء . تقول مارى وود الين (٢) « ليس الصدق عاطفة ، وليس هو غريزة أدبية ، بل هو فى الواقع مجهود عقلى لادراك الأشياء على حقيقتها ، ومجهود آخر للتعبير الدقيق عن هذا الادراك »

ومع ذلك ففى حالات الكذب الصراح لا يجب أن يتعنت الآباء مع أطفالهم فى أمر هم أنفسهم فيه مذنبون . فاذا كنا نكذب بالايمان والشمائل ، ونكذب فى الأمور التافهة بحكم العرف ، فكيف يسوغ لنا أن نحرم على الأولاد ما نحلل لأنفسنا . ليست هذه دعوة الى التسامح مع الاطفال فى الكذب ، ولا نقصد بها تشجيعهم فى هذا بل كل مانرمى اليه هو الحملة على الكذب فى أصله ، الى مهاجمته فى الكبار البالغين قبل الصغار اليافعين . والمقصود من كل هذا هو تحريمه على الكبار بداءة ذى بدء . واصلاح الجماعة قبل اصلاح الطفل . وتنقية البيئة التى نطلب اليه أن يعيش فيها ويبزها فى الأخلاق

أما الدكتور هادفيلد فيذهب الى أكثر من هذا . فهو يزعم أنه يجب على الصبي

(1) Parents and Their Problems ,, Vol IV P. 161
(2) ,, ,, ,, ,, ,, III P. 115

فى بعض الحالات الا يقول الحق أى أنه ليس فقط يحل له ذلك بل يحسن به أن لا يقول الصدق فى مثل تلك الأحوال . ويذهب هادفيلد فى منطقه الى أن الصبى فى بعض أطوار حياته يأخذ نفسه بالمران على الأخلاص للجماعة التى ينتمى اليها وللشلة التى هو أحد أفرادها . فاذا حمل على قول الصدق حتى ما يمس رفاقه منه ، فقد أوذى فى ملكاته الاجتماعية . فيسهل عليه فى مستقبل حياته أن يخون رفاقه وعائلته ووطنه لدوافع ذاتية . ثم يقول هاد فيلد « ينتج من ذلك أن لكل طور من أطوار الحياة معايير خاصة للآداب والأخلاق ... فيحسن بالصبى فى الرابعة عشرة من عمره أن يمتنع عن قول الحق من أن يخون رفاقه واخوانه ... لأن الصبى الذى يتسلل من صفوف شلته فى الثالثة عشرة من عمره يخون مبدأه ووطنه بنذالة فى مستقبل حياته »

ونحن نرى مالهذا الزعم من الصواب . فلخير للصبى أن يسكت عن الحق من أن يخون رفاقه . هذا مقبول . ولكن هذه الوجهة السلبية من الحق توشك أن تكون ايجابياً للكذب فبينها وبين الكذب الصراح خطوة قصيرة . وما أسهل على الطفل حينئذ أن يخطوها فيكون من الكاذبين .

وعلى أى حال لقد فات هذه المدرسة أن الصبى فى مثل هذه السن مطلوب منه أيضاً أن يروض نفسه على الأخلاص للحق وللمبادىء وليس فقط للرفاق والأخدان فكما أنه عرضة لخيانة الجماعة اذا هو عرضها للملام بقول الصدق ، فهو أيضاً عرضة لأن يخون المبادىء والأخلاق اذا هو لم يشتد فى التمسك بها . ثم أن المؤلف لايفهم فيما يتعارض هذان النوعان من الاخلاص فى أى وقت من الأوقات وهل الاخلاص شيئان وحقيقتان أم شىء واحد وحقيقة واحدة ؟ ثم فيما الخلط بين التسلل والصدق ؟ هل من مستلزمات الصدق أن يهرب الانسان مما تتعرض له جماعته ؟

ومن الجهة الاخرى يحسن بالآباء أن لايرتبكوا لمثل هذه الامور التافهة كثيراً . كأن يكذب الولد أو يمتنع عن قول الصدق . ولست أقصد بالامر التافه الكذب فى ذاته . فالكذب أمر عظيم . وانما نقصد بذلك فشل الصبى فى بعض

اطوار حياته لأن يأخذ نفسه اخذاً مطلقاً بقول الصدق . فالتفاهة هنا تنصب على عجز الولد وليس على الكذب . ومحصل القول فى هذه النقطة أن الأكاذيب المتقطعة التى يمارسها الأطفال أحياناً ليس من شأنها أو لايجب أن يكون من شأنها أن تحزن الوالدين الحزن كله أو تربكهم على غير طائل . فكل ما يحتاج اليه الصبى للتغلب على هذا الظرف هو قليل من الادراك والفهم وكثير من العطف والعون وليس أفعل من الصبر والاناة والحكمة فى اقتلاع هذه النقيصة من جذورها . ويحسن بالمربين ان لاينسوا ان العجز والفشل الذى ينتاب الاطفال هو من مستلزمات الطبيعة البشرية ومن ميزاتها أيضاً . وبالعجز والفشل ، وبالمداومة على التغلب عليهما وصلت الانسانية الى ماوصلت اليه . وبهما معاً ستصل الى ماهو مقدر لها فى عالم الغيب

بعد هـذه المقدمة فى ماهية الكذب نبحث قليلا فى الدوافع له . قد يكذب الصبى للخوف أو للفائدة التى تعود عليه منه سواء أكانت هذه الفائدة مادية أم معنوية . ويذهب الدكتور بنزيون ليبير فى هذا مذهباً متطرفا . فهو يزعم ان ليس للكذب سوى احد سببين اثنين لاثالث لهما . فاما انه يكذب لشىء يعود عليه منه أو يظن انه يعود عليه . أو يكذب خوفا من أمر كان يكون عقاباً أو ماهو فى مثل العقاب . وعلى هذا فمتى انتفى ربح الصبى من الكذب فهو يكذب للخوف . ومتى انتفى الاثنان فلن يكذب مطلقاً . ولا يستطيع ليبير ان يفهم كيف يختار الصبى الكذب اذا تساوى فى نتائجه المقدرة مع الصدق . متى تساوى الامران فليس يعقل ان يجنح الصبى للكذب

وفى الحق ان المؤلف يرى فى هذا المذهب كثيراً من الحق والصواب والمنطق . وعلى أقل تقدير ان مثل هذا الزعم أقرب للفهم والمنطق من مذهب ستانلى هول واخوانه الرجوعيين Recapitulationists الذين يزعمون ان الكذب سنة التطور وهو لازمة من لوازم بعض أطوار الانسانية فى نشوئها

ومحصل نظرية الرجوعيين بالاختصار هو ان الصبى يمثل فى حياته الادوار التى مرت فيها الانسانية . فكما ان هذه قد مرت فى تاريخ نشوئها بأدوار مختلفة من رجل الغاب الذى يسكن على الاشجار ويكمن لفريسته ويضربها بحجر ويأكلها من

غير طهى . الى انسان الكهوف الذى لم يكن يختلف عن الضوارى فى شىء فهو ينشب اظفاره فى الحيوانات الاخرى . الى دور الرعاة الذين كانوا يخلدون الى سوائمهم يعلفونها ويسمنونها للذبح . الى دور الزراعة حيث استكن الناس الى الارض يفلحونها ويأكلون من ثمارها فكانوا وادعين هادئين . الى دور المدنية هذه التى نعيش فيها الآن . ومن حيث ان الانسان قد مر بكل هذه الاطوار . فهكذا نجد ان طبيعة الوجود تستلزم من الصبى ان يأتى عليه وقت فى طفولته فيعيد ذلك التاريخ فى نشاطه وسلوكه . فيكمن ويقفز . ويختبىء ويظهر . ويكذب ويحتال ويغش ويخدع . كما فعل أسلافنا من عهد ان تميز الانسان عن الحيوانات . ولقد قوى هذا الزعم عند الرجوعيين ماخالوه من ان الجنين فى بطن أمه يعيد أو يحكى تاريخ تطور جسم الانسان . من نبات الى سمك . الى زواحف وطير . الى حيوانات فقرية وثديية الى ان يصير انساناً فى ظرف تسعة شهور

ثم يمعن الرجوعيون فى هذا الزعم إمعاناً شديداً . فيدعوا المربين لأن يتركوا الاطفال يكذبون ويغشون ويخدعون حتى ينفقوا هذا الرأسمال الذى لابد وأن ينفق إما فى الصغر حيث لاضرر منه ولا ضرار . أو فى طور الرجولة حيث تكون اخطاره على المجتمع عظيمة . وكان من رأيهم أنه لايجب أن تكبت هذه الميول أو تقمع لأن ذلك يقتل نمو الفضائل فى الطفل . كما أن قمع أى طور من أطوار حياته فى بطن أمه يودى بحياته . ثم انه كان من رأيهم أيضاً أنه يجب أن لا يعاقب الطفل على الكذب لانه فى طبيعة الاشياء ان الاطفال يكذبون . ولا يجب أن يعاقبوا على السرقة أو الدناءة والسفالة لانه لابد وأن يكذبوا ويسرقوا ويتسفلوا ويتدنوا إن لم يكن عاجلا فآجلا . فلماذا لانتركهم وشأنهم فى الحال لنأمن خطر تلك الشرور فى المستقبل ؟

ولكن لحسن حظ الاطفال أن نظرية الرجوعيين هذه لم تجد ما يدعمها من وقائع العلم ومشاهداته فذهبت وشيكا وكفانا الله شرها. فانى لا أخال نظرية أعود على الجماعة البشرية بالضرر من تلك . خصوصاً فيما يختص منها بالفضائل والاخلاق وان كانت نتائجها المادية أو العلمية ليس يترتب عليه شىء كثير فى حياة الانسان . فلسنا إذن نرى للرجوعية حقاً فيما تزعمه أو تذهب اليه فى باب الفضائل والاخلاق .

أما زعم الدكتور ليبير من أن الخوف أو الفائدة هما أس الكذب فاننا نميل إلى تصديقه . والحق اننا لانحجم عن أن نذهب مع ليبير إلى أكثر من منتصف الطريق

فاذا كان للصبي ان يخشى فى الحقيقة أو فى الخيال من عواقب أفعاله فهو قمين بأن يتجنب الصدق. ولمعالجة هـذا يجب ان يكون للصبى من التأكيدات العملية وليست اللفظية أو الكلامية فقط مايجعله ان يوقن ان مصيره فى يد احباب يعطفون عليـه ويسعون وراء خيره . وليس فى يد قضاة أو منفذين للعقابات ومقتصين للذنوب . يجب ان يستقرىء من تاريخ حياته العملية أن اخطاءه ليست مما يدارى عن والديه ، وليست مما يتخذ سبباً لارهابه وارعابه . بل هى من الامور التى تستدعى الاصلاح فى كثير من العطف والحدب والحب . وانها مما تحل بالممارسة بينه وبين والديه . وليست مما يستدعى المحاكمة ونصب الموازين ، تقول الاوتلوك فى احدى افتتاحياتها « ان ثقة الاطفال بوالديهم هى المفتاح الذى يفتح مغاليق نفوسهم لأولئك الوالدين »

حدث مرة أن طفلين احدهما فى السادسة والآخر فى السابعة من عمرهما غابا عن منزليهما غيبة طويلة لم يعتاداها فيما سبق . فسبب ذلك لعائلتيهما كثيراً من القلق والحزن والنواح . وحدث ان المؤلف كان من شهود تلك الحادثة . فرأى عجبا عند عودة الطفلين . رأى أن عاطفة الامومة فى إحدى الحالتين انقلبت الى عاطفة فظة غليظة . انقلبت الى غضب ونقمة . واما فى الحالة الاخرى فقد اخذ العقل بقيادها . واستخدمها فيما يعود على الصبى والعائلة جميعاً

فعند رجوع الولدين سألت احدى الوالدتين ابنها عن سبب غيابه فكذب وانتحل المبررات لنفسه . وزعم انه لم يبعد عن البيت بعيداً وعلى هذا فتناولته أمه بالعقاب البدنى . ففى الظاهر كان عقابه للكذب الذى اقترفه . هكذا كانت العلة الظاهرة للأم عندما انهالت عليه . فلم تكن تدرى لذلك سبباً من قرارات نفسها غفلت عنه ولم تستطع ان تستقصيه الى آخر حدود الاستقصاء . اما السبب الحقيقى الباطنى الذى خفى عليها والذى لم تكن تدرى بوجوده فهو ميلها النفسانى للانتقام من ابنها على ما حملها من القلق والبكاء . وبعبارة اخرى وفى آخر الامر نرى ان هذه الام اطلقت لعواطفها العنان وصرفتها فى ايلام ابنها . فاراحت نفسها وسرى عنها

وبمعنى آخر لقد حلت تلك الام معضلتها على حساب ولدها .تلك المعضلة التى نجمت عن طول احتباس العواطف فى صدرها . فهى فعلت مافعلت لتريح نفسها فى الواقع ونفس الامر

واما الصبى الثانى فكان حظه خيرا من هذا . لأنه عندما علمت الام بأوبته سالماً كفكفت دموعها وتكلفت التظاهر بمظهر طبيعى . ولم تنس انتهش لابنها كعادتها معه . ويحسن بنا فى هذه الحالة ان نورد الحوار الذى دار بين تلك الام وولدها من غير شرح كثير لانه لايحتاج الى الشرح . دخل الولد متهللا . وبادر امه من دون أن تسأله فقال . « أمى انا الآن عائد من البلدة الفلانية (وهى قرية تبعدعن بلدته بمسيرة ساعتين أو ثلاث)

فاجابت الام بحرارة قائلة « حسنا جداً يابنى . والله إنك رجل صغير . ويحق لامك ان تفخر بك . هل سررت من تلك النزهة الجميلة ؟ »

« أى نعم ياأمى . سررت السرور كله . »

« هذا يسرنى أيضاً يابنى . فليس احب الىمن انتستمتع بالحياة الى آخر حدود الاستمتاع . أما من جهتى انا يابنى فقد كان يومى هذا يوماً عصيباً »

فاقترب الابن الى أمه الى ان لاصق خده خدها وسأل فى عطف كثير « ولم ذلك يا اماه »

ويلاحظ القارىء هنا ان هذا بالضبط هو غرض الحوار كما رسمته الأم . وان هذه هى النقطة التى سددت اليها الحديث من أوله . وعلى هذا اجابت

« لأنى لم اكن أدرى اين مستقرك . وهل عرض لك مكروه فى يومك هذا . فقلبي يابنى يقلق ويكتئب اذا ما غبت عنى من دون ان اعرف الى أين انت ذاهب . وعلى هذا فقد انشغلت لأجلك طول يومى »

فما كان من الولد الا ان قال « انى آسف كل الأسف يا اماه. حقاً لقد فاتنى هذا الأمر ولم اتنبه اليه . وهذه غلطتى ياامى . وانى اعدك وعداً صادقاً ان لا أذهب الى أى مكان بعيد قبل ان اطلعك مقدماً على نواياى »

ليس يخفى ان طريقة كهذه توفر على الوالدين كثيراً من المشاق والمتاعب. واهم من ذلك فانها اعود على اخلاق الأولاد ونفسياتهم من جميع ماعداها من الطرق

ولـكنها تحتاج الى قوة فى ضبط النفس . ومن من الوالدين يستطيع ان يتحكم فى شعوره وعواطفه كتحكم تلك الأم ؟ وفى الحق لست أفهم كيف يتعرض صبى كهذا وأمه كما رأينا الى نقائص الكذب

الخيانة Dishonesty

الخيانة كالـكذب فى عهد الطفولة من وجهة انها مسألة ذكاء وادراك وليست مسألة أدبية . وعلى هذا فـكثير مايخطىء المربون اذ يعتبرونها مسألة اخلاقية ففى هذا الدور يتخيل الطفل ان كل شىء ملك له . وما عليه الا ان يمدد يده ويستحوذ عليه . تقول مارى هارمون ويكس « يلزمنا مجهود فـكرى كبير لكى نعلم ان الأمانة من ضرورات الاجتماع ومطالبيه » وحتى فى بعض الحالات معنا نحن البالغين يصعب علينا ان نميز بين الخيانة والأمانة من الوجهة المنطقية او العقلية . فـكثير مايكون النزاع بين أمانتين . كما ان الحق وسطا بين حقين . وكثير مانضل الطريق لتشعب المسالك أمامنا فى مثل هذه القضايا العقلية والأدبية

فالأمانة من وجهتها العقلية هى مسألة يجب ان نساعد الأطفال على فهمها حق الفهم . وقبل ان يوقن الوالدون ان المعضلة ليست فى المستوى العقلى والفـكرى لايحسن بهم ان يعالجوها على انها مسألة اخلاقية . فليس اضر على الاطفال فى معاملتهم من الخلط بين الأمور العقلية والأمور الادبية . فما يعجزون عنه من ناحية العقل يحتاجون فيه الى الشرح والتفهيم وما يقصرون فيه من الوجهة الاخلاقية يحتاجون فيه الى المران والممارسة وليس الى الشدة او الغلظة

ومن الجهة الاخلاقية ليس ينتج ان يزعم المربون ان الوعظ والنصح والكلام هى كل مايطلب اليهم ان يفعلوه . ويؤسفنا ان نرى ان الكلام او العقاب يكادان ان يكونا السبيلين الوحيدين فى التربية والأخلاق عندنا . وفيما عدا ذلك يكاد الوالدون ان لا يجدوا الى الأخلاق سبيلا . والحال انه يجب ان يفهم الصبى من خبرته الشخصية ان الأمانة من مستلزمات الجماعة، يجب له ان يتعلم بالمران والخبرة ان حقوقه مقدسة . وان الحال كذلك مع ماهو من حق الآخرين . ففى الاسرة التى يكون فيها الصبى قد شب على ان حقوقه مصونة لايعتدى عليها أحد . واختبر

هذا بالفعل فى سلوك الآخرين بازاء حقوقه يصعب عليه جداً ان تسول له نفسه فيمدد يده لما ليس له فيه حق . وخصوصاً اذا كانت كل حاجياته مقضية فى حدود العقل والمنطق

حدث ان وجد الصبي الذى روينا قصته فيما سبق قطعة من ذات القرشين فى الطريق . فتناول القطعة وقلبها وردها الى مكانها من الشارع ومضى الى سبيله . وبعد فترة طويلة من الزمن كان يروى الحادثة لأمه فسألته عما اذا كان احضرها فقال « كلا . كيف آخذها ياأمي وهي ليست ملكا لى . لا لقد تركتها فى موضعها » فكان حوار لذيذ بين الأم وولدها انتهى على ان فهم الصبي ان الواجب كان يقضى بأخذها ووضعها فى مكان امين حتى ترد لصاحبها عند ظهوره . وفعلا رجع الصبي ووجدها فى مكانها وأخذها . وبعد ساعات وجد صاحبها فردها اليه من تلقاء نفسه

لقد لمحنا فيما سبق انه من حق الاطفال أن يحصلوا على كل مايرغبون فيه متى كان ذلك فى حدود العقل والمنطق ومتى كان مستطاعاً للعائلة من كل الوجوه وليس ثمة ضرر منه يعود على الصبي . وانا نعلم أن مثل هذا الرأي يستجلب كثيراً من النقد . ولكن المؤلف يصرح انه ثائر على التقييدات الكثيرة التي يحوط بها الوالدون أولادهم فيما يجدى ومالا يجدى . فلست تزور عائلة من غير أن ترى تلك القيود الكثيرة التى تحد من حركة الطفل ونشاطه لغير سبب ظاهر . فتارة يوبخ لانه مد يده لهذا الشيء . وأخرى ينتهر لان نفسه حدثته أن يتناول ذلك الشيء تقليباً وفحصاً . وأخرى لانه هم بشيء آخر . الحق أن مثل هذه الاوامر والنواهى تتخطى حدودها فى معظم الحالات وتدفع الطفل على أن يصل إلى أغراضه فى غفلة من مربيه أو القوامين عليه . علاوة على أن مثل هذا المسلك يترك فى نفسه أثاراً نفسية غير مرغوب فيها من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية . فتشتد فيه الرغبة. وتلحف عليه التجربة إلى درجة يعود معها عاجزاً عن المقاومة والامتناع فيسقط ويتكرر سقوطه حيث لم يكن ثمة داع لكل هذه التجارب القاسية

ولذلك فاننا نذهب إلى أن للطفل أن يحصل على ما يريده بشرط أن يكون ذلك فى حدود العقل والحكمة . فاذا تبين للوالدين بعد إمعان الروية والتفكير العميق أنه

لايجب أن يستجاب له فليكن ذلك قاطعا مانعا . ثم أهم من ذلك يجب أن نشرح له الاسباب شرحاً مستفيضا مدعماً ببراهين يقبلها عقله وتسعها مداركه ويتقبلها طائعاً مختاراً . ثم علاوة على ذلك يجب أن يجنبوه للتجربة القاسية التى ليس له بها قبل . أو بعبارة أخرى يجب أن يحموه من نفسه فلا يخلون بينه وبين تلك النفس

اننا لاننكر أن مثل هذا المسلك شاق ويتطلب كثيراً من الزمن والتضحيات . ولكن ماقيمة الزمن والتضحيات إن لم يبذلا فى تغيير الدنيا من أساساتها ؟ فالرغبات قوية قاهرة وتستلزم من الوالدين إرادة وصبراً أقوى ليحولوها إلى ماينفع الصبى ويعود على أخلاقه . يقول الاستاذ ديوى « من طبيعة الرغبات انها قوية وملحفة . ومتى وقفت فى سبيلها رغبات الآخرين ومطاليبهم اندفعت إلى أعماق النفس لتسير فى مسارب خفية مستترة . . . . . . وينتج من ذلك أحد أمرين . أما الثورة العلنية . أو التحايل على خداع الآخرين » وهذا فى الواقع مايدعونا الى أن نطلب إلى الوالدين أن يكونوا معقولين فى أوامرهم ونواهيهم . لا بل قد نطلب اليهم أن يكونوا متسامحين قليلا فى النواهى والاوامر على السواء

غريزة الخوف

يقول الاستاذ واطسون السلوكى (Behaviorist) « قيل ان الأطفال يخشون الظلام بالغريزة . ومع اننا نتحرز جداً فى رأينا هذا الذى سوف نرتأيه فى هذه الغريزة الا اننا نقول اننا لم نستطع ان نصل فى أبحاثنا الى مايدعم هذا الرأى فعند ما تظهر مثل هذه العوارض على الاطفال نميل الى القول ان أسبابها بعيدة عن ان تكون فطرية . يجب ان ننظر الى ظهور الخوف فى الطفل على انه مكتسب بفعل قانون الارتباط الشرطى »

وفى كتابه الذى ظهر بعد هذا يجزم واطسون ويقطع ان الخوف اكتسابى وليس طبيعياً أو فطرياً

واما نحن فلسنا فى مركز يسمح لنا ان نزعم ان الخوف غريزة . وذلك لأننا نميل فى الواقع الى مذهب السلوكيين فى هذا الامر . فالخوف فى نظرنا اكتسابى بفعل قوانين النفس . ولكن كثيرين من علماء النفس يزعمون بخلاف ذلك . وعلى

أى حال ليس هذا مكان البحث فى هذا الموضوع الذى هو من اختصاص كتب علم النفس . ويكفى ان نقول هنا ان واطسون اجرى كثيراً من التجارب على الأطفال فلم يجد اثراً يدل على ان الخوف غريزى وأما من الوجهة العملية فيحسن بالوالدين والمربين ان يدرجوا على الزعم انه اكتسابى . وان ليس من طبيعة الطفل العادى ان يخاف امراً . او على أقل تقدير انه يجب عليه وينتظر منه ان لا يخاف شيئاً . « فليس للكائن الانسانى نوع طبيعى معلوم من الخوف » كما يقول دورسيه

فلو فعل الوالدون هكذا لاغنوا انفسهم عن كثير من الاتعاب التى لاطائل تحتها ولوفروا على اطفالهم كثيرا من النقائص الأخلاقية التى تنجم عن الخوف وفى الحق لقد وجد المؤلف فى مشاهداته ان الوالدين فى أغلب الاحيان يأخذون عن غير قصد منهم بالطبع ان يغرسوا جراثيم الخوف فى نفوس اطفالهم . ولما تكبر تلك الجرثومة وتتحكم فى مصير الأطفال ينزعج الآباء لها ويصيحون قائلين « هاكم الطبيعة وهاكم آثارها . من منا يستطيع للطبيعة دفعاً ؟ ان الخوف غريزة كامنة فى نفوس اطفالنا . ونحن نعجز عن ان نجد لها دواء » ولايدرى هؤلاء ان الخوف فى الواقع من غرس أيديهم فى معظم الحالات . وانهم هم دون الطبيعة مسئولون عن وجوده فى نفوس الاطفال . ينسون ان سببه فى الوسط والبيئة وليس فى الفطرة والطبيعة . فاذ نطلب الى الوالدين ان يقاوموا الخوف ، لانطلب اليهم ان يقاوموا الطبيعة . بل بالحرى ان يهذبوا البيئة ويغيروا من عناصرها مايغرس الخوف فى الأطفال

والبيت هو البيئة التى تنمو فيها جراثيم الخوف . ونقصد بالبيت فى هذه الحالة كل ما يلابس الطفل فى حياته الأولى ويتصل به من انسان وحيوان واشياء . فالخوف من الظلام مثلا ليس شيئاً فى طبيعته من نحوها . وما هو الا اتجاه فكرى جديد نحو الظلام . ولا بد وان يكون قد اكتسب هذا الاتجاه فى طور من أطوار حياته وهذه الاتجاهات الفكرية هى مما يحدد العلاقات بين الفرد وما يخشاه او مايخافه

حدث مرة ان مربية قالت لطفل له من العمر عامان وكانت تقوم على رعايته « اف للظلمة المخيفة ... ظلام موحش » فما كان من الطفل الا انه انتفض والتصق بها وقال ... « عتمة وحشة » واكتشف والده بالصدفة هذا الاتجاه الجديد فى شعوره

نحو الظلام ويقول الاب — وقد كان من المطلعين على أصول التربية الحديثة — انه صرف عشر ليال فى مجهود مستمر لانتزاع ذلك الاتجاه الجديد فى شعور ولده . فكان يأخذه كل ليلة الى قاعة مظلمة ويكرر على مسامعه القول « ظلام مريح للعين ظلام لطيف . ظلام بديع » ثم يعطى لابنه فى نفس الوقت بعضاً من الحلوى وهكذا استخدم ذلك الاب قوانين علم النفس فى مقاومة الخوف . ولقد نجح فى ذلك نجاحاً تاماً

ألمحنا فيما سبق إلى إمكانية التحكم فى البيئة . وهذا بالطبع ممكن إلى حد كبير . إلا أنه توجد أمور خارجة عن طوق المربين وهى فى نفس الوقت تسدد مجرى حياة الاطفال فى كثير من الاحيان . ومن هذه العوامل الاصوات فى الشوارع وخصوصاً متى كانت مزعجة وباغتة . ثم الايحاء من الآخرين خصوصاً متى كانوا أكبر من الطفل . أو وقوع حادثة مرعبة أو مؤلمة للطفل . كل هذه من العوامل التى تتحكم فى نفسية الاطفال إلى مدى بعيد الغور . وكل هذه بالطبع يصعب على الوالدين والمربين التحكم فيها وتوجيهها إلى وجهة معلومة قبل حدوثها . وهذه كما قلنا من الامور التى تبث الخوف فى نفوس الاولاد

فاذا ما تركت جرثومة الخوف لنفسها نمت وتأصلت وصارت عادة اوخاصية من خواص الشخصية الملازمة لها فى كل اطوار الحياة ولكن لحسن الحظ استطاع علم النفس ان يكتشف علاجاً ناجعاً لكل هذه الحالات بشرط ان يكون القائم بامر هذا العلاج على شىء كثير من الفطنة والذكاء وله من الذوق السليم والصبر والاناة ما يعاونه على معالجة هذه الحالات بتطبيق القانون السالف الذكر . وبه قد عالج بافلوف الروسى بعض الحيوانات . وواطسون بعض الاطفال فكان له من الاثر والنتائج ما وضعه فى صف القوانين الطبيعية

وعلى ذكر واطسون نقول انه استطاع ان يوجد الخوف فى نفوس الاطفال من الظلام والاصوات المزعجة وبعض الحيوانات وما أشبه . ثم استطاع فى نفس الوقت ان ينتزع جرثومة هذا الخوف انتزاعا فلم يعد لها اثر يدل عليها . يقول دورسيه فى هذا الصدد « يمكننا اقتلاع الخوف تدريجيا بفعل قانون الارتباط الشرطى وابدال عادات الخوف من الاشخاص والاشياء بعادات اخرى لاشأن لها بالخوف »

لسنا ننوى ان نضع برنامجاً مفصلا للآباء والمربين فى هذا الامر او فى هذا المكان . وانما نقول انمثل هذا البرنامج واضح ظاهر . وكل مايلزم له هو قليل من الصبر والاناة والدراية والذوقالسليم للتغلب علىالخوف . وقد شاهد المؤلفشخصياً نجاح بعض الوالدين فى هذا الامر. وعلى كل حال نظن انه يحسن بالآباء من مبدأ الامر ان يحرصوا على ان لا تكون ثمة فرصة للخوف لينغرس . واما ان ظهرت عوارضه فعليهم انلا يئدوه او يكبتوه . لان وأده اصل لكثير من الامراض العصبية والخلقية بليجب معالجته فىوضح النهار. وليس يصح تجاهله او انكاره بحال من الاحوال

من شأن التهديد ان ينتج الخوف . بل نكاد نجزم ان ليس له سوى هذه النتيجة وان غرض المربى عندما يلجأ اليه هو ان يخيف الطفل من نتائج سلوكه . وعلى هذا فالتهديد اصلا ليس من عوامل بناء الاخلاق . ولا نعدو الصواب اذ نقول انه من عوامل هدمها . لاننا نرى انه اصل الخوف . والخوف كما بينا من اعدى عداة المبادىء . فيجب والحالة هذه ان نبين للطفل النتائج المحتملة لتصرفه من غير انيحمله بالخوف او بالتهديد على تركها . من حق الصبي ان يرى لنفسه لماذا يطالب بتركهذا وبفعل ذاك. ويجب أنيترك ما يتركه ويعمل ما يعملهبدواع اخرى غير هذا . كأن تكون هذه الدواعى حبه للجماعة التى يعيش فيها ومعاونته لها فى مهام حياتها . فمتى اخطأ تنتهز هذه الفرصة لتقويم اخلاقه وليس لتخويفه وايلامه . وفى كلا الحالين . فى الخطأ والصواب يلزم ان يكون الغرض من معالجة الصبي ترقية اخلاقه وليس شيئا آخر

الاثرة

محبة الذات أو التجرد من الصفات الاجتماعية من الامور التى اعتبرها كثيرون من علماء النفس غريزية أو طبيعية موروثة . ثم ان بعضهم اعتبر أن الخصائص الاجتماعية للانسان من الامور المكتسبة التى يجب غرسها فى نفسه بالتربية والتعليم

وقد يكون هذا حقاً وصدقا إلا انهحق وصدق أيضاً ان للطفل من الخصائص

الاجتماعية الطبيعية ماله من الغرائز الفردية فان كان أحدهما فطريا فالآخر كذلك.

وعلى أى حال فلهذه المسائل أيضاً وجهها العقلى الظاهر . فالطفل محب لنفسه ليس لانه لايهتم للآخرين من الاصل بل لانه لايدرى لهم وجوداً . فحاجاتهم ورغائبهم ليست مفهومة لديه ، ولا يشعر بها . فالكون كله فى عرف الطفل يدور حول نفسه . وليس ذلك لانه محب لنفسه بل لان تلك النفس من وجهة نظره هى كل ما فى الكون . فهو الكون . والكون هو . وليس بين الاثنين من فارق. فاهتمام الفرد إذن متوقف إلى حد كبير على مقدار معلوماته ومعارفه . ونلاحظ ذلك فى الفلاح الغير متعلم . فان اهتمامه يضيق أفقه جداً إلى أن يكاد يكون أثرة وفردية متعنتة ذلك ليس لان طبيعته تتطلب منه هذا الامر . بل لانه لايعلم ولا يدرى عن الدنيا كثيراً

يأتى على الاطفال وقت فيه تكون كل الشخصيات الاخرى بعيدة عن متناول اختباراتهم الشخصية . وكلما تقوت أفهامهم وارتقت حاسياتهم ومشاعرهم كلما هم صاروا أقدر على التخلق بالميول الاجتماعية . وصارت عقولهم غيرية فى تفكيرها واتجاهاتها . بشرط أن يكون ما أختبروه فى الحياة مما يساعد على هذه الميول . يقول الاستاذ وايجال « ان ضئولة اختبارات الطفل بالنسبة للكبار تجعله يعجز أكثر منهم عن أن يعرف حاجيات الغير ورغائبهم وعن أن يراها بعين خياله . . . . وللاطفال أيضاً من الغرائز والميول ما يدفعهم إلى فعل الامور التى تنفع الآخرين بغض النظر عن فائدتها لهم »

اذن فما كان من الخبرة والمران من نوع معلوم فهو مما يساعد الاطفال على تكوين الميول الاجتماعية . فاذا خبر الطفل فى عائلته هذه الميول . واذا وجد ان لابيه وامه من الخصائص الغيرية قدر بارز فاغلب الظن انه يقلدهما ويسمح لتلك الميول بعينها ان تنغرس فيه بدورها ثم اذا ايقن بحب والديه له واذا اكتشف استعدادهما لخدمته وأكثر من ذلك اذا سمح له ان يضطلع ببعض المسئوليات الصغيرة فى سبيل عائلته فالانسان يعجز والحق يقال عن ان يرى كيف لا يكون مثل هذا الطفل اجتماعياً فى ميوله . نقول انه اذا كان له من الغرائز والميول الاجتماعية الفطرية ما لكل مولود آدمى كما يؤكد علماء النفس . واذا كانت تلك الغرائز والميول

تجد متسعاً لها فى البيت لتنصرف الى نشاط ومران وخبرة ، واذا كانت نتيجة ذلك النشاط الاجتماعى ليست مؤلمة للطفل ، نقول انه متى توافرت كل هذه الشروط فلسنا نرى هناك مجالا له ليصير فردياً محباً لنفسه

وفى التربية الاجتماعية للاطفال يجب ان يشعروا ان لمسؤلياتهم نحو العائلة اثراً فى تقدمها ورفاهتها . فليس افعل فى مثل هذه التربية من الشعور بفائدة ما يؤديه الفرد للجماعة من الخدمات والمسئوليات . ومن حيث ان المربين أخذوا فى هذا العصر يؤكدون حقوق الطفل وحسنا يفعلون . فيحسن بنا ان لاننسى أهمية الدور الذى تلعبه الواجبات أيضاً يجب ان نفعل هذا ولا نهمل تلك . ويحسن بنا ان نذكر انفسنا ان المسئوليات وليست الحقوق هى التى تخلق الرجال . أظن انه ليس من المتعذر ان نجعل الصبى يعرف بالخبرة والمران ان « ليس لاى انسان حق فى الحصول على جميع حقوقه » كما قال فليبس بروكس . ولقد قال ريتشارد مورس هودج ان « اخلاق الفرد هى نتيجة مباشرة لمجهوداته فى خدمة عائلته »

النمو العقلى للطفل

تميل التجارب التى اجريت لاختبار الذكاء الى ان تدل على ان معدله فى الفرد هو معدل ذكاء صبى فى الرابعة عشرة الى السادسة عشرة من عمره . او بمعنى آخر ان ذكاء ملايين الناس هذه لايعدو فى معظم الاحيان ذكاء صبى فى السادسة عشرة من عمره وهناك حقيقة أخرى اتفق عليها علماء النفس : وهى ان المعلومات والمعارف هى جزء من الذكاء بمعنى انك اذا اردت ان تختبر ذكاء انسان معين فعليك ان تختبره فى معارفه ومعلوماته العامة

فاذا كان هذان الأمران صحيحين — ونحن نميل الى الأخذ بهما — فمسئولية الوالدين فى تطور ذكاء اطفالهم جسيمة ، مسئوليتهم جسيمة لأنهم اولا يورثون الاطفال استعداداتهم الطبيعية للذكاء . وثانياً لأنهم يتعهدون هذا الذكاء بالمعالجة لينمو ويشتد وخصوصاً متى افترضنا ان الصبى يقضى فى احضان عائلته الثمانية عشرة سنة الاولى من سنى حياته او مايقرب من ذلك . فالوالدون اذن يعطون اطفالهم ذلك الذكاء عن طريق التوارث الطبيعى ، ثم هم ايضاً يتعهدون ذلك

الميراث الى ان يبلغ اقصى مبلغه . اذن فالعائلة هي التي تصطنع الصبي . نحن لا ننكر فعل العوامل الأخرى ، ولكن الأسرة هي أهم تلك العوامل على الاطلاق . وعلى هذا فيحسن بالوالدين ان يهتموا الاهتمام كله للحقائق التي تصل الى الأطفال ، يجب ان يروا لأنفسهم ان تكون تلك المعلومات والحقائق من النوع المطلوب ، وان تكون بالقدر الكافى

للاطفال نهمة للحقائق والمعلومات لاتشبع ، فهم يريدون ان يعرفوا كل شيء . ولهم عذرهم فى ذلك لان لا خبرة لهم سابقة بالدنيا وما فيها . وهم حين يسألون لاعهد لهم بما عنه يسألون . وقد يكون هذا أول عهدهم بالاتصال بالاشياء والحوادث حواليهم . والاشياء والحوادث تربك عقولهم وتحيرها ، لان كل شيء يجبهم لاول مرة هو لغز معمى عليهم لا يدرون له حلا . فمن واجب الوالدين فى مثل هذه الحالات ان يسدوا نهمتهم لتعرف الاشياء ، فالمعرفة هي غذاء عقولهم ومن دونها تجدب عقولهم وتقفر

فمن وجهة التطور الطبيعي ليس للسلف من وظيفة سوى تدريب الخلف واطلاعه على ميراث النوع . ثم يمر ذلك السلف من الوجود . وهذا هو الواقع مع بعض الحيوانات الدنيا . فانها تقوم بهذه المأمورية حرفياً ثم تختفي من الوجود . أى انها تنتج صغارها ثم تموت ، فكأن ليس لها غاية من الحياة سوى اعداد جيل آخر لحفظ النوع . فهي تبلغ رسالة الوجود ثم تذهب لحال سبيلها

ومن الامثلة على ذلك ثعابين البحر . فهي تسافر مئآت من الاميال فى الانهار لتصل الى البحر . وهنالك تضع بيضها ثم تموت . ومنها أيضا سمك سليمان الذى يسافر بالعكس ، اى من البحر الى الانهار ، هنالك يضع بيضه أيضا ثم يموت

فنكاد نقول ان ليس لهذين النوعين من الاحياء من عمل سوى ايداع بيضها فى البيئة الملائمة ، ثم تزول من عالم الوجود . اما فى حالتنا نحن الآدميين فالطبيعة تتركنا قليلا ، لان مسئولياتنا لا تنتهي بالتوالد فقط كما هي الحال مع انواع كثيرة من الاحياء . فنحن لنا ميراث اجتماعي . ويظهر ان الطبيعة تريدنا على ان نتركه لأولادنا .

قد يظهر ان هذا ضرب من الايمان بالفلسفة المادية التى لا نؤمن بها . ولكن هذا هو الواقع الى حد محدود

ومع كل ذلك يفشل الاباء فى بلادنا فشلا مريعاً فى الاضطلاع بهذه الواجبات . فهم يتركون اولادهم يهلكون من الوجهة العقلية . واظهر برهان على هذا الترك ضئولة المعلومات الجنسية عند اولادنا . فهم لايدرون شيئاً عن خصائصهم الجنسية . ولكن يحسن بنا ان نترك هذا الامر الآن لنعود اليه فى فصل مستقل . اما من وجهة المعلومات العامة فقد اهمل الوالدون فى تدريب عقول اولادهم اهمالا يوشك ان يكون طامة عليهم . فكثير منهم يتبرمون بأسئلة ابنائهم ويتضايقون . كأن للاطفال معيناً آخر يستقون منه تلك المعلومات . الحق انه لمحزن جداً ان نرى ان كثيرين من الاطفال يتركون لمحض الخيال للتكهن بطبيعة الاشياء التى يتصلون بها اول اتصال . وكثيراً مايكونون اراء ونظريات فى الظواهر والحوادث ابعد ما تكون عن حقيقة الاشياء وذلك لأن تبرم الوالدين بهم قد وقف حاجزاً بينهم و بين تلك الحقائق

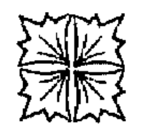
يكاد الانسان فى الواقع ان يجزم انه ليس احوج للفطنة والذكاء ولتعهدهما من بعض الوالدين انفسهم . ويكاد الانسان ان يلمس السبب الذى دفع روبنسون لان يقول فى كتابه انه لاخلاص لعالمنا هذا من غير تعهد لذكاء الناس عامة . وفى الحق اننا فى حالتنا الراهنة هذه — فى القيام على شئون أطفالنا العقلية — لسنا أحوج الى شيء أكثر من حاجتنا الى الذكاء ، أو على أقل تقدير الى الذوق السليم

الوجهة السلبية للاخلاق

فى المجهودات التى يبذلها الآباء فى تعهد أخلاق أطفالهم يحسن بهم ان لايتكئوا جداً على وجهتها السلبية . أى ان تكون الدوافع للاخلاق سلبية محضة . فمثلا لايحسن بهم اذ يطلبون الى أطفالهم ان يقولوا الصدق ان يطلبوا اليهم ذلك لان الكذب رديء فقط . أو ان يكونوا أمناء فى معاملاتهم لان الخيانة بغيضة . أو ان يكونوا شجعان لأن الجبن رذيلة . أو يكونوا اجتماعيين لان الفردية مرذولة فقط لايصح للآباء ان يحضوا ابنائهم على الفضيلة فى مجموعها لأن الرذيلة شر فقط . نقول ذلك ونحن نعلم ان هذا حق لامرية فيه . نحن نوقن ان الرذيلة شر وان الفضيلة خير ولسنا نتردد فى ذلك . وانما

ما ندعو أليه هوانه لايجب ان يكون الدافع على الفضيلة ليس شيئاً سوى قبح الرذيلة . يجب ان لا يكون قبح الرذيلة هوالعامل الاولى والاساسى الذى يدفعنا الى التمسك بالفضيلة بل يجب ان يكون جمال الفضيلة نفسها هو العامل الاول والمهم فى تمسك الناس بها

يجب ان يتعلم الاطفال ان الصدق والامانة والميول الاجتماعية هى خير لذاتها بغض النظر عن قبح اضدادها . يجب ان يرغب الاطفال فى هذه الفضائل لذواتها وليس لان ما عداها شر . وبعبارة اخرى يجب ان تكون الدواعى للفضيلة ايجابية فيكون الدافع لناعلى التمسك بالحق حبنا للحق ذاته وليست كراهيتنا للكذب . ولقد قال سبينوزا فى كتابه عن الاخلاق ان اى شيء يستطيع الانسان تركه لانه ردىء يستطيع ان يتركه ايضا لأن شيئا آخر افضل منه . او بمعنى آخر . اذا كنا نستطيع ان نناى بجانبنا عن الرذيلة لانها شر نستطيع ان نعمل نفس الامر لأن الفضيلة خير قال وليام جيمس فى هذا الصدد . « ان من يبنى حياته على كلمة (لا) ومن يقول الحق لأن الكذب شر . ومن يظل فى صراع مستمر مع ميوله الوضيعة لهو ادنى حالا ومركزاً منه فيما لو تملكته محبة الحق والشرف بطريقة موجبة . وفيما لو حلقت نفسه فوق التجارب المتنوعة »



الفصـــل الرابع

التربية الجنسية

ان معرفة الامور الجنسية والميول الحسنة المعقولة نحوها من الامور الضرورية فى بناء الأخلاق . ونحن لانستطيع ان نزعم ان كل ما يلزم للفضيلة هو تلك المعرفة والميول فقط اذ ان هذا تعسف لامبرر له . فالفضيلة ليست قاصرة على الامور الجنسية فحسب بل تتعدى تلك الى مناحى الحياة المختلفة من شخصية واجتماعية . وليس ينتج حتما انه متى كان للانسان ميول حسنة ودراية ومعرفة بطبيعته ان يكون ذلك الأنسان فاضلا . فقد يعقل ان يتوافر له كل ذلك ومع هذا يكون ابعد عن الفضيلة ممن عداه الذين ليس لهم تلك المعرفة وهذه الميول . ومع ان هذا حق لامرية فيه الا ان للمسألة وجهاً آخر يجب ان لا نغفله من حسابنا . وذلك انه يكفى للرذيلة ان يتوافر لها الجهل بالامور الجنسية والميول الرديئة نحوها . يكفى الانسان ليصير شريراً وممعنا فى الشر ان تكون ميوله ملتوية غير مستقيمة فى علائقه الجنسية وان يجهل حق بدنه عليه فى تلك الأمور . لابل نذهب الى ان الرذيلة لايلزمها الا الجهل بالامور الجنسية والميول الرديئة نحوها . وانه لو تجرد الفرد من هذه الميول الحسنة فهو قمين بأن يكون من اتباع الرذيلة . وابعد ما يكون عن الاخلاق والفضيلة

والحق ان من اظهر اخطاء العائلات فى بلادنا هو فشلها المريع فى تربية الاطفال تربية جنسية صالحة . لانه ليس لمثل هذا النوع من التربية مكان فى البيت او فى المدرسة على الاطلاق . ففى كلا هذين المعهدين اغفلنا هذه المسألة من حسابنا كل الاغفال اذ لم يصل الى علمى شىء عن حالة واحدة سواء فى البيوت او فى المدارس حيث عالج المربون والآباء هذه المسألة فى وضح النهار مع اطفالهم . لست انكر انى سمعت بعض المحاضرات هنا وهنالك عن هذا الامر . ولكن المحاضرات فى جوهرها تلقى فى هذا الموضوع بالذات على من لا يحتاجونها كل الحاجة . وعلى هذا نستطيع ان

نؤكد ان كل ما يحصل عليه الصبي في هذا الصدد هو في جميع الحالات من طريق غير مباشر . والمعرفة التي يحصل عليها الصبي عن هذا الطريق تكون في كثير من الحالات مغلوطة ومتحيزة وخطرة وليست تساعد في بناء اخلاقه

معرفة الامور الجنسية امر محتم

يستحيل على الوالدين ان يمنعوا مثل هذه المعرفة عن ان تصل الى اطفالهم مهما حاولوا واجهدوا عقولهم في الاحتياط والتكتم. ولن يصلوا الى اغراضهم هذه الا اذا اقاموا سدودا لا منفذ منها بين اولادهم وكل انواع الحياة الاجتماعية من اتصال بالمعاهد وبالافراد . ثم يلزمهم ايضاً اذا اصروا على هذه الحيلولة ان يحتاطوا لأولادهم حتى لا يبلغوا سن المراهقة . هذا ما يلزم الوالدين ان يفعلوه اذا مارغبوا في ان يبقوا اولادهم في جهل تام بالمسائل الجنسية . يلزمهم ان يمنعوا الاختلاط بين اطفالهم واى انسان في الوجود منعاً باتاً . ثم يلزمهم ايضاً ان يحولوا بينهم وبين نموهم الطبيعي الى سن المراهقة . وهذان الشرطان متعذران بطبيعة الحال . وحتى ان لم يكونا كذلك فليس من المرغوب فيهما اذا كان من الممكن توافرهما

طريقة المعرفة

ليس من شك اذن في ان الولد سيعرف عن الامور الجنسية مايريد ان يعرف هذا امر مفروغ منه . وليس في امكان اى كائن ان يقف في طريقه للحصول على هذه المعرفة . فمتى تقرر هذا لا يبقى امامنا اذن سوى التحكم في كيفية وصول تلك المعرفة الى الصبي. ولن يستطيع الوالدون شيئا سوى توجيه تلك المعرفة الى الوجهة التي يريدونها . يستطيع الوالدون ان يتخيروا الطريقة التي بها يعرف الاطفال خصائصهم الطبيعية . وذلك بأن يسبقوا الحوادث ويسلحوا اطفالهم بالحقائق الثابتة النافعة . فيقيمون سداً محكماً بين الصبي وبين ما يقال في الشوارع والازقة بين الرفاق والخلان . اما اذا آثروا السكوت والتجاهل فقد تركوهم معرضين لكل رأى فج وفكرة مغلوطة وخرافة جامحة فتتسرب الى اذهانهم البريئة وتفعل فعلها حيث لا يقوى المربون على مقاومتها او التغلب على اضرارها

ولا يحسن بالآباء أن ينسوا أن المعرفة بتلك الامور في ذاتها ليست مما يضر

بالصبي . وانما ما يضر به حقاً وما يفسد عليه فضائله ليس شيئاً سوى الكيفية أو الوسيلة التي بها يحصل على تلك المعرفة . وحتى على فرض أن المعرفة فى ذاتها تضربه حتما فماذا ترى الوالدين يفعلون ؟ اذ انه من المقرر انه ليس فى امكانهم أن يحولوا بين الاولاد والعلم بالامور الجنسية . فيحسن بالآباء اذن أن يسعوا ليتحكموا فى الطرائق التى بها يصل أولادهم الى العلم بتلك الامور ، تقول هيلين مريك(١) فى هذا الصدد « لا يتوقف انماء الميول الايجابية على المعرفة فى ذاتها فقط بل على الوسيلة التى بها يتم الحصول على هذه المعرفة »

لقد روى احد اساتذة جامعة ييل هذه الحادثة للمؤلف . كان لهذا الاستاذ ولدان . وكان قد اطلع ا كبرهما على خصائصه الجنسية وافهمه معنى التطورات الطبيعية التى ستحدث له . فيوماً من الايام دخل الصبى الاكبر على ابيه فى قاعة المطالعة وقال « يا أبى لا بد وأن تطلع اخى الاصغر على كل ما اطلعتنى عليه من خصائص الصبى الجنسية » ولما سأله أبوه لماذا يتحتم ذلك قال الصبى « لقد سمعت اخى الصغير واحد رفاقه يتحدثان بهذه الامور . وكل ما قاله هذا الرفيق لاخى خطأ ومغاير جداً لما اخبرتنى به انت . فاسرع حالا واشرح الامر لاخى قبل أن يتسمم فكره وتفسد ميوله من هذه الوجهة »

يظهر أن الآباء فى بلادنا قد تواضعوا على ان يتركوا اطفالهم ليعرفوا مايريدون معرفته وبالطرق التى يريدونها ايضاً . فهم يعبسون لاى اشارة من هذا القبيل فى البيوت . ثم يغمضون عيونهم عما يجرى بين الأولاد وبين انفسهم . وعما يحدث لهم من هذا القبيل فى الشوارع وفى غير الشوارع . ويظهر أيضا ان ما يهتم له الآباء هو الامور التافهة ليس غير . كتكسير الاوعية . وكالطاعة التى هى من الدرجات السفلى من الفضائل كما يقول(صورز) . اوككثير من الفضائل العرفية التى هى فى الواقع ليست من الفضائل فى شيء

التربية الجنسية فى المدارس

ولو اتجهنا بانظارنا الى المدارس لما وجدنا ان حالها تختلف فى كثير عن حال البيوت

(1) " Intelligent Parenthood " Page 153

لقد أخذت المدارس فى الولايات المتحدة الامريكية توجه جهودها هذه الناحية أما نحن فى مصر فلم يخطر لنا على بال ان لمثل هذه الأمور وجوداً . فالمدارس ليست فى الواقع تقوم على تربية الاطفال بل هى لاتعدو عن ان تحشو ادمغتهم ببعض الحقائق والوقائع التى لاتمت للامور الاجتماعية بصلة . وخصوصاً من جهة العلم بالامور الجنسية فهى فى هذا الشأن لاتحاول ان تقود الجماعة إلى ما يصلح من شأنها اخلاقياً . ونستطيع ان نقول ان المدارس عندنا تتبع العرف فيما يريد العرف ان يقودها . وبرامج التعليم عندنا تستمد مادتها من الامور النظرية فى دائرة العقل ومن العرف فى دائرة الأخلاق والفضائل . فما تقول به الجماعة وما توافق عليه الجماهير ذلك تفعله المدارس وتعلمه . وما عدا ذلك فهى كالجماهير سواء بسواء فى انها قليلة الالتفات للامور الحيوية. اوكما يقول ليتلتون «كما الجماعة كذلك المدرسة »

ولسنا فى حاجة الى ذكاء خارق للعادة لنعرف ما ترضى به الجماهير . فما على الانسان الا ان يسير لغير غاية فى الشوارع ليرى ويسمع ماتؤمن به الجماهير . فهى تقدس القديم وتعبده . ولا تسمح لفرد ان يند عنه او يشذ . وتقاوم كل جديد على انه بدعة او من فعل الجن والشياطين . فالفرد فى رأى الجماهير يجب ان يلبس هكذا ويتحدث كذلك ويؤمىء بهذه الطريقة ويشير بتلك ويقابل الناس بالشكل الفلانى هذا هو كل ماتدعو اليه الجماهير أما ماكان من السلوك يمس الآداب حقاً ويتصل بالفضيلة اشد اتصال فهى تغمض عنه العين وتتركه لشأنه كأنه لايعنيها فنحن درجنا على ان نترك الأمور الحيوية جانباً ونستمسك بالتافه من السلوك والنشاط . يقول صمويل بطلر « ما يزال الانسان مستعدا لان يبحث الأمور بالنسبة العكسية لاهميتها فما نشعر به منها كل الشعور وما كان منها أقرب الى قرارات عواطفنا ونفوسنا . ذلك بالذات مايدعى العقلاء منا ان لا وجود له البتة وذلك مايعبسون له وما ينهونه عن ان يتحدث الينا بشىء . وذلك بالذات ما يزعمون انه فرغ من أمره من أمد طويل وان لاقول فيه يقال بعد ذلك »

وعلى هذا الأساس . من حيث ان علماء النفس قد تواضعوا على ان الغريزة الجنسية هى من أهم الغرائز ان لم تكن اهمها جميعاً . نقول انه من حيث ان هذه الغريزة

كبيرة الأهمية فنحن ابعد مانكون عن الرغبة فى درسها و بحثها باى وجه من الوجوه . يقول دورسيه «الحق ان الأصل فى هذا الخبط و الخلط هو فى الواقع ذلك التناقض الذى ينتهى بنا الى الطهرية Puritanism فالزواج وضع سماوى واله الحب اله طاهر قدوس . وأما الجنسية فهى دنسة وكوبيد حيوان قذر »

ان الانسان ليتذكر فى هذا المجال تهكمات هربرت سبنسر لستين سنة خلت حيث قال انه لو حفظت كتبنا و برامجنا المدرسية التى نتعلمها الآن الى أجيال قادمة لظن الخلف ان مثل هذه الكتب والبرامج انما وضعت للمتنعين عن الزواج حقاً ان هذا هو الحال مع برامجنا فى القرن العشرين فى هذه البلاد لأنه يظهر لنا انه لم يخطر ببال من وضوعها ان الصبيان سيتزوجون يوماً من الايام

الغريزة التناسلية

لقد اتكأ فرويد ومدرسته جداً على الغريزة الجنسية . يقول هاد فيلد « لقد جعل اطباء النفس او علماء التحليل النفسانى (Psychoanalysts) على طريقة فرويد كل الاهمية لتلك الغريزة . فهم يمطونها مطاً يشمل كل انواع الشهوات . حقاً ان هذه الغريزة فى عرفهم تنسحب على كل ما تشتهيه النفس . ان لم تنسحب على الحياة فى مجموعها . ولكن مع ان الفرويديين قد غالوا كثيراً فيها الا انه يحسن بنا ان لا ننسى ان الغريزة الجنسية هى وظيفة الطبيعة الاساسى . كما ان التناسل هو غايتها العظمى » وعلى كل حال فمدرسة فرويد تجد مظاهر تلك الغريزة فى كل نشاط الحياة . فى العقل وفى الواعية وفى العقل الباطن وفى جميع الامراض الاخلاقية والعصبية . وكما يقول دورسيه « لايكاد فرويد يفرغ من امره قبل ان تكون الحياة فى رأيه نوعاً من الغريزة الجنسية » والحال ان الواقع والمنطق لايقبلان هذا المذهب . فان اى محاولة لتفسير الحياة باحدى ظواهرها او دوافعها الطبيعية تنتهى الى الفشل . لأن للكائن الحى أكثر من وظيفة واحدة . وطبيعته مركبة لايستطاع تفسيرها باحدى نواحيها . وعلى هذا يحسن بنا ان نأخذ باراء تلك المدرسة فى كثير النقد والاحتياط

وحال فرويد كحال كثيرين غيره يدفعهم التحمس لارائهم الى كثير من المبالغة والغلو . فليس التحمس نفسه سوى ثورة فى العواطف . ومتى ثارت هذه فقد يصعب

التحكم فيها عن طريق العقل والروية . وعلى اى حال فنحن فى مصرفى حاجة شديدة الى تحمس فرويد ومغالاته فى هذا الموضوع بالذات حتى نصحو من غفلتنا ونتنبه الى الخطر المحدق بنا . و يظهر فى الواقع انه من الصعب ايقاظ الجماهير من دون ان تهزهم هزة عنيفة مع ما فى هذا من خطر . لانه يصعب التحكم فى عواطفها بعد ثورانها وعلى اى حال فليس ثمة كبير خطر فى بلادنا من ذلك . لأن الجماهير لازالت مستغرقة فى النوم بخصوص هذه الغريزة

وهذه الغريزة صعبة ملحفة . ولا يمكن ان تمسك نفسها عن الحصول على غايتها فى اقرب وقت من دون ارشاد ومران مستنيرين . أوكما يقول شابمان وكوننس « تحتاج الى تنظيم فى القوى العقلية والنفسية » الحق ان هذا الموضوع من اساسه يحتاج الى اعادة نظر فى البيت وفى المدرسة . لاننا قد فشلنا الى الآن فى كل الطرق التى استعملناها . فشلنا فى التنكر له وفى تجاهله ومداراته كما فشلنا فى التجهم له . وما نزال الامور تسير من ردىء الى اردأ فى هذا النظام الاجتماعى المعقد . ولم يعد امامنا سوى شىء واحد . الا وهو ان نعالج هذه المسألة فى وضح النهار ونعالجها بعقل وروية بالتعاون العملى مع الصبيان فى دور المراهقة

قد يجوز ان لا يكون فى التجهم للامور الجنسية خطر كبير ما دام الصبيان فى دور الطفولة الاولى . فقد نستطيع ان نترك الطفل فى هذا الدور لشأنه من غير اشارة الى الناحية الجنسية منه . قد يجوز اذا اراد الوالدون ذلك ان يقولوا للطفل ان التاجر او الطبيب هو الذى احضر اخاه الصغير . لاحرج عليهم اذا لم يتحرجوا من الكذب ان يخبروه ان الاطفال يباعون ويشرون عند البدال كما تفعل بعض العائلات . لانه يظهر ان الكذب جائز فى عرف بعض الناس متى كانت الاداب العرفية تتطلبه . اما اذا كانت العائلة من طبعها ان تتورع عن الكذب لاى سبب من الاسباب فليس لها الا ان تنتهر الولد لاسئلته التى تعتبرها خارجة عن دائرة الذوق السليم . وكل ما تستطيعه تلك العائلة هو ان تقول للطفل رداً على اسئلته ان الله هو الواهب للاطفال وهذا حق لكنه يراد به باطل

قلنا فى ما سبق انه لا ينجم كبير ضرر عن ترك الاطفال فى جهل تام بالامور

الجنسية ما داموا فى دور الطفولة الاولى . ومع ان هذا فى جوهره حق الا انه لا يستقيم مع التربية الاخلاقية الحقة لأن مثل هذه الحالة لابد وان يكون لها تأثيرها السيء فى اخلاقه فى مستقبل الايام

المراهقة

أما فى دور المراهقة فيتعقد الأمر كل التعقيد لأن هذا الدور هو ما يدعوه علماء النفس بحق دور العواصف والزعازع النفسية . وفيه تنهال المشاكل والصعوبات على رأس الصبي من كل صوب وتتعقد تلك المشاكل وتتطور

التغييرات الطبيعية

فى هذا الوقت تصير للصبي خصائص الرجل الطبيعية وترد عليه التغيرات الجسمية تباعاً متلاحقة . وتأخذه اخذ بغتة من غير مقدمات تذكر فيحار الطفل كل الحيرة ويشعر انه قد صار انسانا جديداً وتتكون لديه رغائب وميول لم يكن له بها عهد من قبل . ويكتشف فى نفسه شعوراً جديداً بذاته وشخصيته وميولا جديدة نحو الاخرين . وكما ان نفسيته وطبيعته تتغيران فى هذا الدور فكذلك يتغير نظره للدنيا المحيطة به . وتتبدل هذه الدنيا فى نظره تبعاً للتبدل الداخلى الذى انتابه . فيشعر ان الناس لم يعودوا الناس كما كانوا . وان الدنيا غير الدنيا . ويصير له فى كل هذه نظرة جديدة عليه فيتأثر بمؤثرات لم تكن تفعل معه شيئاً من قبل . وتجد فيه الرغبة لتلبيات معينة لم يكن له بها عهد . ثم لا يجب ان يعزب عن بالنا تلك الغريزة الجنسية نفسها التى عرضت له بغتة . فلها مطاليب معينة تضغط على الصبي ليستجيب لها حقاً لسنا ننكر ان لهذا التغيير أوجهه الجميلة واختباراته الممتعة والمرغوب فيها ولكن « الاختبارات المؤلمة والسالبة فى دور المراهقة ترجح كثيراً على المرضية والممتعة وتبزها تعقيداً وصعوبة » كما يقول الاستاذ برات فى كتابه

التغيرات فى العقل والشعور

وليست أقل من ذلك التغييرات العقلية . فالعقل فى هذا الدور يكاد يكون فى شبه ثورة ، وينتابه شعور بعدم الرضى والطمأنينة . شعور غير واضح بالحاجة الى شيء مكمل للنفس . وبالحاجة الى شيء لا يدرك الصبي كنهه . والرغبة فى شيء

لا يدرى طبيعته . ويصحب هذه الحالة شعور بالذنب ، اذ يحس الانسان انه أشبه بخاطىء ارتكب اثماً لا يدرى ما هو على التحقيق . ثم يصحب ذلك ايضاً نوع من القلق وعدم الاستقرار لما هو حادث للنفس . خصوصاً متى كان الفرد غير مسلح بالمعرفة اللازمة لهذا الدور

معايير الفضيلة :

قيل ايضاً أن دينه ومعيار فضائله ياخذان فى التكون عند المراهقة . ففرويد يظن انه ليس للدين من أصل يبدأ منه سوى التغييرات التى تعتور الفرد عند المراهقة وشرويدر يغالى فى هذه الناحية كثيراً و يبز فرويد . فالدين عنده لا ينبثق الا من الغريزة الجنسية . أما برات فيعتدل فى رأيه و يقتصد . فهو لا ينكر اثر التبدل الذى يحدث عن المراهقة فى الدين والاخلاق . ولكنه يتحرج جداً عن ان يخطو وراء فرويد خطوة أخرى

والحق أن معايير الفضيلة تتبدل عند الفرد فى هذا الدور العصيب . فمن كان خجولا حيياً قد يمكن أن يصير وقحاً قبيحاً . ومن كان طيعاً قانعاً قد يصبح متمرداً عاصياً . فكثير من حالات الرذيلة والاجرام مرجعها الى زمن المراهقة هذا . وقد يمكن ايضاً أن يكون هذا الدور مبعثاً لكل الفضائل الاجتماعية التى توجد فى الفرد يقول الاستاذ كو « ليس احط فى الدنيا من استعمال الفرد للغريزة الجنسية لغايات ذاتية . لأنه علاوة على الشرور الاجتماعية التى تنجم عن مثل هذا الاستعمال فانه يقضى قضاء مبرما على كل المبادىء التى حصل عليها الفرد فى عهد طفولته . والتى أخذت تترعرع فيه وهو يافع . فهذه كلها تذهب هباء بسبب المراهقة التى لم تجد من ينير لها الطريق ويتحكم فى مصيرها »

الاغلب انه ليس من المبالغة فى شيء اذ نقول أن الصبى يخلق خلقاً جديداً فى هذا الدور . فاذا لم يكن هذا حقاً فى نظر الناس فعلى الاقل يكون ذلك شعور الصبى نفسه

حقا انها لمعجزة أن ينجو بعض الشبان من رذائل هذا العهد . ويخرجوا منه اصحاء سالمين . وابعد من هذا فى باب الاعاجيب أن يخرج منه البعض الآخر وهم

على أحسن ما يكونون متانة أخلاق وقوة نفس . ولـكن بكل أسف ليس هذا حظ جميع الشبان على السواء . لأن منهم من يذهبون الى الشيطان بسبب هذه التغيرات الطبيعية ولنافى حكاية تاجر شاب بولاية مساتشوستس بالولايات المتحدةعبرة وأى عبرة . فقد عجز هذا الشاب عن تحمل تجاربها المتنوعة فانتحر وهرب من هذه الدنيا . وقد كتب لأمه قبل أن يسعى الى حتفه قائلا « وعلى أى حال يا اماه فقد حافظت على طهارتى » . ولـكن علم النفس « قد اوضح لنا ان طهارة الجهول التى يشتريها بثمن هو فقدان الميل الطبيعى لمعرفة الحياة ليست فى الواقع طهارة صحيحة عاقلة »

الامراض العصبية والشذوذ الاخلاقى

ينتج كثير من الامراض العصبية والشذوذ الاخلاقى من هذه العزيزة . وفى الواقع يذهب بعض اطباء العقول كفرويد مثلا الى انه ليس لتلك الامراض من سبب سوى هذه الغريزة بالذات . لان اكبر حرب تنشب فى نفس الصبى هى تلك التى تستعر بين تلك الغريزة بمفردها من ناحية وجميع الغرائز الاخرى من ناحية ثانية . او هى التى تنشب بينها وبين الارادة . وتستعر تلك الحرب فى عواطف الصبى فتصر الغريزة الجنسية على الاخذ بزمام الانسان كله . واما الغرائز الاخرى الغرائز الغيرية والاجتماعية ، فتقاوم لحفظ كيانها ولنوال نصيبها من الالتفات . وهناعند هذا النقطة تنصب الموازين وتعلق الاقدار ، لانالنفس فى مجموعها ، والقوى الحاكمة فى الفرد ، والارادةعلى الخصوص تكون على اهبة ان تجوز نار الاصهار او على وشك ان تمتحن الامتحان الاخير الذى عليه قد يتوقف مصير الفرد . وعلى نتيجة تلك الحرب وذلك الاختبار تتعلق مقادير الانسان . فامانصر ونمو فى الشخصية والاخلاق ، واما خيبة تتلوها خيبة يعقبها تدهور سحيق . يقول الاستاذ كو « ومن الجهة الأخرى تتبين أهمية المراهقة للأخلاق من كثرة عدد المجرمين الذين يتكونون فى هذا الدور ، ومن كثيرين غيرهم الذين تنبعث فيهم العادات القبيحة والميول الرذيلة كالسكر والاستباحة اللذين لايكاد يكون لهما منشأ سوى دور المراهقة هـذا » وهؤلاء بالطبع هم الذين قد فشلوا فى الامتحان وخرجت نفوسهم وارادتهم مقهورة

على أمرها . وغير هؤلاء نوع من الناس يئد (repress) تلك الغريزة حية . وليس لهذا سوى نتيجة واحدة وهى الامراض العصبية والاخلاقية التى نوهنا عنها فيما سبق. لان وأد الغريزة لايفعل شيئاً سوى ان يزيد الأمور تعقيداً على تعقيد

وانا نرى ان الصبي فى بلادنا على حالته الراهنة ليس مسلحاً أو مجهزاً لتلك الحرب عند شبوبها . وهذا هو السبب الجوهرى فى ان الدائرة تدور على كثيرين منهم ويعرف المؤلف شخصياً بعض الأفراد الذين جنوا لأنهم لم يكن لهم ما به يدرأون الشر عن نفوسهم وليست هذه حالات شاذة لان كتب التحليل النفسى Psychoanalysis والأمراض العصبية Psychotherapy و Psychopathology تفيض بمئآت من أشباه هذه الحالات

أما من الوجهة البيولوجية فليس من ينكر ان مثل هذه الثورة ضرورية للانسان لأن هذا التنبه الجنسى لازم لحياة النوع وبقائه . يقول طوماس « يحسن بنا من هذه الوجهة ان نعلم انه من الخير ان تصحب المراهقة ثورة طبيعية ، لأنه ان لم تحدث مثل هذه الثورة ينقرض النسل ويهلك النوع »

ولكن يجب ان لاينسى الوالدون أيضا ان الطبيعة لاتهتم الا لبقاء النوع . وهذا بالذات ماتفلح فى عمله ، اذ أنها سلحت النوع بدافع قوى قاهر ليقوم بوظيفته المنوطة به . فهى قد سلحت الانسان بتلك الغريزة الجنسية ، ثم حبته أيضاً بالوسائل التى تتطلبها هذه الغريزة . واما ماعدا ذلك من القيود فهو من صنع الجماعة البشرية . فقد رسمت تلك الجماعة حدوداً وقيوداً لهذه الغريزة . وعلى هذا نخليق بالجماعة التى استنبطت هذه القوانين ان تستنبط أيضاً الطرق التى بها تعين الفرد على القيام بما تفرضه عليه . وتنقذه من العوارض العصبية والاخلاقية التى تحتوره من ذلك التضييق . فمن واجب الوالدين اذن ان يجهدوا عقولهم فى البحث عن الوسائل التى بها يرعون أطفالهم ويحوطونهم فى دور المراهقة

ويجدر بالاباء أيضاً ان لاينسوا ان قوة المقاومة تأتى فى الترتيب الزمنى بعد تطور الحاسة الجنسية ، فالتعقل والارادة يأتيان بعد ان تكون تلك الحاسة قد أخذت تفعل فعلها ، اذ لايعقل ان توجد القوى الحاكمة قبل ان يكون لها وظيفة . فالترتيب المنطقى المعقول يستدعى ظهور الحاسة الجنسية أولا . ثم ظهور الارادة

بعدها بمدة قصيرة أو طويلة . فاحرى بالوالدين ان يعينوا أطفالهم فى هـذا الدور ، حيث تـكون الارادة والتعقل غير مستعدين للقيام بوظيفتيهما خيرقيام . ولسنا نمل ان نـكرر ان وأد هذه الغريزة كما هي العادة المتبعة فى كثير من الحالات من أكثر الامور ضرراً بالاولاد

الطريقة العملية فى التربية الجنسية

لأرباب التربية مايقولونه فى هذا الموضوع . فقد اتفقوا أو كادوا يتفقون على ان الطفل يجب ان يعرف كل الحقيقة بخصوص هذه الوظيفة . واذا تعذر ذلك فى البيت الذى هو أصلح البيئات لمثل هذه التربية ، فليكن ذلك اذن فى المدرسة . ولقد اتفقوا أيضاً على انه « من الضرورى ان يعلم الآباء ان تجاهل الحاسة الجنسية أو الجهل بها هو السبب الأساسى فى شيوع البغاء » كما قرر مؤتمر التربية للآباء والمدرسين فى امريكا . وعلى هذا فيوصى المربون بأن تعالج هـذه المسألة بصراحة وباخلاص ، ومن غير تردد أو خوف . ويدعو بعضهم الى معالجتها فى المدارس بحضور الذكور والاناث من الطلبة فى نفس الوقت . قد يظن البعض منا ان مثل هـذا الرأى متطرف جداً . قد يكون كذلك خصوصاً فى بلادنا حيث يعد طفرة لاننا لم نتعود على الاختلاط الجنسي بعد ، ولاننا لازلنا نشعر ان الجنسين من طبيعتهما عدوان لبعض مقيمان

وعلى أى حال فاننا نستطيع ان نرى الاخطار الكثيرة التى تحيط بالأمور الجنسية اذا ما أحاطت بها السرية والكتمان ، لان تردد المربين فيها يوقظ الشبهات فى نفوس الاطفال ، ويشعرهم انها من الامور المزرية بالشرف والمخجلة . ويحسن بالاباء ان يذكروا القاعدة النفسية « ان السرية تثير الشبهات » .. لقد روى واشبورن القصة التالية . وهى ان احد الاباء المتعلمين أخذ يبدى قلقه وحيرته من جهة نظرة أولاده للحاسة الجنسية مع انه لم يأل جهداً فى تفهيمهم كل خصائص هذه الحاسة ، وانها من الامور الطبيعية التى لاغبار عليها . وبعد ان انتهى واشبورن من تحليل نفسية الوالد اكتشف انه هو نفسه لم تكن اتجاهاته الفكرية مما يؤيد زعمه فى طبيعة الحاسة وبرأتها مما يخجل ويزرى لانه قال بعد حديث طويل

« الحق انى لا أفكر فى هذا الفعل من غير ان أحس نوعا من الاستحياء والخجل »
هذا مما يؤيد وجهة نظرنا فى ان الصبيان يكتشفون بطريقة تكاد تكون الهامية ميول مربيهم والقوامين عليهم

يجب ان يصحب التربية الجنسية شعور ببراءتها من كل مايشينها . فليس أضر لهذه القضية من التردد والاستحياء والشعور بالذنب الذى كثيرا مايخامر المتحدثين فيها . يقول واشبورن . « شيئا واحدا لانريد ان نوقظه فى نفس الصبي من جهة هذه الحاسة ، وذلك الشيء هو حب الاستطلاع » وهذا بالذات مايدور عليه الكتاب الذى وضعه القاضى لندزى لأننا لو أيقظنا غريزة حب الاستطلاع فى الصبيان نحو هذه المسألة بالذات فقد أفسدنا عليهم تربيتهم

وتتنبه هذه الغريزة فى الصبي عند مايرى تلجلج المربى ومحاولته لان يدارى بعض الحقائق ، وتردده فى قول الحق ، واحاطته الموضوع بالكتمان ، وتهربه من البحث . وهذه جميعاً توقظ الريبة فى نفس الصبي وتجعله يوطن النفس على النفاذ الى لباب الموضوع عن طريق آخر ، ويشعر ان المربى أو الوالد ليس ممن يحسن الاتصال بهم فى مثل هذه المواضيع ، وتنشب القطيعة بين الاثنين فلا يعودان يكشفان عما يجول فى أفكارهما فى هذا الصدد ، وينفرج الخلاف بينهما . وكل هذه الامور مما تفسد على الصبي تربيته الاخلاقية . تلك التربية التى يجب ان تقوم على أساس متين من التفاهم بين الصبي ووليه

ثم ان هذه الظروف جميعاً تنتج الخوف والذعر فى نفس الصبي من ناحية الامور الجنسية ، فتراه يرتعب عندما تعتوره عوارضها ، وينتابه القلق وعدم الاستقرار عندما تتجة افكاره الى الموضوع سواء أكان ذلك الاتجاه بقصد ام بغير قصد ويصير مثله كمثل من يصاب باختلال فى الاعصاب من جراء حادث معين . فيرتعب وتصطك اسنانه عند اى اشارة الى ذلك الحادث بذاته او الى اشباهه . وهذا ايضا حال كثيرين من الاولاد مع الحاسة الجنسية . فتتوتر اعصابهم وتتقلص عضلاتهم ، ويشتد ضغط الدم عليهم ، وتترد انفاسهم بسرعة كأنهم يوشكون ان يقبلوا على امر جلل . وذلك لانهم فقط شعروا ان الحديث او الحوار يكاد ينتقل الى الامور الجنسية . ولقد شهد المؤلف بنفسه بعض الشبان المصريين يغمى عليهم

عندما يسمعون محاضرة فى هذا الموضوع . ولكم من مرة تتملك بعضهم العواطف الحادة فيثورون لغير سبب ظاهر سوى انهم يسمعون حواراً فيه

ومن خير ماقرأت فى هذا الموضوع كتاب بديع للدكتور بنزيون لبير (١) فهو ملىء بالمعانى ومفيد . ففى آخر هذا الكتاب فصل يبحث فى التربية الجنسية . وهو حوار او حديث يدور بين أم وابنتها على موضوع الأمور الجنسية وفى هذا الحديث اورد الدكتور كل الحقيقة من غير مداراة او مواربة . ومع ذلك فلست اجد فيه شيئاً يخالف الاداب او الحياء . وعلى اى حال يظهر لنا ان المسألة من البساطة بحيث لاتستدعى كل هذا التردد من الوالدين

والحق ان الانسان ليشعر انه لا يتسنى للوالدين ان يغرسوا الميول الحسنة فى اولادهم دون ان يكون للاباء انفسهم الحظ الاوفر منها . او بعبارة اخرى نرى ان الوالدين انفسهم يحتاجون الى تربية خاصة فى هذا الموضوع . او نستطيع ان نقول ان من يحتاج الى التربية الجنسية قبل غيرهم هم الوالدون وليس احداً سواهم

يحجم بعض الوالدين عن تفهيم اطفالهم وظيفتهم الطبيعية خوفا من احراج الاطفال لهم بالاسئلة فى هذا الموضوع فى حضرة بعض الضيوف . فيقولون فى ذلك انهم مضطرون لمداراة هذه المسائل خوفا من ان يحرجهم اولادهم ببعض الايضاحات امام الناس . لذلك فهم يدارون الحقيقة عن الاطفال . وبعبارة اخرى انهم يقولون باستحالة الشعور ببراءة هذه الحاسة الجنسية ، ذلك الشعور الذى يدعو اليه ارباب التربية ، لانهم اذا انتهروا اولادهم فقد طعنوا هذه البراءة فى الصميم . واما اذا لم يعملوا ذلك فهم مضطرون لأن يتحدثوا الى اولادهم بهذه الامور فى كل زمان وكل مكان

ولكننا نشعر اننا لسنا مطالبين باتباع احدى هاتين الطريقتين المتطرفتين . لاننا نظن انه باستطاعة الوالدين الاذكياء ان يعالجوا هذه المسألة بصراحة تامة وفى وضح النهار من دون ان يتعرضوا للاحراج الذى يخشونه . يجب ان لا ننسى ان للاطفال مدارك بها يميزون ، وان مداركهم تستطيع ان تؤدى وظيفتها فى هذه الحالة متى وجدت المساعدة اللازمة من الوالدين . فهم يعلمون انه ليس من الجائز ان يغتسلوا

(1) Benzion Liber "The Child and The Home"

فى الطريق العام . او يخلعوا ملابسهم فى الشوارع او يناموا على قارعة الطريق هم يعلمون ان مثل هذه الامور تمارس فى البيوت وفى اماكنها المعتادة من غير اعلان عنها . وقياساً على هذا المبدأ يستطيع الوالدون ان يعالجوا الامور الجنسية ، لأن للاطفال منطق ايضاً ، ويجب على الاباء ان يحتكموا الى منطق اطفالهم فى مثل هذه الاحوال

اما من جهة التربية الجنسية ذاتها فطرائقها متعددة والمسالك اليها متنوعة ويستطيع المربون ان يتخيروا احداها من غير كبير عناء . ومن هذه الطرق ما كان مباشراً من غير لف او دوران ، كأن يتحدث الاب الى ابنه فى التغيرات التى ستطرأ على طبيعته واعضاء جسمه بما فيها المظاهر الخارجية للرجولة كالتغيير فى الصوت وبعض مظاهر الوجه ، او بعبارة اخرى يستطيع الوالد او المربى ان يجابه الصبى من غير ان يلجأ الى الامثلة والكنايات

ومن جهة اخرى نجد ان علم الاحياء (Biology) هو من خير العلوم التى تساعد على شرح المسائل الجنسية .فالاطفال يحبون الطبيعة ويعيشون بقربها . وهم لاتفوتهم عملية التناسل فى الحياة المحيطة بهم . لانهم يرونها اثناء تأدية وظيفتها . وهم يشاهدون تناسل النبات وخصوصاً الراقى منه الذى يحتاج الى ذكر وانثى كى ينتج ونظنه ليس من العار ان يخبر الوالد ابنه انه يجب تعاون ذكر النخل وانثاه على انتاج التمر . ويجب فى هذه الحالة ان يساعد الانسان هذا النبات فى هذه العملية بأن يقرب مابين الذكر والانثى منه . نظن ان مثل هذا الحديث ليس مما تحمر له وجوه الكبار.

وبعد هذا يتدرج الوالد بابنه الى المملكة الحيوانية حيث يلزم للانتاج ذكر وانثى ايضاً . وهذا ايضاً مما يقع تحت حس الاطفال ومشاهدتهم . وليس مما يستدعى الخجل او الاستحياء . لان هذه العملية لا تتعارض مع الاداب فى شىء . وهى مما يلذ للاطفال الاضطلاع عليها ومراقبتها . ونظنه خيراً لهم ان يعلموا ان الكتكوت الصغير لا يستطيع ان يثب الى هذا الوجود من غير مقدمات . لا يمكنه ان يوجد من غير ذكر الفراخ وانثاه . ولا بد من تعاونهما فى انتاج الصغار

ثم تتلو هذه خطوة طبيعية اخرى ليست أقل روعة من سابقتيها لأنه ليس مما

يضر الطفل ان يعلم ان ذكر الانسان واثناه يجب ان يجتمعا ويتعاونا للتناسل وانتاج الأطفال . وهم لابد عارفون لهذا سواء اراد الآباء ام لم يريدوه . فيحسن ان يطلعوا على هذا من المصادر الغير متحيزة يجب ان يعلموا ان الاب يقدم البذرة كالنخلة والطير والحيوان سواء بسواء . وان الأم تقوم على رعاية الجنين وحمايته وتقديم الغذاء له تسعة أشهر كاملة . وبعد انقضاء هذا الزمن يخرج الطفل الى العالم المنظور . ليس هذا مما يخجل له الآباء او يستحيون

وطريقة مثل هذه يلتذ لها الصبيان ويعجبون . ثم انها تعاونهم فى تربيتهم الجنسية التى هى من الضروريات القصوى لتربيتهم الاخلاقية ، علاوة على انها من مقتضيات الجسم السليم والعقل السليم

طرق وقاية المراهقين

بعد ان يتسلح الطفل بهذه المعرفة يصير معها على استعداد تام لمواجهة هذه التطورات فى جسمه فلا يؤخذ على غرة وفى غفلة منه . لابل يفرح ويبشر أباه عندما يبدأ فى هذا الدور . ذلك لأنه ظل يترقبه بانتباه اولا وبميول مستقيمة بريئة ثانياً . وليس مايمنعه من ان يسر الى أبيه اوالقائم على أمره بكل التغيرات التى تحدث له . ثم ليس ثمة شىء يحمله على التستر ومداراة متاعبه وصعابه التى لابد وان تصحب هذه التطورات

ويكون أبوه قد افهمه مقدماً انه ليس مضطراً للاجتماع الجنسى المادى اضطراراً فلا يعود يستسلم لهذه الحاسة استسلاماً ولا يعود مستبيحا للفضائل والأعراض لأن هذه الاستباحة وذلك الاستسلام فى الواقع ينتجان عن بحثه واستقصائه من الشبان العديمى الاخلاق وقبول نصيحتهم . وفى معظم الحالات لايشير هؤلاء عليه بغير الطريق الوعر الذى يقود الى الرذيلة القبيحة ، ويفهمونه ان الرذيلة هى سنة الطبيعة ولن يستطيع مقاومتها ، وان فى محاولته ان يقف فى وجه الطبيعة يعرض نفسه لكل انواع الأمراض والعلل التى قد تنتهى به الى الجنون

كل هذا محض اختلاق طبعاً ، لأن الطبيعة فى جوهرها تعضد الفضيلة وتثيب عليها بالصحة والعافية والسعادة المنزلية والفردية ثم تثيب عليها بالنسل الذى يخرج

قوياً صحيحاً ممتنعاً على الأمراض الكثيرة . ولكن الطبيعة لاتلهم الفرد بهذه الحقائق ولا تفهمها له بأى حال وانما تترك هذا الامر للقائمين على أمر الصبى ليدلوه عليه ولينيروا له الطريق . ولن يستطيع الاب ان يضطلع بهذه المسئولية الا اذا توخى الصراحة والاخلاص مع ابنه

والناحية السلبية فى المسائل التناسلية لاتغنى كثيراً وبعبارة أخرى لا يجدى ان تمنع الاب ابنه عن الرذيلة باظهار مضارها له . لايكفى ان يقول للصبى لاتفعل هذا ولا تعمل ذاك حتى يكون الصبى بمنجاة من الرذائل . لأن الطبيعة تكره الفراغ وتكره الحياة السالبة التى تصر على انلا تفعل ولا تنشط . فى هذا قهر للطبيعة وارغام لها على ان تعمل ضد نفسها . وهذا لن يكون

الالعاب الرياضية

اذن لابد من ناحية ايجابية يصرف فيها المراهق ما يفيض عن حياته اليومية من القوة والحيوية والنشاط . لابد وان يكون له مجال يستغل فيه مايتبقى من نشاطه بعد ان يؤدى دورته اليومية فى المدرسة او فى البيت . ومن اهم الأمور فى هذا الصدد ومن اعودها عليه بالنفع والفائدة الألعاب الرياضية . ففيها لذة واى لذة للمراهقين وهى من انواع النشاط الذى يهواه الصبيان ويغرمون به غراماً ، فهى تلتهم وقت المراهقة التهاماً ، وتقضى على الفراغ الذى يكاد يكون افتك الآفات بالمراهق

اى نعم الالعاب الرياضية والهواء الطلق والشمس والحقول والطبيعة فيها منجاة للصبى من المخاطر المحدقة به فى سن المراهقة . يجب ان يشجع الصبى بكل الطرق المستطاعة ليلعب كل الألعاب القوية العنيفة وان يخرج الى الطبيعة حتى يتعلم كيف يتعشقها ويحبها لانه علاوة على ما فى هذا الضرب من النشاط من تحويل الفكر عن المسألة التناسلية وتوجيهها الى ناحية أخرى ، فان له فيه ايضاً منبعاً لاينضب من الصحة والعافية . ان الألعاب الرياضية لازمة له فى هذا الظرف لزوم الاكل والنوم فانها تقوى عضلاته وتجعل جسمه قوياً منيعاً

اننا ننصح للآباء ان يهتموا للالعاب الرياضية والاهتمام كله فى هذا الدور لابل نلحف عليهم بالرجاء ان يعيروا هذا الموضوع عنايتهم ويروا لأولادهم حتى

يحصلوا على قسط متناسب من هذا الضرب من النشاط لخير الصبيان انفسهم من جميع النواحى الاخلاقية والصحية والعقلية والاجتماعية ، لأن أثر اللعب فى كل هذه امر مفروغ منه ، ولأن معظم علماء التربية قد تواضعوا على ان للعب فى هذه جميعاً الحظ الأوفر

التسامى

وهنالك سبيل آخر يستطيع الوالدون ان يسلكوه حتى يعينوا أولادهم على اجتياز تلك المرحلة بسلام وحتى يستخدموها لتهذيب الأولاد وتثقيفهم . وذلك انه فى استطاعة الصبي الذى يجد مرشداً ومعيناً فى هذه المرحلة ان يتسامى بهذه الغريزة والتسامى هذا (Sublimation) هو عملية بها يحول الانسان مجرى الغريزة الى ان تنصرف فى الفنون الجميلة من رسم وموسيقى وشعر وكتابة ونحت وتصوير لأنه يظهر فى الواقع ان الجمال هو الصلة المتينة بين الغريزة التناسلية وبين الفنون فكلا هذين يستقيان من مصدر واحد ويرميان الى غاية واحدة وهى حب الجمال والغرام به . ومتى كان الجمال وحب الجمال هو الصلة بين الغريزة التناسلية والفنون الجميلة ـ وهو ما نعتقده ونؤمن به ـ فنظن انه يستوى لدى تلك الغريزة سواء أكانت تنصرف فى الاتصال الجنسى ام فى الفنون وانصرافها فى هذا أو فى ذلك يتوقف فى الواقع على نوع التربية التى حصل عليها الفرد فى طفولته وبعدها

وهذا ما يحدو بنا لأن ندعو الى نوع من التربية مخصوص . هذا ما يدعونا الى أن نؤكد التسامى بهذه الحاسة حتى تنصرف الغريزة الى الفنون الجميلة . ولذلك فاننا نطلب الى الآباء بأن يغرسوا فى نفوس اطفالهم شيئاً من الميل الى تلك الفنون علاوة على تمكينهم من الالعاب الرياضية . والاولاد بطبيعتهم لهم الاستعدادات الكافية لأن يغرموا بالفنون الجميلة . وللاسف كثيراً ما يظن بعض الوالدون أن هذا الغرام مضيعة للوقت . وكثيراً ما يقاومونه ويحاولون قتله فى مهده على انه مضر بهم ومعطل لهم عن دروسهم . ولو دروا لعلموا أن هذا الميل ليس شيئا فى الواقع سوى تساميا بالغريزة التناسلية وليس شيئا سوى أن تلك الغريزة تحاول أن تجد لها منفذاً من نشاط الفرد

يجب أن يكون للولد آلة للتصوير وأخرى للموسيقى وبعض الادوات الاخرى التى قد تنبه فى الطفل الميل الى بعض انواع الفنون الجميلة المتنوعة . وليس يضر فى شىء أن يجرب الطفل كل هذه الادوات ويحاول أن يؤدى بها عملا أو يعبر بها عن معنى يجول فى نفسه . ولا يجب أن يكون الفشل مثبطاً لهمة الأب . بل عليه أن يجرب وأن يحاول أن يفتح أمام ابنه كل الابواب حتى اذا لم يعجب الفتى باباً يلج باباً آخر ، الى أن يستقر على نوع من النشاط يغرم به ويجد فيه متسعاً للتعبير عن خوالج نفسه

وثمة ايضاً مجال للتسامى بهذه الغريزة عن غايتها المادية القريبة . وذلك فى الاعمال الاجتماعية واعمال البر . لأنه لها — علاوة على صلتها القريبة بالجمال — صلة أخرى بغريزة الامومة والابوة . وفى الواقع أن صلتها بهذه قريبة جداً ، ولذلك فاننا كثيراً ما نرى أن رعاية الاطفال البؤساء مثلا يقوم فى احيان كثيرة مقام الزواج عند كثيرين من الرجال والنساء . ولذلك فاننا نشاهد أن كثيرين ممن لم يتزوجوا يلجأون الى هذا الضرب من التسامى . حتى قيل أن احتراف بعض النساء بالتعليم كثيراً مايصرفهن عن الاهتمام بالزواج . وأن اهتمام بعض الرجال بالاصلاحات الاجتماعية يقلل من الحاف الطبيعية عليهم لأن يتزوجوا

فاذا كان هذا هو الواقع فاننا نظن أن اهتمام المراهقين بالخدمة العامة وبالصالح العام يصلح أن يكون سبيلا لهم لأن ينصرفوا عن مطاليب الغريزة التناسلية الملحة أو بعبارة أخرى يصلح أن يكون ميدانا للنشاط يصرفون القوى المتجمعة من هذه الغريزة

وبالاختصار اننا نرى أن توفير أسباب الالعاب الرياضية للصبيان واستطاعتهم لأن يتساموا بهذه الغريزة الى حب الفنون الجميلة والخير العام لجماعة من الجماعات نرى أن كل هذه مع اهتمام الوالدين واتصالهم الوثيق بأبنائهم فى هذه المرحلة — كل هذه العوامل مجتمعة تساعد الاولاد على أن يمروا بهذا الدور ويخرجوا منه اصحاء اقوياء وعلى خلق متين

الفصـــل الخامس

خاتمة

ليس لعلم من الاثر فى الاخلاق ما لعلم النفس . لأنه هو العلم الوحيد الذى يعالج النفس البشرية من وجهة اثرها فى البيئة والجماعة واثر هذه فيها . فالقوانين التى توصل اليها هذا العلم حديثا هى من ابعد القوانين غوراً فى التأثير فى حياة الافراد والجماعات وسلوك الافراد والجماعات . ولسنا نظن انه باستطاعة كائن من كان أن يوجه ميول انسان الى وجهة معلومة من دون أن يستعين بتلك القوانين سواء ادرى انه يستعملها أم لم يدر

وليس يخفى أن علم النفس كباقى العلوم يتوقف الالمام به على قدرة الفرد على استقراء الحوادث والوقائع التى تختص بالنفس البشرية ، وترتيب النتائج على هذا الاستقراء ، فهو كباقى العلوم ايضاً مبنى على المشاهدة والتجربة واستنباط القوانين التى تنظم هذه المشاهدات والتجارب . وجميع العلوم سواء فى هذا الامر . فكلها تقوم على دقة المشاهدة والقدرة على اختبار الظواهر . فالعلم إذن ليس شيئاً سوى تبويب تصرفات الطبيعة وظواهرها وتنسيقها بحيث يتسنى للانسان أن يؤمن بحدوث أمر معلوم عند توافر بعض العوامل المعلومة ، وذلك لأنه شاهد ذلك الامر بعينه عندما توافرت تلك العوامل نفسها فى جميع الحالات التى عرضت له

مثلا رأى بعض العلماء بالمشاهدة والتكرار أن للكهربة (electron) مدارين (two orbits) تدور فى احدهما حول النواة (Proton) . ولكن شوهد ايضاً انه عندما يقترب شعاع من النور الى الكهربة فانها تقفز من مدارها الداخلى الى الخارجى لتستقبل ذلك الشعاع ، وأنها ايضاً تقفز الى المدار الداخلى عندما تدفع بذلك الشعاع الى الاجسام المجاورة لها فى الفضاء . وتكررت هذه الحالة ولم يكن لذلك التصرف شذوذ ما دامت لم تدخل بعض العوامل الاخرى

التى توقفه أو تعطله . وإذن فهذا قانون طبيعى ينتمى الى علم يوثق به ويعتمد عليه وإذن صرنا نعرف سلوك الكهربة فى بعض الحالات المعينة . ونستطيع عندما نرسل شعاعا من النور فى الفضاء أن نوقن أن كل كهربة فى طريق هذا الشعاع قد غيرت مدارها مرتين

وليس هذا قاصراً على هذا النوع من المشاهدات ، فالفلاح فى قريته ايضاً يستنبط القوانين و يعرف احكامها ويخضع لها . ولم يكن الفلاح ليحتاج الى ارخيميدس ليدله على أن بعض الاجسام تطفو وبعضها ترسب وان كان ارخيميدس استخدم تلك الخاصيات فيما لم يكن القروى يستطيع أن يستخدمها فيه . ثم أن الفلاح ايضاً يتنبأ بالمطر ينهمر لأنه رأى تجمع الغيوم فى السماء ووجد بالاختبار انه يعقب هذا التجمع دائما انهيال المطر . نقول أن هذا الفلاح هو عالم من نوع معلوم ، ولمشاهداته الصادقة قوة القوانين الطبيعية واحكامها ، لا بل نذهب الى ابعد من هذا الزعم فنقول أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى بها توصل الانسان الى جميع القوانين العلمية التى تكدست على مر العصور

وقوانين علم النفس هى من هذا النوع . فقد توصل اليها العلماء الاخصائيون بمداومة المشاهدة والاستقراء فى طبائع الناس . وليست هى كما يزعم البعض رجماً بالغيب أو ادعاء بمعرفة الطبائع حيث لا يجوز الادعاء . حقا قد يخطىء علماء النفس كما قد اخطأ جميع العلماء فى مختلف العلوم وقوانينها وكما لا يزالون يخطئون . فالخطأ والصواب يجوزان على علم النفس كما يجوزان على جميع ما يشاهده الانسان ويستنبطه من الاسباب والنتائج والآراء والنظريات

بعد هذه المقدمة الضرورية نعود الى قوانين علم النفس لنرى ما ينفع منها فى تقويم الاخلاق وما لا ينفع . ما وجد بالاختبار أن له اتصالا بتكوين بعض الميول فى الفرد ، وما يختص بنزع بعض الميول الاخرى

وسوف نجد فى هذا الفصل أن لعلم النفس القول الفصل فى تكوين الاخلاق وأن قوانينه هى من خير ما يساعد المربين على الاضطلاع بهذا الواجب

والقوانين التى يمكن استخدامها لهذا الغرض كثيرة جداً . ولكننا سوف نتخير

منها اربعة فقط .وهى اولا قانون الارتباط الشرطى (The law of conditioned reaction) وثانيا قانون الممارسة (The law of exercise) وثالثا قانون العادة (The law of Habit Formation) ورابعا قانون النتيجة (The law of effect) وسوف يدور البحث فى هذا الفصل حول هذه القوانين لاغير . لأننا نجد أن فيها الكفاية لما نحن فيه

ولسنا ننوى أن نشرح هذه القوانين بالتطويل . لأن هذا يتطلب منا الخروج على موضوعنا الى علم النفس . وهذا بالطبع ليس الغرض من هذا الكتاب ، فلهذا العلم كتبه الخاصة ، واما هذا فليس يعنى بشىء سوى الاخلاق

ومع ذلك نحب أن نحيل القارىء على كتب علم النفس ليراجع هذه القوانين الاربعة ليرى لنفسه كيف وصلنا الى مثل النتائج التى أخذنا بها فى هذا الفصل . ويحق لنا اذن أن نزعم أن القارىء ملم بكل هذه القوانين وبما يترتب عليها من النتائج

وكل ما نستطيعه هنا فى هذا المجال هو أن ندون هذه القوانين من غير تعليق عليها ، ومن دون أن نحاول شرح المقدمات أو التجارب التى أدت الى وضعها والاخذ بها على انها صحيحة

(١) فقانون الارتباط الشرطى هو هذا · اذا كان من طبيعة المؤثر (ا) ان ينتج تلبية معينة هى (ب) فيستطيع اى مؤثر آخر بمفرده مهما كان ان ينتج نفس التلبية اذا سبق المؤثر (ا) عدداً من المرات معيناً . مثال ذلك . التيار الكهربائى يحدث فى الحيوان رعشة . فاذا ما سبق هذا التيار فى كل مرة اشارة من يد انسان يحدث انه بعد قليل من الزمن تكفى الاشارة وحدها لجلب الرعشة للحيوان

(٢) اما قانون الممارسة فبسيط وهو . متى تساوت جميع الظروف فان اى مؤثر تصادف وان احدث تلبية معينة يميل فى المستقبل الى احداث نفس التلبية عندما ينفعل . ويميل الارتباط بين المؤثر والتلبية لأن يدوم متى تساوت العوامل الاخرى

(٣) وقانون العادة هو هذا متى تكررت الممارسة تصير نظاماً خاصاً قائما بنفسه فى جهاز الانسان . وهذا النظام مكون من مؤثر معلوم وتلبية معلومة يصل بينهما ارتباط معلوم . وفى هذه الحالة يشق على الكائن ان يحدث تلبية اخرى

ايا كانت لذلك المؤثر . ومتى تساوت الظروف يظل هذا الجهاز - اى العادة - باقياً ما لم ينتج من وجوده الم للكائن

(٤) ثم ان قانون النتيجة هو هكذا . متى تساوت جميع العوامل الاخرى فان التلبية التى تنتج لذة تميل لأن تتكرر وتبقى وتدوم وتكون هى اول ما يحدث عندما يتوفر لها المؤثر . والتلبية التى تنتج الما تميل لأن تنحل وتتلاشى ولا تعود تتكرر

على هذه القوانين الاربعة ينبنى الفصل التالى . ومنها نستمد القضايا التى سنذهب اليها ونأخذ بها فى بناء الاخلاق . ويلاحظ هنا ايضاً اننا نؤمن بصحة هذه القوانين ونتقبلها كما نؤمن بصحة القوانين الطبيعية ونتقبلها . وذلك لأن علماء النفس يتقبلون هذه القوانين على انها صحيحة . وليس لنا نحن الا ان نذهب مذهبهم ونقتفى اثارهم

والآن نعود الى موضوعنا لنرى أين العلاقة بينه وبين هذا فنقول انه قد مر بنا ان الاخلاق هى ميول اجتماعية . فالانسان الذى له حظ من الاخلاق لايفعل شيئاً يتعارض مع مصلحة الجماعة كما يفهمها هو . نعم لسنا ننكر ان له مصلحة شخصية وميولا يسعى لتحقيقها الى أقصى حدود السعى بشرط ان لاتتعارض مصلحته وميوله مع خير الجماعة البشرية بوجه عام . لابل نذهب الى أكثر من ذلك ايغالا فى الفردية فنقول انه مطالب بحكم الفضائل والاخلاق ان يسعى وراء صالحه وميوله . لانه باعتباره فرداً فى الجماعة تتوقف مصلحة الجماعة الى حد كبير على خيره ومصلحته هو

ولكن كيف ينمى الفرد أخلاقه ؟ وكيف تتكون فيه ؟ وما هى العناصر التى تتألف منها ؟ وهل يمكن اكتسابها بأى حال من الاحوال ؟ أم هل ينزل الطفل الى العالم تاماً فى تكوينه الخلقى ؟

ان مثل هذه الاسئلة تطوح بنا فى مهامه الجدل الذى نشب بين العلماء من زمان طويل حول البيئة والطبيعة وأيهما أفعل فى بناء الاخلاق ، وعلى أيهما تتعلق أقدار الفرد . ولسنا بالطبع فى مقام هذا البحث . الا اننا نذهب الى الزعم ان البيئة هى

كل مايعنينا فى هـذا المقام . وتعنينا من حيث ان المربى يستطيع ان يتحكم فيها الى درجة معلومة

لقـد خلق الافراد متساويين فى الطاقات والاستعدادات والامكانيات . متساويين من وجهة ان لكل منهم ما للآخرين من الخلايا المخية والجهازات العصبية والغدد والتراكيب الطبيعية والقدرة على التلبيات للمؤثرات المحيطة بهم . فمتى تأثر الفرد فيهم بمؤثر من البيئة استجاب لذلك المؤثر . فهم متشابهون فى ذلك على نوع ما . بالطبع نحن لاننكر الفروقات الفردية التى أثبتها علم النفس . فليس فى العالم اثنان متشابهين من جميع الوجوه على الاطلاق . وحتى التوأم لايشبه أخاه تمام الشبه . ولكن لنا من التشابه المشترك بين الافراد مايدعونا الى ان نقرر ان الانسان مثل أخيه الانسان فى طبيعته واستعداده بصفة عامة

ومن هذه المادة الخام المشتركة تشاد الشخصيات بميولها ورغائبها ، بما تحب وما تكره ، باتجاهاتها الفكرية والنفسية . فالتربية على هذا ليست سوى صياغة هذه المادة واصطناعها فى وحدة . وهذه هى الشخصية . وخصائص هـذه الشخصية التى صيغت من طبيعة الانسان هى الشىء الذى يتحكم فى سلوك الفرد . ففى الاصل نجد ان الانسان مجموعة ممكنات تنتظر المؤثرات لتنطلق فى سبيل التحقيق . أو بعبارة أخرى ان الانسان هو استعداد لان يتأثر وينفعل فيتحرك ويفعل . وهذه التلبيات بعد ان تنتظم وتعتاد على ان تكون من نوع معلوم وان تسير فى اتجاه معين تصير المادة التى منها تحاك أخلاق الفرد . ولكننا نلاحظ ان التلبيات التى تكون لمؤثرات اجتماعية هى وحدها التى يصح ان تكون من الاخلاق . أو بعبارة أخرى ان الاخلاق هى ذلك النوع من التلبيات والاستجابات التى تتأثر من الاجتماع وتؤثر فيه

فغريزتا الطعام والتناسل مثلا ليس حتما ان يكون لهما شأن بالاخلاق الا عندما يكون لاحداهما أثر فى النظم الاجتماعية او عندما تمس الاخرين بطريق مباشر او غير مباشر ، لأن الاكل والتناسل ضرورات طبيعية اساسية . ونحن ملزمون ان نستجيب لداعيهما متى شرعا فى ان يدفعا الانسان للعمل . وهذه الاستجابة هى من الاخلاق ، وهى صالحة او طالحة بقدرما تمس الاخرين او تؤثر فى النظم الاجتماعية

او بعبارة اخرى ان التلبيات للدوافع الطبيعية ليست لها علاقة بالاخلاق والفضائل ، ولا يصح ان توصف بالصلاح او بالطلاح ما دامت لا تمس الاخرين افراداً او جماعات من اى وجه من الوجوه

نرى الآن ان التلبيات المختلفة شيء مستجد على الفرد . اى انه لم يكن حاصلا عليه عندما يولد . وهنا نقطة دقيقة ندعو الى التنبه اليها . لانها تختص بالغرائز وبالجدل الكثير الذى يدور حولها . نقول انه يوجد فرق كبير بين الاستعداد العام للتلبيات وبين التلبيات المختلفة المتباينة المستقلة احداها عن الاخرى . فالاستعداد العام للانفعال هو شيء طبيعي موروث بحكم الحياة ويستوى فيه النبات والحيوان والانسان . فاستعداد الكائن لان ينفعل من مؤثرات البيئة شيء طبيعي موجود فينا من منذ ان وجدت فينا الحياة . واما التلبيات الفردية التى تستدعيها موثرات خاصة معلومة فهى مكتسبة نتعلمها بالخبرة والمران . مثال ذلك نفرض ان المؤثر فى حالة معلومة هو رؤية اسد طليق فى حديقة الحيوانات . فتلبيتنا لهذا المؤثر بالذات هى شيء اكتسابى تعلمناه بالاختبار . وتكون استجابة بعضنا لهذا المؤثر بالجرى والهروب . والبعض بتسلق الاشجار القريبة او الدخول الى الدور المجاورة . واما تلبيات الاطفال والرضع فتختلف عن هذه كثيراً . فقد يقفون ويتطلعون باعجاب لذلك الحيوان وهو يقترب منهم . فنحن والاطفال فى هذه الحالة لنا استعداد عام للتلبيات واما تلبيتنا الخاصة — الهروب — فقد اكتسبناها بالخبرة والمران على الجرى والهروب . بينما هم لم يكتسبوا شيئاً من هذا بعد

وعلى هذا نقول ان الانسان لم يولد فى هذا العالم مجهزاً بنوع من التلبيات معلوم خلقت لمؤثرات معلومة . كلا لم يولد الانسان هكذا . فان الواقع يدل على ان انواع الاستجابات للمؤثرات المختلفة شيء تعلمه الانسان بالخبرة والمران

ثم لنلاحظ شيئاً آخر . وهو ان الارتباط بين المؤثر والتلبية لا يجب حتما ان يكون من نوع معلوم . لان نوع الارتباط يتغير بتغيير البئة التى ينشأ منها الفرد . فتلبية انسان ما لمؤثر معين قد تختلف اختلافا كبيراً عن تلبية انسان آخر لنفس المؤثر . فما يجعل الواحد يجرى ويصيح ويولول ويستغيث ربما يجعل الآخر يضحك

ويسر ويتقدم . ثم يمكن ايضاً تنويع التلبيات لمؤثر بذاته فى الفرد الواحد . فالمؤثر الذى كان يستدعى الحزن مثلا قد يصير فيما بعد مستطيعاً ان يستدعى الفرح وهكذا واكثر من ذلك فانه يستطاع ربط اى مؤثر باى استجابة من اى نوع . مثلا نستطيع بفعل قانون الارتباط الشرطى ان نصل بين مؤثر للغضب والاستجابة بالضحك . او بمعنى آخر نستطيع بفعل هذا القانون ان نجعل الولد يضحك فى كل مرة تثور فيه ثائرة الغضب . وعلى هذا يجوز ايضاً ان ترتبط المؤثرات الجنسية بالتلبيات الكريهة كالحقد على الجماعة البشرية والكراهية للنظام الاجتماعى ثم الاجرام . او بغير هذه من الامراض الاخلاقية . ثم يجوز من الناحية الاخرى ان يتم الارتباط بين المؤثرات الجنسية وبين الصفات العالية والمحببة ، كالاخلاص للعائلة وحب الزوجة والاطفال والاضطلاع بالمسئوليات نحو هذه جميعاً واحترام النظم الاجتماعية . وعلى اى حال يجب ان يلاحظ ان التلبيات التى تتكرر وتعاد مرة بعد اخرى استجابة لمؤثر معين نقول ان مثل هذه التلبيات تميل الى الثبوت والبقاء فى جهاز الفرد

قلنا أن اى مؤثر قد يجوز أن ينتج أى تلبية . ومتى انتجها فانه يميل الى انتاج نفس التلبية متى تساوت جميع العوامل . وهذا هو المقصود بالعادة . فالعادة إذن هى اعتياد جهاز الانسان أن يستجيب بطريقة معلومة متى تأثر بمؤثر خاص ومتى استطعنا أن نكون فى انسان ما كمية من العادات الحسنة فقد نجحنا الى حد بعيد فى تكوين اخلاقه . لأنه يصير من طبع الكائن أن يستجيب بتلك الطريقة عينها عندما يتأثر . ويكون من الامور الصعبة عليه أن يضطر لأن يستجيب بطريقة غيرها . وذلك لأن المسالك العصبية والارتباطات بين الخلايا فى المخ وفى الجهاز العصبى عامة تكون قد تكونت ووجدت . وتصير المسألة كلها طبيعية فيريولوجية تقريباً . فيحدث انه عند التأثر بمؤثر خاص يسافر الاحساس به على نفس الخلايا التى سافر عليها من قبل ، ويصل الى تلك المجموعة من خلايا المخ التى اتصل بها سابقاً ، ويرجع الامر للعضلات لتفعل وتتحرك على نفس الخلايا التى سبق وان رجع عليها فى المرات السابقة ، ويصير الموضوع كله من أوله الى آخره امراً طبيعيا متصلا بالتكوين الطبيعى للفرد . وعند هذا الدور نستطيع أن نقول أن

تكوين الفرد واستعداده يتطلب منه أن يفعل هذا أو ذاك فى حالة مخصوصة

قد يسأل انسان لماذا تتكون تلك الارتباطات فى الجهاز العصبى اصلا ؟ ولماذا تميل الى الاستمرار والبقاء بعد أن تتكون ؟ ولماذا لا يمكن أن الارتباط ينحل بعد أن يكون قد وجد فى الجهاز وبعد أن يفرغ الفرد من تلبيته الخاصة ؟

وفى الواقع انه من الممكن أن تنحل بعض الارتباطات بعد أن تكون قد تكونت . فنستجيب بطريقة لا نعود نستجيب بها فيما بعد . ومع أن هذا صحيح الا انه يجب أن نلاحظ أن الانسان كائن حى يلزمه أن يستجيب بطريقة ما لأن له من الدوافع الطبيعية البيولوجية ما يجعله يستجيب ، لانه لا يستطيع ان يعيش اصلا من دون ان تكون له المقدرة على الانفعال متى تأثر

ثم لا بد من وجود هذه الارتباطات ، لانه بدونها يكون الانسان كسفينة فى مهب الريح ومن غير سكان او ربان . فهى لاتدرى اين تذهب. وماذا تفعل ولماذا تفعل وكيف تفعل . فعلى قدرتنا على تكوين هذه الارتباطات بين المؤثرات والتلبيات يتوقف جميع ما عند الانسان من الاختبارات والذكريات . من الخبرة ومن المران وعليها ايضاً تتوقف قدرته على الاستفادة من الحوادث والانتفاع بما مر عليه فى تاريخ حياته . الحق انه لولا تكوين هذه الارتباطات لما استطاع احدنا ان يرفع يده الى فمه بلقمة ، ولم استطاع ان يمشى كما تمشى الناس ، او يحبو على اربع كما تفعل الحيوانات ، او يهرب من الخطر او يتقيه ، لان كل هذه الافعال تتوقف على هذه الحقيقة ، وهى ان الانسان مستطيع ان يفعل جميع هذه الامور لانه فعلها بذاتها مرة او مرات ، وان جهازه العصبى استطاع ان يحتفظ بالقدرة على اداء تلك التلبيات بعينها

اذن للانسان القدرة والاستعداد لأن يخزن بعض التلبيات فى جهازه العصبى فيستطيع ان يفعلها ويعود اليها عند مايشاء ، ويتسنى له ان يستعيد أحداها متى أراد وعلى هذا فنحن نستجيب عندما نتأثر . ولكن بمقدار ما نحصل عليه من اللذة او الألم من استجابتنا. بهذا المقدار نفسه نميل الى تلك الاستجابة بذاتها او الى تجنبها ففى تكويننا البيولوجى مايجعلنا نميل الى تلك الاستجابات التى تنتج لنا اللذة والسرور وأن نتجنب تلك التى تسبب لنا الألم

وبعبارة أخرى نحن لا ننفعل بالمؤثر فقط بل بالاستجابة أيضاً . فان هذه بدورها تصير مؤثراً . فمثلا نحن نستجيب بطريقة خاصة ، فتنتج لنا لذة وسرور فنميل بالطبع الى ان نستجيب بنفس الطريقة متى تأثرنا بمؤثرها . وكلما اعدنا هذه الاستجابة كلما تم الارتباط بينها وبين المؤثر الى ان تصير عادة عندنا . فالدافع لنا اذن هو ان ننشط متى تأثرنا . وان نتج من ذلك النشاط شيء من اللذة والسرور يسهل علينا ان ننشط بالطريقة ذاتها

ومع ذلك يجب ان نلاحظ أيضاً فى هذا المقام انه بعد ان يتم الارتباط بين المؤثر والفعل ، وبعد ان يصير هذا فينا عادة فسندرج على هذا ونستجيب حتى وان لم تنتج لنا اللذة المعتادة بشرط ان لا ينتج عن هذا الفعل شيء من الألم . ففى هذه الحالة اذن يجد المؤثر الطريق مفتوحاً امامه دائماً ابداً . فيحدث الانفعال المطلوب من الجسم من غير ان يكون لارادتنا دخل فى الموضوع . فاذا ما لم يجد له عائقاً من الارادة او من اى شيء آخر يستطيع ان يتصل بالعضلات بطريقة آلية وهذه تقوم بالأمر المطلوب كالتحدث والحركة والفعل . وهذا مايقصده علماء النفس بالعادة . فهى مجموع تلك العملية من مؤثر واستجابة وارتباط بينهما . وهذا الترتيب يميل الى البقاء والاستمرار من ذاته

فوظيفة البيت والمدرسة اذن ان يهتما للصلة بين المؤثر اياً كان وبين الاستجابة المرغوبة . يجب على هذين المعهدين ان يساعدا على هذا الاتصال أولا وان يعيناه فى محاولته الاستمرار والبقاء ثانياً . ولسنا ننكر ان هذا امر شاق ولكنه بالذات ما يطلب اليهما ان يفعلاه باى طريقة من الطرق

ومفتاح هذه الوظيفة هو فى اللذة والالم — الالم الذى ينتج من فعل الامر الرديء واللذة التى تنتج عن الفعل الحسن وهذان الامران هما اذن العاملان المهمان فى تكوين الاخلاق فيجب التنبه لهما كل التنبه ، والاهتمام لحسن استعمالهما ويجب أن لا يستعملا فى غير موضعهما ، ويتحتم أن يعالجا بعقل وروية . وهذا هو لب اللباب فى الموضوع . فاللذة والالم هما الطريق الوحيد لتأديب الاطفال وتربيتهم . وهما فى الواقع كل ما يستعمله الآباء — المفكرين منهم وغير المفكرين

ولـكن الصعوبة فى هذا الامر قائمة فى استعمال هذين الدافعين للفعل والحركة والسعى . لأنه عندما يفشل المربون فى غرس الاخلاق الفاضلة فى اولادهم ليس من شك فى انهم لم يحسنوا استعمال اللذة والالم فى معالجتهم لحالة الطفل . ولهذا اسباب كثيرة . منها أن الالم الذى كان يجب أن يرتبط بالفعل القبيح مثلا لا بد وأن يكون قد ارتبط بشىء آخر خلاف هذا الفعل . وقد تخفى هذه الحالة على المربى . فقد يجوز أن يتم الارتباط بين المؤثر واستجابة أخرى لم يكن المربى مقدراً لها وجوداً . قد يكره الولد المربى أو ميوله عوضا عن أن يكره الفعل القبيح نفسه وحتى ان تم الارتباط بين الالم والفعل القبيح نفسه فقد يفعل الولد الامر القبيح اذا كانت اللذة التى ينتجها تربو على آلامه . ولاحد هذه الاسباب أولها جميعاً أو لغيرها مما لم يذكر هنا يعود السبب فى أن الطفل ما يزال يرتكب الافعال الشائنة .

اما اللذة والسرور فهى الشىء الذى يساعد العادات والميول على البقاء والاستمرار فما كان منها ملذاً يبقى وما لم يكن كذلك يذهب . وبالطبع لا يقصد باللذة والسرور هنا ما يعود منهما على الآباء والمربين ، لأن هذا النوع قد لا يكون مما يسر الاطفال أو يلذ لهم . وفى الاغلب انه حينما يفشل المربون يكون السبب فى ذلك عائداً الى جهلهم باستعمال هذين الدافعين حق استعمالها . فاللذة كالالم يجب أن لا تتصل بشىء سوى بالفعل أو بالاستجابة ذاتها . ويجب أن تنقطع الصلة بينها و بين كل ما عدا تلك الاستجابة ، لأنه ان حصل شىء من ذلك فقد تشوش الامر واختلط على الجهاز والخلايا

يجب اذن أن يكون الارتباط بين المؤثر والتلبية مما يجلب اللذة للطفل . اى انه يجب أن يكون موجبا فى عمله بمعنى انه يجب أن لا يكون على الحياد كأن يكون خاليا من اللذة والالم على السواء

ولـكن بعض علماء النفس يذهبون الى أن اللذة والالم هما نتيجة لحركات بعض الغدد الصماء ، أو نتيجة لافرازات بعض الغدد . فنشاط هذه الغدد وافرازاتها اذن هو النتيجة لسلوك الفرد . وهذا الشعور الخفى الذى ينتاب الانسان عندما ينشط

والذى يصحب نشاطه هو حالة النفس الداخلية التى تؤثر فى مسلك الفرد . هذا الشعور أو حركات الغدد الصماء هو ما نسميه بالعواطف

و بعبارة اخرى يستمر النشاط و يبقى و يصير عادة عندما يستطيع ايقاظ عواطف الطفل ووجدانه وعلى هذا فالاصل فى نشاط الطفل وافعاله هو عواطفه وشعوره . هذا مالا يستطيع انسان أن ينكره ، خصوصا فى امر الاطفال ، حيث انهم مدفوعون بشعورهم وعواطفهم الى الفعل والنشاط والحركة

وعلى هذا يخطىء الآباء والمربون كثيراً اذ يطلبون الى اولادهم أن يفعلوا هذا أو ذاك لأن المبادىء تتطلب هذا الفعل أو ذاك . فالمبادىء فى نظر الاطفال أمور مجردة لا معنى لها . وهى اولى بعلم ما وراء الطبيعة أو بالنظريات الفلسفية . فمبدأ الحق مثلا ليس من الامور التى تدفع الإطفال الى قول الحق والصدق . لأن المبادىء أمور بعيدة ليست تصلح أن تكون من العوامل التى تدفع الاطفال الى النشاط . فالحق فى ذاته لا يتحرك له الطفل الا بقدر ما يناله من لذة أو الم عندما يقول الحق . واللذة والالم هما فى معظم الحالات الدافع الوحيد له على قول الصدق أو تجنبه . أو بعبارة أخرى أن الحق الذى يتجرد من العاطفة والشعور ليس حافزاً للطفل على أن يتبعه . ويحسن بنا أن لا ننسى فى هذا المقام أن اللذة هى فى الواقع عاطفة وشعور

لسنا ننكر الاخطار التى تتعرض لها المبادىء اذا هى بنيت على العاطفة والشعور لان اقل ما يقال فى ذلك ان الطفل يعتاد على ان تتحكم فيه العاطفة والشعور اذا هو لم يتعود ان يتحرك الا بموجبهما . وعلى هذا يحسن بالاباء ان يحتاطوا للامر لكى لا يبنوا حياة الطفل كلها على هذا النوع من العوامل

وعلى اى حال يجب ان نذكر ان منبع الافعال فى الطفل هو شعوره وعواطفه . وليس مما يعيب الطفل انه يتبع الحق لانه يحبه او يتعشقه ، او لانه يشعر بلذة وسرور عندما يستجيب لداعى الحق . ومن واجب التربية الرشيدة ان تصل ما بين الحق والعواطف والشعور فى الصبى ، وهذا هو الدور الهام الذى تستطيع اللذة ان تلعبه

الخلاصة

الاستعداد للتلبية امر موروث ، لاننا نهبط الى هذا العالم وفى حيازتنا القدرة والنشاط ، والبيئة تقدم لنا المؤثرات من عندها . ونحن ننفعل بهذه المؤثرات . والتلبية التى تنتج لذة تميل لأن تبقى وتدوم وان تكون لنفسها جهازاً خاصا فى اعصابنا .وتستطيع ان تنفعل من نفسها من دون ان نستعمل ارادتنا فى ذلك . وعلى قدر ما لها من اللذة تميل الى استخدامها مرات اخرى وان نساعدها بارادتنا على البقاء . ولكن اللذة والالم ليسا شيئا سوى العاطفة والشعور . واذن فيحسن بنا ان نسعى لأن نوقظ عواطف الطفل وشعوره فى بعض احوال النشاط حتى يبقى ذلك النشاط المرغوب فيه ويدوم . ومتى دام هذا النشاط وتكرر صار عادة .ومن مجموع عادات الطفل وميوله تتكون اخلاقه . وهذه ايضا تستمر وتبقى بنسبة اللذة التى يحصل عليها الفرد منها . وعندما تقوى الملكات العاقلة فى الصبى وتتفتح نستطيع ان نستغنى عن العاطفة والشعور اللذين اتبعناهما لبث الاخلاق فى الطفل . نستطيع ان نستغنى عنهما من دون ان يضر هذا الاستغناء بفضائل الصبى

وعند ذلك يكون فى امكان الصبى ان يعمل طبقا لمقتضيات الاخلاق والفضائل بغض النظر عما يناله من الاذى فى سبيلها

المراجع التى استعان بها المؤلف

1. Adler, Felix — The Moral Instruction of Children.
2. Beach, W. G. — An Introduction To Sociology And Social Problems.
3. Bradley, F. H. — Ethical Studies
4. Canfield, Dorothy — The Home Maker
5. Chapman and Counts — Principles of Education.
6. Coe, G. A. — What Ails Our Youth.
7. Coe, G. A. — Education in Religion And Morals.
8. Coe, G. A. — A Social Theory of Religious Education.
9. Dewey, John — Democracy And Education.
10. Dewey, John — Human Nature and Conduct.
11. Dewey, John — Moral Principles in Education.
12. Dewey, John — How we Think.
13. Dewey, John — The Influence of Darwin on Philosophy.
14. Dewey and Tufts. — Ethics.
15. Dorsey, G. A. — Why we Behave Like Human Beings.
16. Engleman, J. O. — Moral Education in School and Home.
17. Gosse, Edmund Wm. — Father and Son.
18. Hadfield, J. A. — Psychology and Morals.
19. Hartshorne and May — Testing The Knowledge of Right and Wrong.
20. Herbart, J. F. — Science of Education.
21. Hobhouse, L. T. — The Rational Good.
22. Holmes, Arthur — Principles of Character Making.

23. James, William Talks to Teachers on Psychology and To Students on Some of Life's Ideals.

24. James. William The Will to Believe.

25. Jones, Ernest Papers on Psychoanalysis.

26. Jones, Rufus M. Finding The Trail of Life.

27. Jung, C. G. Analytical Psychology—Collected Papers on.

28. Kilpatrick, W. H. Source Book in The Philosophy of Education.

29. Kilpatrick, W. H. Foundations of Method.

30. Liber, Dr. Benzion The Child and The Home.

31. Lindsey, Judge B. B. The Revolt of Modern Youth.

32. Lyttelton, Edward The Corner Stone of Education.

33. Mac Cunn, john The Making of Character.

34. Mason, Max Intelligent Parenthood—Proceedings of The Mid—West Conference.

35. Murchison. Carl Psychologies of 1925.

36. Ogden, C. K. The Meaning of Psychology.

37. Overstreet, H. A. Influencing Human Behaviour.

38. Pierce, Edgar The Philosophy of Character.

39. Poffenberger, A. T. Applied Psychology—Its Principles and Methods.

40. Pratt, J. B. The Religious Consciousness.

41. Boback, A. A. The Psychology of Character.

42. Robinson, J. H. The Mind in The Making.

43. Russell, Bertrand Education and The Good Life.

44. Russell, Bertrand What I Believe.

45. Shand, A. F. The Foundations of Character.

46. Sharp, F. Ç. Education for Character.

47. Taylor, A. E. The Problem of Conduct.

48. Thomas, Wm. I. Sex and Society.

49. Waters. Meriam Van. Youth in Conflict.

50. Watson, J. B. Psychology From The Standpoint of A Behaviorist

51 Watson, J. B. Behaviorism.

52 Weeks, M. H. National Congress of Mothers—Parents and Their Problems.

53. Weigle, L. A. The Training of Children in The Christian Family

54. Woodworth, R. S. Dynamic Psychology.

55. Yerkes, Robert M. Almost Human.

56. « الأخلاق » للاستاذ احمد امين



فهرست

صفحة الموضوع